

راينر ماريا رلكه
مختارات شعرية
ترجمة : حسن حلمى
المجلس الأعلى للثقافة
المشروع القومى للترجمة
341

المشروع القومى للترجمة

قصائد من رلكه

اختيار وترجمة: حسن حلمى

مراجعة: عبد اللطيف قديم



٢٠٠٢

المشروع القومى للترجمة

إشراف : **جابر عصفور**

- العدد ٣٤١
- قصائد من رلكه
- راينر ماريا رلكه
- حسن حلمي : عبد اللطيف قديم
- الطبعة الأولى ٢٠٠٢

يضم هذا الكتاب مختارات شعرية
من أعمال راينر ماريا رلكه مترجمة
عن الانجليزية ومطابقة مع النص الألمانى

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 **Fax :** 7358084 **E.Mail:**asfour@onebox.com



قائمة المحتويات

الموضـــــوع | رقم الصفحة

مسار

راينر ماريا رِلكُه "١٨٧٥ - ١٩٢٦"

Rainer Maria Rilke (1875 - 1926)

- ١٨٧٥ وُلد ببراغ في بوهيميا ليوسف رِلكُه وصوفي انتس "Sophie Entz" في الرابع من ديسمبر، وقد كان والده جنديا قبل أن يصبح رئيسا للموظفين في السكك الحديدية ببوهميا، ولم يكن زواج والديه ناجحا، فقد وصف رِلكُه هذا الزواج فيما بعد بأنه كان يعاني من المتاعب قبل مولده هو، كانت والدته كاثوليكية ورعة ذات تطلعات اجتماعية، ويصف رِلكُه إحساسه بوالدته قائلا: "أظن أن أمي كانت تعتبرني لعبة، دمية من دماها"، فقد كانت تعامله كأنه طفلتها التي كانت قد فقدتها قبل أن يولد. أما والده فقد كان صارما في تمسكه بالأعراف، ولعل هذا ما جعل رِلكُه يشعر بأن طفولته تفتقر إلى الحب والحنان.
- ١٨٨٢ يبدأ الدراسة في المرحلة الابتدائية، وقد كان يشعر خلال هذه الفترة بالعزلة، فهو لم يستطع أن يتخذ أصدقاء؛ لأنه كان مُرَافَقًا في الذهاب والإياب.
- ١٨٨٤ بعد انفصال والديه يرسل إلى مدرسة داخلية ثم بعد ذلك إلى أكاديمية زانكت بولتن "Sonkt-Pölten" العسكرية بالنمسا؛ فقد كان والده يرغب في أن يتلقى تكوينا عسكريا مثله، لكن رِلكُه

كان طفلا هادئا وجادا، ولم يكن يهتم كثيرا بالجانب الرياضى من تكوينه العسكرى، وكان قد بدأ خلال هذه الفترة فى محاولة كتابة الشعر.

- ١٨٨٦ - ١٨٩١ يلتحق بمدرسة فايسكيرشن "Weisskirchen" العسكرية فى مورافيا "Moravia"، ونظراً لسوء أحواله الصحية فقد اضطر والده إلى أن يخرجه من هذه المدرسة فى سنة ١٨٩١؛ ولعل أعراضه المرضية كانت رد فعل لمعاناته النفسية التى كان مردها نفوره الشديد من نمط العيش بهذه الأكاديمية العسكرية.
- ١٨٩٤ ينشر مجموعته الأولى "Leben und Leider" حياة وأغان.
- ١٨٩٥ يبدأ فى براغ دراسته للفن وتاريخ الأدب.
- ١٨٩٦ يبدأ دراسته الفلسفية بجامعة ميونيخ، يبدأ علاقة ستتطور إلى صداقة عمر مع الكاتبة والمثقفة الروسية لو أندرياس سالومى "Lou-Andreas Salomé". ولدت سالومى فى سانت بترسبرغ بروسيا، فى الثانى عشر من فبراير سنة ١٨٦١، و توفيت فى جوتنجن "Göttingen" بألمانيا فى الخامس من فبراير سنة ١٩٣٧، واشتهرت بصداقاتها مع كبار أدباء عصرها، وسالومى ابنة ضابط روسى ينحدر من سلالة هجنو "Huguenot" الفرنسية، وقد درستْ اللاهوت فى جامعة زيوريخ، فى سنة ١٨٨٢ وقع فى غرامها الفيلسوف الألمانى فريدريش نيتشه "Friedrich Neitzsche"، لكنها صدت محاولته الزواج منها، وتزوجت فى سنة ١٨٨٧ من المستشرق فريدريش س. أندرياس "Friedrich C. Andreas"، الأستاذ بجامعة جوتنجن. تعرفت فى سنة ١٨٩٧ على رِلكُه الذى كان يصغرها بأربع عشرة سنة، والذى وقع فى غرامها

فأصبحت تمثل أحد العوامل الحاسمة فى تكوين شخصيته. فى سنة ١٩١١ أصبحت منخرطة فى حلقة فيينا للتحليل النفسى حيث أصبحت تلميذة وصديقة لسيجموند فرويد؛ إضافة إلى رواياتها، نشرت كتابا عن نيتشه سنة ١٨٩٤، وآخر عن رِلكُه سنة ١٩٢٨، كما نشرت كتابا بعنوان "تشكراتى إلى فرويد"، سنة ١٩٣١، وقد نُشرِتْ مراسلاتُها مع رِلكُه سنة ١٩٥٢.

- ١٨٩٧ يلتحق بلوأندرياس سالومى فى برلين، ويغير اسمه من René إلى Rainer.
- ١٨٩٩ يسجل نفسه فى جامعة برلين لدراسة تاريخ الفن.
- ١٨٩٩ – ١٩٠٠ يقوم برحلات فى روسيا برفقة لو أندرياس سالومي. يلتقى بتولستوى، وينوى إنجاز دراسة عن الرسامين الروس، لكن هذه الدراسة لن تكتب أبدا.
- ١٩٠٠ يقضى رِلكُه فصل الصيف بمستوطنة للفنانين فى فوربسفيده "Warpswede" حيث يتعرف على النحاتة كلارا فستهوف "Clara Westhoff" والرسامة باولا مودرزون بكر "Paula Modersohn-Becker". وفوربسفيده قرية قرب بريمن "Bremen" فى شمال ألمانيا استوطنتها فى سنة ١٨٨٩ مجموعة من الفنانين تخصصت فى رسم المناظر المحلية من مروج وسهول وغابات وجداول وقناطر وطواحين هوائية وفلاحى المنطقة، كل ذلك فى أسلوب رومانسى يذكر بأسلوب مدرسة باربزون "Barbizon" فى فرنسا، كان فريتس ماكينسن "Fritz Mackensen" وأوتو مودرزون "Otto Modersohn" هما أول المستوطنين، وقد التحق بهما فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر كل من باولا بكر "Paula

"Hans أم انده (التي تزوجها مودرزون فيما بعد) وهانز Becke"
am Ende" وفريش اوفربك "Fritz Overbeck" وهاينريش فوجلر
"Heinrich Vogeler" والنحاتة كلارا فستهوف "Clara Westhoff"
التي تزوجها رِلكُه في سنة ١٩٠١، وكانت كلارا قد وُلدت ببرمن
"Bremen" في الحادي و العشرين من سبتمبر سنة ١٨٧٨،
وتتلمذتْ على فريتز ماكينسن في فورسبيده سنة ١٨٩٨، ثم
تتلمذت على كل من ماكس كلنجر "Max Klinger" وكارل زفنر
"Carl Seffner" في ليبزيج "Leipzig" سنة ١٨٩٩، ثم تتلمذت على
رودن "Rodin" في باريس سنة ١٩٠١، وانتقلت في سنة ١٩١٩
للعيش مع ابنتها راعوث في فيشرهوده "Fischerhude" حيث
توفيت في التاسع من مارس سنة ١٩٥٤؛ تمكنت كلارا من فرض
أسلوبها الفني المميز فكانت رائدة للنحت النسائي في ألمانيا، وبعد
زواجه بسنتين ينشر رِلكُه دراسة عن المستوطنة وفنانيها بعنوان
"فوربسفيده"، وقد عرض فنانو فوربسفيده أعمالهم في معرض
جلازبالاست "Glaspalast" بميونيخ سنة ١٨٩٥ فتم الاعتراف
بمواهبهم خصوصا بعد أن نال ماكنسن ميدالية ذهبية على لوحته
"موعظة في المستنقع"، ومع أنهم كانوا يحظون بإعجاب الجمهور
خلال التسعينيات، فإن نجاحهم لم يدم لأنهم -باستثناء باولا
مودرزون بكر- كانوا جماعة محلية منعزلة عن إنجازات التيارات
المعاصرة في الفن الفرنسي.

- ١٩٠١ ينهي علاقته مع لو أندرياس سالومي و يتزوج كلارا
فستهوف فينتقلان من فسترفيده "Westerwede" إلى فوربسفيده
حيث تولد ابنتهما راعوث "Ruth".

- ١٩٠٢ ينفصل عن الأسرة في فوربسفيده. يُضطر، بسبب قلة الموارد، إلى قبول إنجاز أعمال متنوعة تلبية لطلبات مُستكتبيه. يكلفه ناشر ألماني بإعداد دراسة حول النحات أوغست رودن "Auguste Rodin"، فيسافر إلى باريس حيث يتعرف عليه. يهجر الأسلوب المغرق في الذاتية و العاطفة الذي امتاز به شعره المبكر، وكان تأثير رودن العميق فيه من ضمن الأسباب التي دعته إلى ذلك. يشغل منصب السكرتير الخاص لرودن فيبدأ طابع من التكثيف المدهش في الظهور على أعماله، كما يزداد اهتمامه بالتوحيد بين الصوت والصورة والصنعة. ستمثل باريس موطنا له خلال السنوات الاثنتي عشرة التالية، إذ كان يعود إليها إثر كل زيارة يقوم بها إلى مدن وبلاد أخرى؛ فقد قام بزيارة إلى فيريجو "Viareggio" بإيطاليا في ربيع ١٩٠٣ حيث كتب الجزء الثالث من "كتاب الساعات" "Das Stunden-Buch"، كما اشتغل في روما (١٩٠٣-١٩٠٤) وزار السويد (١٩٠٤)، وزار كابري لمرات متتالية (١٩٠٦-١٩٠٨)، وقام برحلات إلى جنوب فرنسا، وإسبانيا، وتونس، ومصر، وكان خلال هذه الفترة يقوم بزيارات متكررة لأصدقائه في كل من ألمانيا والنمسا، غير أن باريس كانت موطنه المختار ولم تكن بالنسبة له تقل أهمية عن روسيا، وذلك لأسباب تاريخية وعاطفية، ولأنها كانت زاخرة بالمشاهد الملهمة، وكانت توفر له أسباب التحدي الذهني.
- ١٩٠٣ ينشر في برلين دراسة عن رودن.
- ١٩٠٣ - ١٩٠٦ يتأثر أسلوبه في الكتابة بصداقته لرودن وبأسفاره إلى باريس وروما والبلاد الأسكندنافية، وتمتاز هذه المرحلة بما سمي "Sachlichen Sagens"، أي القول الرصين

أو الحكى الموضوعى، ينشر طبعة مزيدة لمجموعته "كتاب الصور" "Das Buch der Bilder".

- ١٩٠٥ تصدر مجموعته "كتاب الساعات" "Das Stunden-Buch". يسجل نفسه ثانية لدراسة الفلسفة فى جامعة برلين حيث يتتلمذ على جيورج زيمل "Georg Simmel".
- ١٩٠٦ تُنشر "حكاية حب وموت الضابط كريستوف رِلكُه" "Die Weise Von Liebe Und Tod Des Cornets Christoph Rilke" فتحظى بنجاح هائل، وكان رِلكُه قد كتب هذه القصة عند نهاية القرن. وفى جزيرة كابرى "Capri"، جنوبى غرب إيطاليا، يقوم رِلكُه فى ١٩٠٧ بترجمة "سونيتات برتغالية" "Sonnets from the Portuguese" لإليزابث باريت براونينج.
- ١٩٠٩ رِلكُه يكتب قصيدة "جناز إلى صديقة" تخليدا لذكرى باولا مودرزون بكر التي توفيت بفوربسفده فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٠٧، وكانت باولا قد وُلدت بدرزدن "Dresden" فى الثامن من فبراير سنة ١٨٧٦، وكانت من بين أولئك الرسامين الألمان الذين تبنوا أسلوب الرسامين الفرنسيين الذين ينتمون إلى حركة ما بعد الانطباعية فى القرن التاسع عشر من أمثال بيير بنار "Pierre Bonnard"، وإدوار فوييار "Édouard Vuillard"، وبول جوجن "Paul Gauguin"، وبول سيزان "Paul Cézanne".
- ١٩١٠ يُنشر كتاب "دفاتر مالته لاوريد بريجه" "Die Aufzeichnungen des Malte Laurid Brigge". وهو كتاب مذكرات كتبت شعرا منثورا كان رِلكُه قد شرع فى كتابته منذ سنة ١٩٠٤، وبطله شاعر دنماركى شاب مقيم فى باريس.

- ١٩١٢ تستضيف ماري فون ثورن اونت تاكسيس هوينلوهه "Marie von Thurn und Taxis-Hohenlohe" رِلكُه في قلعة دوينو "Duino" القريبة من ترييست "Triest"، إيطاليا، حيث يكتب أولى مراثيه، ويكتب أيضًا قصيدة "حياة مريم العذراء" "Das Marien Leben". يشارك صحبة لو أندرياس سالومي في مؤتمر علم النفس المنعقد في ميونيخ حيث يلتقي بسجموند فرويد.
- ١٩١٤ في بداية الحرب العالمية الأولى، يكتب رِلكُه قصائده "أناشيد الحرب"، غير أن حماسه المبكر للحرب سرعان ما يتراجع أمام الدمار.
- ١٩١٥ يُلحق رِلكُه بالجيش النمساوي لأداء الخدمة العسكرية.
- ١٩١٦ يعين في إدارة أرشيف الحرب بفيينا.
- ١٩١٨ ينتقل رِلكُه ثانية بعد انتهاء الحرب إلى ميونيخ فيتعرف على الملحن هانز آيزلر "Hans Eisler" وعلى إرنست تولر "Ernst Toller".
- ١٩١٩ يغادر رِلكُه ألمانيا، ويقيم في أماكن مختلفة بسويسرا.
- ١٩٢١ ينتقل للإقامة في قلعة مزو "Chateau de Muzot" بوادي الرون في سويسرا.
- ١٩٢٣ تُنشر "مراثي دوينو" "Duinser Elegien" و"سونيتات إلى أورفيوس" "Die Sonette an Orpheus". يعكف رِلكُه على ترجمة قصائد لبول فاليري "paul Valéry".
- ١٩٢٤ - ١٩٢٦ يكتب أولى قصائده بالفرنسية، ونظرا لسوء حالته الصحية يقوم خلال هذه الفترة بزيارات متكررة إلى مصحة في

فال مون "Val-Mont" بالقرب من مونترو "Montreux" وراجاز "Ragaz".

- ١٩٢٥يقوم بزيارة لباريس فيحظى بحفاوة كبيرة فى الأوساط الأدبية فى العاصمة الفرنسية.
- يتوفى رِلكُه فى التاسع والعشرين من ديسمير بفال مون، وتُنشر "أعمال مايكل أنجلو الشعرية" بعد وفاته، كما تنشر رسائله التى تشكل كما هائلا وتتضمن رسائل موجهة إلى أبرز الكتاب والمثقفين المعاصرين له من أمثال: مارينا تسفيتيفا "Marina Tsvetaeva"، وأوغست رودن "Auguste Rodin"، وأندرى جيد "André Gide"، وهوجو فون هوفمانشتال "Hugo von Hofmannstahl"، وشتيفات تسفايج "Stefan Zweig".

تقديم

[١] الشاعر: لمسات

الشاعر والمفارقة:

عجيب أن يرتضى المرء لنفسه رقيما بهذا الجلال:

أيتها الوردة، يا تناقضا محضا،

يا شهوة بألا تكونى تحت آلاف الأجفان

نَومَ أيٍّ كان.

وعجيب أن تكون شوكةٌ ما، مقترنةٌ بوردة ما، وردة يقتطفها مريض يعانى من اللوكيميا أسابيع قبل وفاته ليقدمها إلى معجبة جاءت تزوره، عجيب أن تكون هذه الشوكة هى التى تقوده بابتسار نحو حتفه؛ فيا للمفارقة التى ينطوى عليها هذا التناقض المحض، هذه الشهوة! ويا للمفارقة التى تكمن فى هذا الإعدام، فى هذا العدم الذى يتآخى فيه النوم والموت! أما الأجفان المنسدلة فلا يمكن أن تنسدل حتما إلا على الظلام، ظلامِ الأصل، وظلام المآل، ذلك الظلام الذى يخصه الشاعر بهذا البوح المتَّقد:

أيها الظلام الذى منه جئت،

أعشقك أكثر من كل النيران التى تسيج العالم.

ولعل الوردة، وشهوة الوردة، وعشق الوردة، وتناقض الوردة، مجرد أطياف لروح قُدِّر لها أن تظل أبدا مشمولة ببرودة الظلام، برودةٍ هيهات

أن تنال منها كل هذه النيران المحيطة بالعالم، ولعله ما يجعل هذه الروح تنظر إلى المصابيح المتمايلة الغافلة، متأملةً، متفكرة، فينتابها ريب أن الظلام حق، ثم إحساس بأنها بلغتْ مقامات لا تدركها اللغة:

تظل المصابيح متمايلة فى غفلتها:
فهل يكذب نورُنا؟
هل الليل هو الواقع الوحيد
الذى دام لآلاف السنين؟
أُحِسُّنى أقربَ إلى ما لا تبلُغه اللغة.

من هذه المقامات التى تتعالى عن اللغو واللغة، تُنصِّب الروح الشاعرة ذاتها خالقا لعالم موازٍ، أو مرادف، للظلام، هكذا تحتفى مزهوة بظلام الصمت وصمت الظلام:

ها أنتذا قد أنشأتَ العالم
(وسينمو كلمةٌ لم تُنطق بعد، كلمةٌ مازالت تنضج فى الصمت).

فإن كانت الكلمة فى رحم الصمت سائرة فى طريق النضج، فلأن الدم - دم المفارقة - يجبرها على المضى فى هذا الطريق، كما يجبر الذات الشاعرة على معانقة إشراق الوحى بدلا من معانقة كلام أو تعبير يظلان -مهما بلغا من النضج- على صلات بظلمات الصمت لا تنفصل:

دمك يجبرك لا على التشكيل ولا الكلام
بل على الوحى.

وقد يكون من إشراقات الوحى أن الذات الشاعرة، اقتداءً بشاعر غابر، بشاعر فى ذمة الصمت والظلام، تنغمس فى لعب مقدس بالبهجة الأبدية فتؤسس على كل هذه المفارقات صرحا متعاليا، مفارقا، يخلد جوهرَ الشعر، صرحا تقف أمامه آمنة مطمئنة، لا تجزع ولو لانهياره:

كذا عَبِثتَ لسنوات لم تعد تحصيها، عبثتَ مقدَّسا بالبهجة الأبدية، كأنها لم تكن بباطنك بل كانت متناثرة - لا مالك لها - فوق مروج الأرض الوديعة حيث تركها أطفال يشبهون الآلهة.

آه، ما تاق إليه العظماء شيدته أنت، دونما شهوة، حجرا فوق حجر حتى غدا شامخا، ولم تصبك الحيرة حتى حين انهار.

والصرح، على انهياره، يُحيل على الرقيم - صرحُ **هلدرلن** يحيل على رقيم **رلكه،** هكذا تكتمل الدائرة: صرحٌ ملحمى يخلد جوهر الشعر، ورقيمٌ غنائى يخلد الذات الشاعرة، وهكذا يرجِّع العبث المقدس بالبهجة الأبدية شهوةَ وردة التناقض؛ وشهوتها: ألاَّ تكون تحت آلاف الأجفان نوم أى كان.

وحتى يكون نصر المفارقة حاسما، يُرجِّع الرقيم على نحو يكاد يكون خرافيا أصداء الرؤيا بهذه النزوة الغنائية التى دوَّنها الشاعر فى مذكراته قبل كل ذلك بربع قرن:

> ابتدعتُ ... لمسةَ حنان جديدة: أن أضع، برقة، وردة على عين مغمضة، وأتركها هناك حتى تكاد العين، لطراوتها، لا تحس بها، فلا يستقر على الجفن إلا رقتها كما يستقر عليه النوم قبل الشروق.(١)

1. Quoted in Ralph Freedman, Life of a Poet: Rainer Maria Rilke, (Evanston, Illinois, 1998), p. 531.

الشاعر والترحال:

كان المتنبى - أكرم الله مثواه - لا يرى مجالا للتعلل: "بم التعلل؟ لا أهل ولا وطن/ ولا نديم ولا كأس ولا سكن"؛ ويبدو أن شاعرنا يشاطر المتنبى هذا الإحساس إلى حد بعيد:

لا حبيب لى ولا وطن

ليس ثمة مركز يسند حياتى

تغتنى كل الأشياء التى أهبها نفسى،

وتتركنى منهكا، مملقا، وحيدا.

ويبدو هنا أن المفارقة تلازم الشاعر، فبإملاقه تغتنى كل الأشياء وبوحدته تستأنس، وهكذا يقتنع بأن الوحدة والفقدان قدر محتوم لا يملك أمامه إلا أن ينجرف منقادا قلقا شاردا، ويجوب، على غير هدى، متاهة الصعود والهبوط، لا يتبين هدفا ولا يقر له قرار:

من لا يملك الآن بيتا لن يبنى أبدا لنفسه بيتا

من هو الآن وحيد ستطول وحدته،

سيستيقظ ويقرأ ويكتب رسائل طويلة

وفى الطرق المقفرة سيشرد قلقا،

صاعدا هابطا، والريح تذرو ذابل الأوراق.

وهذه الأبيات تصف بالضبط حال الشاعر الذى طالما عانى من هذا الإحساس الدائم بالعزلة والاغتراب؛ وهو إحساس حاضر بقوة فى خلفية هذا البورتريه المكثف الذى يقدمه هنا **س. ف. ماك إنتير:**

أهم شاعر فى ألمانيا منذ **جوته**... يمكن اعتباره رجلا يشعر بأنه منفي، رجلا أنفق أيامه فى المتاحف، والمعارض الفنية، فى الأستوديوهات، والمكتبات، فى الحدائق العامة والمتنزهات؛ متسكعٌ فى ليل الشوارع، أحيانا فى أشد الشوارع كآبة، شاردٌ يعبر جسور **السين** الكثيرة، يعرف - كما عرف **أوفيد، وتو فو، ودانتي، وهاينه** فى آخر أيامه - مرارةَ الصعود والهبوط على درج منازل الآخرين، كان رجلا جد متعاطف مع المنكوبين والمنبوذين: مع العمى، والمقعدين، والمتسولين، والمنتحرين فى مستودع الأموات، والبغايا والعجائز، والحيوانات المحبوسة. لا يستطيع أحد مجاراته فى التعبير عن مشاعر الحيوان، وكان يعرف أسرار الطفولة، ويميز الظلال المرهفة لأحاسيس النساء.(٢)

ويتناول الشاعر الأبعاد الوجودية لموضوع الرحيل فى قصيدة عنوانها "رحيل الابن الضال" نقتطف منها هذه الأبيات:

أن نرحل الآن عن كل هذا التهافت

الذى هو تهافتنا، لكننا لا نستطيع أن نصادره،

هذا الذى يعكس، كأنه الينابيع، مظهرنا،

يعكسه هيئةً ترتعش حدودُها ثم تتلاشى؛

أن نرحل عن كل هذا، هذا الذى بنا

يتشبث كما يتشبث العُلَّيْق ...

2. C. F. MacIntyre, Rilke: selected poems, (Berkley, Los Angeles, London, 1940), pp. 5-6.

وأن نرحل حتى حين نفعل، منفصلين،
كأننا مزقنا جرحا كاد يلتئم،
وأن نرحل: أين؟ إلى فضاء
لا يتكشف عن شيء، إلى أرض ما دافئة، غريبة،
أرضٍ ستظل، بدون إحساس، خلفَ كل شيء:
خلفَ الحديقة والبحر والرمل...
أن نواجه كلَّ هذا ونثابر بلا جدوى.
أن ندع ما حملناه يسقط، أن نموت
في العزلة معوزين، دون أن نعلم لماذا ـ

أنحن في الطريق نحو وجود جديد؟

توحى هذه النبرات القلقة بأن الشاعر يحس إحساسا مؤلما بحتمية هذا الرحيل الأبدى الذى لا يبدو واعدا، بأى حال؛ فحتى عنوان القصيدة ينم عن تشاؤم جلى لأنه ينطوي، فى ما يبدو، على سخرية من الطمأنينة التى يُلهمها مَثَل "عودة الابن الضال"، وتؤكد نهاية القصيدة هذا التشاؤم باستفهام إنكارى صادر عن موقف لاأدرى ساخر.

ولعل فى هذا ما يفسر ولع الشاعر بالترحال؛ فقد كان دائم التنقل فى مختلف أرجاء العالم القديم: روسيا، ألمانيا، فرنسا، إيطاليا، إسبانيا، تونس، مصر، سويسرا؛ ولم يكن يستقر طويلا فى أى بلد يحل به، بل تراه غالبا ما يتنقل بين هذه البلدان؛ فكأنه "كان يسعى إلى تصحيح خطأ كونه

قد وُلِد في مكان محدد"[٣] و تربط **جنيفر إس. كوشمان** بين تنقلات رِلكه هذه وبين أزمة هوية كان يعاني منها بسبب ظروف نشأته:

> إن اعتبار رِلكُه شاعرا "ألمانيا" يحجب انتماءه إلى الإمبراطوريةَ النمساوية الهنغارية، لكن نعته بكونه "هنغاريا" يلقي ظلالا على هويته العرقية والتاريخية: فقد كان مواطنا من بوهميا، ناطقا بالألمانية؛ وقد ظل يعتبر نفسه بوهميا، حتى بعد قيام تشكوسلوفاكيا، منطقة متعددة اللغات، وأدت به ممانعته في أن يختار هوية وطنية إلي مواجهة صعوبات حين ظل -بعد الحربِ العالمية الأولي- يحمل جواز سفر غير صالح، ولم يُقبل طلبه باكتساب الجنسية التشيكية إلا بتدخل من **مازاريك** نفسه...إن طمس الحدود الجمالية والنفسية [في المراثي والسونيتات...] يوازي رفض الحدود اللغوية والثقافية والجغرافية والسياسية، وكان من أهم نتائج هذا الرفض إدعاء رِلكُه بأنه مواطن أوروبي...[٤]

غير أن هناك، إلى جانب هذه الاعتبارات الجغرافية والسياسية، تفسيرا آخر يمكن تبينه في "رسائل إلى شاعر شاب"؛ حيث يقول **رِلكُه** إن الترحال يكون أيضا في غيابات النفس، بل إن هذا النوع من السفر، السفرِ عبر فيافي الذات، ضرورة لا تتم بدونها التجربة الشعرية:

3. Jeremy Adler, "Solitude is a true Elixir", The Times Literary Supplement, 10/10/1997.

4. Hobbling the Habsbug Hegemony: Literary Responses to Czech Nationalism by Rilke, Kafka, and Hasek. ":http://www.mrs.umn.edu/~cushmajs/cv.shtmal" \1 "anchor475127

الضرورة الوحيدة هى العزلة؛ العزلة الباطنية الشاسعة: أن ترحل فى الذات دون أن تصادف أحدا أثناء ساعات رحيلك؛ هذا ما يجب أن تبلغه، أن تكون وحيدا كما كنت وأنت طفل، حين كان الكبار حولك يسيرون وهم منهمكون فى ما بدا هاما وعظيما، لأنهم بدوا مشغولين، ولأنك لم تكن تفهم شيئا مما يفعلون، وإذ تدرك أن أنشطتهم تافهة، وأن مهنهم جامدة، وأنها لم تعد على صلة بالحياة، فماذا يمنعك من أن تواصل احتقار عالمهم برمته كما يحتقره الطفل، كأنك، من أعماق عزلتك التى هى فى حد ذاتها عمل ومهنة ورتبة، تنظر إلى شيء غير مألوف؟ لماذا ترضى أن تستبدل بالمواقف الدفاعية والازدراء جهل الطفل، ذلك الجهل الحكيم، مادام جهل الطفل، أساسا، نمطا من أنماط الانعزال، بينما المواقف الدفاعية والازدراء مشاركة فى ما ترغب أن تنفصل عنه(٥).

ومهما يكن من أمر، فإن الشاعر يواصل ترحاله؛ فكأنه يفر أبدا من الكآبة، ولا يكف عن السعى نحو الخلود، متأرجحا فى هذا السعى وذاك الفرار بين أعلى مراتب التسامى وأدنى درك فى الحضيض:

تجد نفسك مهجورا، لا ولاء لديك لأى شطر،

فلست كئيبا كالبيت الصامت، ولا أنت يقينا

موعود بالخلود

كذاك الذى يصير نجما ثم يتسلق الليل...

.... وتصير تارة حجرا وتارة نجوما.

5- Letters to a young Poet, translated by Stephen Mitchell, (New York, 1984).

وبين الكآبة والخلود، بين الحجارة والنجوم، تتذبذب الذات الشاعرة عزلاء إزاء حتمية الرحيل الأبدي؛ فهاهوذا الشاعر، فى إحدى المراثي، يخاطب الملاك قائلا:

لا تحسبن أننى أتودد،

وحتى إن فعلتُ، فإنك لن تأتى، أيها الملاك؛

فندائى مفعم أبدا بالرحيل؛ وأنت لن تستطيع

أن تغالب مثل هذا التيار الجارف.

عبث، إذن، لا وصال يُرجى؛ فالشاعر واع تماما بأن لا فائدة من السعى لأن الرحيل دوما يهزم النداء، وهو يدرك أن الملائكة فى عليائها تظل عاجزة أمام مثل هذا النداء، ولعل مثل هذا الإحساس المحبط هو الذى يجعل الشاعر، فى مرثية أخرى، يتساءل بنبرة محتجة:

من ذا الذى جعلنا ندور هكذا،

ونظل ـ مهما فعلنا ـ فى وضع

شخص راحل؟ فكما يفعل شخص راحل

حين يتوقف، لآخر مرة، ويلتفت ويتلكأ

على أبعد تل يرى منه الوادى بأكمله،

نعيش نحن هناك، فى وداع أبدى.

مهما حاول الشاعر أن يتمادى فى التعلل، فإنه يضطر فى النهاية إلى الاعتراف بعبث التعلل فى مواجهة آباد من الرحيل والوداع.

الشاعر والملائكة:

للملائكة أهمية خاصة في تجربة الشاعر؛ ففي سنة ١٩٠٩، أي قبل بضع سنوات من شروعه في كتابة المراثي، يعلن في إحدى رسائله عن عزمه على أن يتشبه بالملاك في خلق فنه، حيث يقول إنه لا يعتبر "الفن مجرد انتقاء من العالم بل تحويلا جذريا له، تحويلا إلى ما هو بهي: فالروعة التي يلقي بها الفن نفسه على الأشياء (كل الأشياء بدون استثناء) يجب أن تكون من الاندفاع والقوة والإشعاع بحيث لا يجد الشيء وقتا لتذكر قبحه أو فساده، لا يوجد في عالم الرهبة شيء، مهما بلغت سلبيته، لا يجعله تأثير الإنجاز الفني فيه يكتسب إسرافا إيجابيا عظيما، يمكنه من أن يؤكد الحياة،كأنه ملاك قادر على أن يقول لها كوني فتكون،" ويرى **فرانك وود** أن تصور **رلكه** عن الملائكة تحدده اعتبارات جمالية أكثر مما هي دينية:

قيل الكثير عن الملاك في **المراثي**، وقد نشأ الارتباك في ما قيل عن الميل إلى الخلط بين المفاهيم الدينية والمفاهيم الجمالية، بين الفن والقيم الأخلاقية؛ فرغم أن فن الشعر لدى **رلكه** زاخر بالتضمنات الأخلاقية، فإن ملاك المراثي ليست له أية دلالة دينية، وقد نهى الشاعر نفسه عن أي تأويل مسيحي... مؤكدا أن "ملاك **المراثي** لا صلة له بالملاك في الجنة كما تتصور المسيحية، بل هو أقرب ما يكون من التصورات الإسلامية عن الملائكة"[٦]، ويبدو أن **مايكل هامبورجر** قريب من رأي **وود** حين يلاحظ أن ملائكة **رلكه** "رموز للتسامي، وأن من الحكمة أن تؤول تأويلا شعريا، لا تأويلا لاهوتيا، وذلك في سياق نظامه القائم على التحويل والتحول الأبديين"[٧]، والملائكة في عرف الشاعر "أرواح ساطعة لا شروخ بها"،

6. Frank Wood, Rainer Maria Rilke: The Ring of Forms, (Minneapolis, 1958), p.148.
7. Michael Hamburger, An unofficial Rilke, (London, 1981), p.25.

وقد يكون سطوعها الباهر هو الذى يجعل شاعر المراثى يستشعر، بكامل الحدة، رهبتها، وهى أرواح مكتملة، ربما فى مقابل البشر الذين يظلون، بالمقارنة، أشباحا قاتمة تسعى أبدا نحو الكمال دون أن تبلغه؛ فحين تُسأل الملائكة عن هويتها، يكون الجواب حاسما:

أحبةُ الخليقة المدللون، من بين الأوائل الذين بلغوا الكمال،
سلسلةُ جبال، قممٌ وتلال تبدو أرجوانيةً فى نور الصباح،
من بين كل الخليقة، طَلْعُ الألوهية المزهر،
جماعُ النور الخالص،
دهاليزُ، سلالمُ، عروشٌ، فضاءات من الجوهر،
دروعٌ من النشوة، عواصفُ هوجاء من أحاسيس البهجة،
ثم مرايا منفصلةٌ تَلُمُّ البهاءَ المتدفق منهم
و تُعيده ثانية إلى وجوههم.

ويبدو أن لا حدود لتجليات الملائكة لأنها مخلوقات مدللة أثيرة، ولأنها ارتادت قبل غيرها مدارج الكمال؛ فهى تارة جبال تسامت، وأخرى تلال يتوجها أرجوان الشروق؛ وقد تشف حتى تصير طلع الألوهية المخصب، فيتحقق بها وفيها جماع النور المطلق، ثم تنتشر نورانيتها فوق تعينات يحيل بعضها على بعض: فالدهاليز تفضى إلى السلالم، والسلالم تقود إلى العروش، وهذه تشرف على آفاق ساطعة من الجوهر، تتراءى فيها دروع النشوة، وأحاسيس البهجة، تحتد البهجة والنشوة فتهبّان عواصف هوجاء تتكسر وتنعكس بهاءً على مرايا متفرقة تتبادل الإشعاع مع وجوه الملائكة، تجليات لا يمكن إلا أن تذهب بالأبصار والبصائر! لكن

الشاعر، مع ذلك، يحمل على الملائكة أحلاما لا يبدو أنها تختلف كثيرا عن أحلام الفانين: "أحلامها مسكونة غالبا/ باشتياق شبيه بالاشتياق إلى الخطيئة"، وربما كان هذا التشابه فى الأحلام هو الذى يجعل الشاعر يتأمل إمكان وجود أوجه شبه أخرى بين من يمثلون النقص ومن يمثلون الكمال: "أحقا أن الملائكة لا تتشرب ثانية سوى ذلك الإشعاع الذى ينبع منها،/ أو أن ثمة أحيانا نفحةً من جوهرنا تسربت ـ كأنما سهوا ـ إلى ما تتشرب ؟" إن سطوع الملائكة، ذلك الإشعاع المنبعث منها، هو مصدر هيبتها وجبروتها؛ وفى غمرة ذلك الإشعاع يتحقق التحول الخارق من المرئى إلى الخفي، كما يشرح الشاعر فى إحدى رسائله [**١٩٢٥/١١/١٣**]: [الملاك فى "**المراثى**"] هو ذلك المخلوق الذى يبدو فيه التحول من المرئى إلى الخفى ـ ذلك التحول الذى نسعى نحن إلى إنجازه ـ متحققا...؛ ذلك الكائن الذى يضمن لنا أن ندرك فى ما هو خفى مستوى أرقى من مستويات الواقع؛ ولذلك نجده "رهيبا"؛ لأننا ما نزال متشبثين بما هو مرئى"[٨] ليس غريبا، إذن، أن تستبد بنا الرهبة، نحن المتشبثين بالعالم المرئى، العاجزين عن تجاوزه والنفاذ إلى ما وراءه من عوالم خفية، فى حضرة هذه الكائنات التى يشخص وجودها ما نحن عن تحقيقه قاصرون، هذه الكائنات التى لا نملك إلا أن نعشى أمام بهائها المشع الذى يهددنا بالفناء، فيتعذر إدراكُنا حتى لما هو مرئى:

من يسمعنى من بين طبقات الملائكة إن أنا صرخت؟

وحتى إن حضننى فجأة ملاك

إلى قلبه، فإننى سأفنى

8. Stephen Mitchell, Ahead of All Parting: The Selected Poetry and Prose of Rainer Maria Rilke, (New York, 1995), p.511.

فى معانقة وجوده الجبار.
فالبهاء ليس سوى بداية رهبة
نكاد لا نطيقها و نتهيب
لأنه يزدرينا بهدوء ويستنكف من أن يمحقنا.
كل ملك من الملائكة يبعث على الرهبة.

وفى ظروف النزول، تروى الأميرة **مارى فون ثورن اونت تاكسيس هوبنلوهه** فى مذكراتها أن الشاعر كان، أثناء عاصفة هوجاء، يسير قلقا ذهابا وإيابا أمام قلعة **دوينو**، منشغلا برسالة هامة كان عليه أن يكتبها، حين بلغ سمعه من بين أعماق الريح صوت ملاك يرتل الكلمات الأولى من هذا المقطع، وقد دون الشاعر هذه الكلمات قبل أن يدخل لكتابة رسالته، وفى ذلك المساء كان ميلاد أولى مراثيه، ويعلق أحد النقاد على هذه الحكاية قائلا: "الملاك فى المراثى من صنع خيال **رلكه**، فريح الشمال لا تتكلم الألمانية"[٩]، ومهما يكن من أمر، فإن الشاعر لم يكن ليفتتح بهذا المقطع أحدَ أهم أعماله، إن لم نقل أهمها، لو لم يكن للملائكة أهمية قصوى فى نظرته إلى العالم، ومع بعد المسافة زمانا ومكانا، فإن إحساس الشاعر هنا بالرهبة فى حضرة الملائكة يذكر بهذا الوصف لابن عربى فى **الفتوحات**:

> قال تعالى: "وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون"، وقال تعالى: "ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد"، وينتج هذا الذكر لصاحبه مشاهدة الحق عند قوله وقبوله له، ومن شاهد الحفظة فمن هذا المقام شهدهم، ولما

9. Brian Phillips, "The Angel and the Egotist: the Human Cost of Rilke's Art", The New Republic, (05.08.2000).

أشـهـدنيـهم الحق تعـالى تـعـذبت بشـــهـودهـم، ولم أتـعـذب
بشـهـود الحق، فلم أزل أسـأل الله له فى حـجبهم عنى فلا
أبصـرهـم ولا أكلمـهم، فـفـعل الله مـعـى ذلك وسـتـرهـم عن
عينى. [الفتوحات، ١٨٨/٤]

واضـح، إذن، أن جلال الإشـعـا ع ماحقٌ فى الحـالتين، وأن لا قبل لرؤية أو لوجـود الفـانين على تحـمله دون سـتـر أو حـجـاب. لكن الشـاعـر ـ رغم إدراكه لـهذا ـ يعـتبر الملائكة طيور الروح، ولا يجد بدا من الاسـتـعانة بـها فى تـحليقه نـحو الأعالى:

كلٌّ ملاك من الملائكة يبعث على الرهبة،

لكن للأسف ـ و مع أننى مدرك لكل ذلك ـ

أستـعين بك يا طيور الروح، أيتهـا الطيور التى تكاد
تكون مُـهْـلِكة.

وهو مدرك تماما بأن مـواجـهة الملائكة الآن أشد وطأة من مـواجـهتـها فى سالف العصور، فى عصـور المعجزات، أيام كانت تشفق على الفانين فتخفف من حدة نورانيتها كى تضمن نجاتهم من جلالها المشع:

أين أيام توبياس حين وقف عند الباب واحدٌ منكم
شبه مُـقَــنَّـع يخفى نورانيتَه مستعدا للسفر، فلم يعد
يبعث على الرهبة؛

(كان شبـيها بذلك الفتى الذى كان يـنظر إليه خلسة
من النافذة)،

لكـن لو أن المـلاك الأعظم المُـهلِــك الـذى هو الآن

خلف النجوم يتـنـزل نحونا

ولو خطوة واحدة، لتصاعد وجيبُ قلوبنا حتى نهلك.

وقد يكون فى قوة هذا الجـلال المشع تفسـيـر لعـجـز الملائكة ذاتهـا عن التمييز: "الملائكة ـ فيما يقولون ـ غالبا ما تعجز عن التمييز/ بين تجولها وسط الأحياء أو تجولها وسط الأموات"، لكن هذا العجز لدى الملائكة مصـدر قوة لا ضـعف، فـهـو الذى يمكنـهـا من التنقل بِحـرية، ودون جـواز، بين عـالم الأحياء وعالم الأموات، ويمنحها سلطانا لم يُمنح لغيرها من المخلوقات.

وهكذا نرى الشاعر يحتفى، فى إحدى السونيتات، بالملائكة لما تمثله له من رفعة وجلال فيتصورها محتشدة كالأطيار على أشجار معجزةٍ ليست كالأشجار:

أهناك، إذن، أشجار ستحتشد عليها الملائكة،

أشجـارٌ خفيـة يشذبهـا البستـانيون ببطء، يشـذبونها

تشذيبا غريبا

يجعلها تُـثـمر لنا ـ مع أنها ليست لنا ـ مـا يشبه تلك

الفواكه؟

ألم نستطع إذن أبدا ـ نحن الظلالَ والأشباح،

بأفعالنا التى تبلغ النضج مبكرا ثم تذوى فجأة ـ

أن نُقلق راحة ذلك الصيف الهادئ؟ (S,17)

هكذا ينعم علينا الشاعر بهذه الرؤيا التى نلمح فيها تلك الأشجار الخفية، ونشهد ذلك التشذيب الغريب، ونتذوق تلك الثمار العجيبة؛ وهكذا نسمع الشاعر ـ مع أننا ظلال وأشباح لا تقوى حتى على إقلاق راحة ذلك الصيف ـ نسمعه بعد الخلاص من الرهبة يمجد الملائكة فى إحدى المراثى مادحا مهللا:

لأُنشدْ يوما ـ بعد خلاصى أخيرا من هذه الرؤيا الرهيبة ـ
مدحَا ولأهـلِّلْ إجلالا للملائكة الرضيـة؛ دعواتى
ألا تُخفق
نغمة تصدر عن وتَرمن أوتار قلبي، ألا تُخفق
لأن ذلك الوتر واهن أو متردد أو مقطوع؛
ولينبجسْ التألق من وجهى المبتهج فتتفتق أخيرا
هذه الدموع الخفية أزهارا فى أوج التفتح،
آه كم سأكون آنئذ بكِ معتزا أيتها الليالى الأليمة!

ليس ثمة ما يدل على أن الشاعر قد تخلص بالفعل من رهبة الرؤيا، لكنه لا يقنط:

لعل قوة الملائكة تهن قليلا
حين تنحنى السماء بكل نجومها نحونا وتجعلنا
هاهنا نتدلى لنُشرفَ على مصيرنا الغائم.

هذا الرجاء يجعل الشاعر موقنا بأنه سيتجاوز يوما شدة هذه الليالى الأليمة، وسوف يغدق مديحه على الملائكة الرضية، وسوف يستمد محياه

من جلالها المشع ألقا يحيل آلامَه لذائذ يانعة، ودموعَه أزهارا متفتحة، والواقع أن الشاعر لن يتمكن من التخلص أخيرا من تلك الرهبة الأولى إلا بعد مضى عقد من الزمان، أى قبل ثلاث سنوات فقط من وفاته: فقد كانت البداية سنة ١٩١٢ بقلعة دوينو حيث حظى بإلهام الملاك، ولم يكتمل الصرح إلا فى سويسرا بنشر **المراثى** سنة ١٩٢٣، إذاك فقط تنعم الذات الشاعرة بهذه الرؤيا الفردوسية فتحس بالانتصار على آلامها وتشدو مزهوة:

إنا نحن هدرنا آلامنا بالتحديق فى ما وراءها

نحو التخوم البائسة، تخومِ الجَلَد التى سعينا إلى معرفة نهاياتها.

فآلامنا ليست إلا أوراق شتائنا، ليستْ إلا خضرتنا الدائمة الكئيبة،

ليستْ إلا موسما واحدا فى سَنتنا الباطنية؛

و آلامنا لم تكن مجرد موسم، بل كانت

بلادا، وطنا، ملاذا، تربة ومقاما.

الشاعر والنساء:

يبدو أن ما يجمع بين تصور الشاعر عن الملائكة ونظرته للمرأة هو أن الاقتراب من أى منهما ماحق، مهلك؛ ويبدو هذا الموقف جليا بمقارنة تصوره عن الملائكة، كما سبق تناوله، بنظرته إلى المرأة كما يلخصها فى قصيدة يستلهمها من حكيم مصرى قديم، حيث يقول:

"لابد أن نهلك لأننا عرفناهن." نهلكَ
من الزهرة التى لا تُنطَق، زهرةِ بسمَتهن. نهلكَ
من رقة أيديهن. نهلكَ
من النسوة.

دع الفتى يغن عنهن، دعه يتغزل
بهؤلاء المُهلكات المتعاليات،
حين يَجْبُنَ فؤاده،
من صميم قلبه المُزهر
دعه يُنشدهن:
لا سبيل إلى بلوغهن! آه، يا لبعدهن!
فوق قمم
أحاسيسه يحلقن ويهطلن
ليلةً سامية على الوادى المهجور،
وادى ساعديه. ريحُ قيامتهن تعزف الحفيف
على أوراق أجسادهن. غدرانه تترقرق برأّقة
نحو الأفق البعيد.

الهلاك لمعرفة النساء حتمى كما هو فى حضرة الملائكة، والشاعر هنا ينطلق من حكمة قديمة سرعان ما يُحوِّل، كصاحب الخيمياء، نثريتها

إلى غنائية راقية يترتب فيها الهلاك، مفارقةً، عن رقة أيدى النسوة، وعن الزهور الصامتة، زهور بسماتهن: فلا يملك العاشق إلا أن يفنى ويغدو أنشودة تُخلد هؤلاء المُهلكات المتعاليات اللائى يستحيل منالهن لأنهن يحلقن عاليا فوق قمم أحاسيسه، هؤلاء اللواتى يتصفن بما تتصف به الملائكة من جبروت وتعال، اللواتى يهطلن على تربة العاشق المحروم، حين يهطلن، لا مطرا، ولا رذاذا، بل ليالى سامية، وفى صميم أنشودة العاشق يُسمَع حفيفٌ ناعم تعزفه ريح القيامة، قيامتهن، على أجسادهن التى حولتها الغنائية أشجارا مورقة، وعلى أنغام هذا الحفيف الناعم، وقطرات هاته الليالى السامية، يذوب العاشق فيترقرق غدرانا تتجه نحو الآفاق البعيدة لتنضب وتتلاشى فى أبدية المطلق.

تظل رقة وشفافية هذا النفس الغنائى سائدة فى تعامل الشاعر مع المرأة، كما يتجلى فى هذه اللمسة الأنيقة الكفيلة باستمالة أى امرأة مهما كان تمنعها:

وسأكتفى ـــ إن أنت أقبلتِ ـــ بأن أدع يدى
تستريح برفق، تستريح للحظة برفق،
على كتفكِ أو صدركِ.

أو فى هذا النداء الجياش الذى لا يمكن إلا أن تسارع لتلبيته أى حبيبة غائبة:

اللآلئُ تتدحرج مبتعدة. آه، هل انفرط العقدِ؟
لكن أى جدوى فى أن أعيد نظمها: أنتَ غائبة،
وأنت الزر الذى يبقيها فى مكانها، أيتها الحبيبة.

أو فى هذه الأبيات التى يمتزج فيها الغنائى بالملحمى:

كل شىء كان فى سنوات طفولتى ساكنا،

براقا كالماء، كل شىء كان بلا اسم،

سأسميه باسمك أمام المذبح المقدس،

الذى يجعله شعرَكُ اللامع مشعا،

أمام المذبحِ الذى توَّجتْه خفةُ نهديك.

هكذا تسمى الذات الشاعرة الأشياء، وهكذا تتوج خفةُ النهد المذبحَ المقدس، وهكذا تنيره الهالة المشرقة حول الشعر الوهاج، فأى اقتران بين القدسية والشهوانية، وأى زواج بين براءة الطفولة وغلمة البلوغ! وربما كان هذا الزواج بين السماوى والدنيوى هو الذى يولِّد سلسلةً من التقابلات فى الهرم الكونى، هذا الهرم الذى تتشكل قاعدته من تجليات الذكورة والأنوثة، وتشير قمته إلى الرب المتعالى على الأسماء والمسميات:

تبدو الشمس ذكرا، وتبدو الأرض امرأة،

يبدو الحقل متواضعا وتبدو الغابة مغرورة؛

لكن فوق كل ما نسميه من أسماء

ثمة الرب الذى لا يتعين أبدا.

ولعل انهزام تواضع الحقل أمام غرور الغابة واغترارها كان أحد دواعى الخطيئة الأصل:

وإذ تمسك يدُها التفاحة،

تُدان ببساطة وإلى الأبد: مذنبة بريئة

جريمتها الفاكهة النامية التى يحضنها جسدها
والتى أنجبتْها بعد انفصالها
عن دائرة الآباد، رحلتْ
لتواجه الأرض الجديدة الغريبة، وكانت فى أوج عنفوانها.

غير أن الإدانة، اتساقا مع كل الأمور فى العالم المفارِق، تنطوى على مفارقة جلية: ففيها يساكن الذنب البراءة، والفعل المجرَّم ثمة يبدو، بمعايير عالمنا، بسيطا ومباحا: فهى إنما أمسكت التفاحةَ بيدها إمساكا لا يعدو أن يكون، فى أسوأ الأحوال، لمسا شبقا أملته طبيعة الشهوة، لكن، ثمة إشارة إلى أن اللمس يمتد إلى فاكهة فى جسدها، ويبدو أن معايير ذلك العالم تجعل هذا اللمس تطاولا وانحلالا؛ وهكذا تُقذَف المذنبةُ منفيةً عن دائرة الخلود لتكابد الفناء فى الأرض الغريبة الجديدة، ومع كل هذا تظل البراءة تنقض الذنبَ فى عقوبتها والذنبُ ينقض البراءة، وقد يكون فى تعاطف الشاعر مع هذا الوضع تفسيرٌ للرهافة والرقة البالغة التى تتسم بها نظرته إلى المرأة، ومن آيات هذه الرقة وذلك التعاطف تواتر مجاز الثمار والفواكه فى شعره مقترنا بالمرأة؛ فهاهو الشاعر يخلد روح صديقة فقيدة فى هذا الجناز المتدفق أسى ولوعة وحنانا:

...ماذا تريدين؟
أينبغى على أن أسافر؟ أخبرينى،
هل تركت شيئا ما، مكانا ما، لا يطيق
غيابَك؟ أينبغى أن أرحل إلى بلد

لم تريه قط مع أنه كان قريبا منكِ،
قريبا وزاهيا كما كانت حواسكِ؟...

وإذ تستبد مرارة الفقد بالشاعر هنا، يستحضر طيف الفقيدة ويخاطبه في حميمية فصحى، ثم يطلق العنان لنفسه فيسترسل مستسلما لعواطفه الثكلى، ويغدق وعودا يستحيل أن تتحقق في النثر:

سأجعل البساتنة يأتون إليّ ويرتلون
آلاف الزهور، وفي الأصص الطينية
الصغيرة، أصصِ أسمائها المنغومة،
سأجلب بعض بقايا العطور المائة.

هكذا يلج الشاعر بستان الشعر، وهكذا حقا تُرَتَّلُ الزهور، وهكذا تُجلب العطور! أما الفواكه والثمار فتصير فجأة مجازا طاغيا ينسحب على باقي المقطع رثاءً شجيا يكتمل فيه التماهي بين المرأة والفاكهة، إذ يستحضر الشاعر ذكرى صديقته الفنانة وهي تعرض جسدها عريان أمام المرآة فينعكس ثمرة يانعة أمام عينيها:

والفواكه: سأبتاع الفواكهَ، وفي حلاوتها
ستنبعث أرضُ تلك البلاد وسماؤُها؛
فذلك ما كنت تفهمين: الثمارَ اليانعة.
كنت تضعينها في صحون بيضاء أمام قماش اللوحة،
وبألوانك كنت تَزِنين ثقلَ كل حبة منها؛
والنساء أيَضا كَنتِ ترينهن فواكه؛ وكنت ترين الأطفال

يُجبَلون فى الأرحام فيتخذون أشكالها،
وأخيرا رأيتِ نفسك ثمرة، فنَضَوْتِ
الثوب عنك ثم عرضت نفسك
على المرآة، سمحت لنفسك بالدخول
أمام نظرتك؛ وظلت المرآةُ شاسعة أمامك،
فلم تقل: "أنا تلك"؛ كلا بل قالت: "هو ذا"،
وصارتْ نظرتُك خالية تماما من الفضول،
بريئة تماما من التملك، صارت فقيرة فقرا
تركها بدون رغبة حتى فيك أنت؛ نظرتُك
لم تعد ترغب فى أى شئ، صارتْ: مقدسَة.

وباستحضار هذه الذكرى يكون الشاعر قد غنم رؤيا تتجلى فيها الفقيدة التى يؤبنها فى هذا الجنَّاز وقد تدرجتْ فى مراقى القداسة، ويتكرر هذا الربط بين الثمار والفواكه، من جهة، وأنوثة المرأة وخصوبتها الخلاقة، من جهة أخرى، فى هذا المقطع حيث يتأمل آكل البرتقال الفروق بين برتقالة نزقة متهتكة، ورمانة محترسة متحفظة:

آه يا للحكمة! هذه الأرنب، من عالم الثمار! تصور: سبع وثلاثون بذرة فى كل عَيِّنة، مهيأةٌ للسقوط والانتشار فى كل وجهة لتنجب نسلها، كان علينا أن نصحح ذلك، كان بوسعها أن تجعل كافة أصقاع الأرض مأهولة ـ هذه البرتقالة الصغيرة المرتدية رداءً أكبر منها كأنها كانت تنوى

أن تواصل النمو، خلاصة القول أنها كانت رديئة الهندام؛
تهتم بالإنجاب أكثر من الأناقة، أرها الرمانة، في درعها
المصنوع من جلد قرطبي: إنها تفور بالمستقبل، لكنها تكبح
نفسها، تتواضع... وإذ تمكننا من مجرد نظرة خاطفة إلى
نسلها المحتمل، تخنقه في مهد قرمزي. إنها ترى الأرض
مسرفة في التملص، لا تستحق أن تبرم معها ميثاق الوفرة.

وأحيانا يمكن أن تستبد اللذائذ بالشاعر فيدرك حتى في آلة موسيقية مثل العود ذلك التماهي الشهواني بين المرأة والفاكهة:

أنا العود. إن أردتَ أن تصف جسدي
الذي تحضنُه الخطوط المقوسة البديعة،
فتكلم كأنكَ تتكلم عن حبة تين
مكتملة يانعة، و بالغْ في وصف
الظلام الذي تراه بداخلي.

ما عاد العود مكتفيا بأن تنحصر هويته في مجرد آلة موسيقية تداعبها الأنامل، وتُعزَف عليها الأحاسيس. هاهو ذا يخضع لتحول من تحولات أوفيد العجيبة: يصير فاتنة ثملة نشوى تعرض مفاتنها، وتبوح بنزواتها، وفي ذات الوقت حبة تين تطالب الشاعرَ بأن يستفيض في وصف ظلامها!

ولا تقتصر روح الأنوثة هذه على الحلول في آلة موسيقية؛ بل إنها قد تحل في مدينة فتحيلها غانية لعوبا:

كل صباح جديد لا بد أن يريها الحُلِىّ
التى كانت بالأمس تتزين بها، ويسحبَ
من القنال خيوط ألق،
ويذكرها بالأزمنة الأخرى:
آنئذ فقط ترضى أن تستقر، كأنها

حورية استقبلتْ زيوس العظيم.
القُرطان المتدليان يسكبان فى أذنيها الرنين؛
لكنها ترفع القديس جورجيو مايورى
وتبتسم كسلى نحو ذلك المخلوق البديع.

هكذا تتبدى للشاعر مدينةُ البندقية: حوريةً آسرة برزتْ للتو من عالم الأساطير، فاتنةً فى كامل زينتها، منغمسةً فى بذخ حليها وفتور بسمتها، تتحرش بالقديس المسيحى، وتقول للإله الوثنى: "هيأتُ لك!".

ويمكن تفهم طغيان نون النسوة على الثمار والفواكه والأساطير والمدن وآلات الموسيقى بافتتان الشاعر بالمرأة، فقد كانت علاقاته بالنساء متعددة، ولم تكن تخلو من تعقيد؛ فبالإضافة إلى علاقته المعقدة مع أمه التى فقدت طفلة لها قبل ميلاده فكانت تسميه **ماريا** وتصر على أن تلبسه ملابس البنات، كانت للشاعر علاقات نسوية عديدة تتفاوت فى طبيعتها ودرجة حميميتها، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر، علاقاته مع كل من **لو أندرياس سالومى، ومارى فون تور اند تاكسيس، وكاثرينا كيبنبرج، وكلارا فيستهوف، وباولا مودرزون بيكر، ومارث هنبرت، وماجدا فون هاتينجبرج، ولولو البرت لازارد، وبالادين**

كلوسوفسكى (مرلين)، ومارينا تسفيتايفا إفرون، وهدفيش برنهارد، وأنجيلا جوتمان، وسيدى ناديرني، ونعمت علوي، وغيرهن، وأغلب هؤلاء النسوة أرستقراطيات ومثقفات، فمنهن الشاعرة، والأديبة، والرسامة، والنحاتة، والممثلة، والعازفة، ولعل أشهرهن **لو سالومى** التى كانت أيضا على علاقة مع غيره من المشاهير مثل **نيتشه وفرويد**، وقد كانت ذات شخصية قوية، ويبدو أنها كانت تمثل للشاعر الشاب أمًا وعاشقة، فى نفس الوقت، كما توحى بذلك هذه المقتطفات المحمومة من قصيدة كتبها عنها:

... وجهى لا يكون آمنا
إلا حين أُلقِى بنفسى فى أحضانك، فيمتد هو فيك
ويمضى أبداً فى عتمة قلبك المحمى...
...وكما يحمل المرء منديلا ليكتم به
نفسَه المتراكم... كلاً: بل كما يضغط المرء بمنديل
على جرح تحاول الحياة ـ فى وثبة واحدة ـ
أن تفر منه، حضنْتُك بشدة
حتى غمرنا الـخَـفَر معًا، من ذا الذى يستطيع
أن يصف ما حل بنا؟ تداركْنا كلَّ ما لم يكن
لدينا من قبل وقت لننعم به، نضجتُ نضجا غريبا
كلَّ نزوة من نزوات شبابى الضائع،
ووجدتِ، يا حبيبتى، نفسكِ تبسطين
على قلبى طفولة جامحة...

... تَذكُّرُ تلك اللحظات لن يكون شيئا،
فلا بد أن يتبقى من كل تلك اللحظات
وجودٌ خالص مازال فى أعماقي، ثفلٌ
تبقى من محلول لا قياس لفيضه،
أنا لا أسترجع ذكرى: فوجودى أنا
يجعلنى حيا بسببك أنت؛ فأنا لا أكتشفـكَ
فى الأماكن الباردة الكئيبَة التى غادرتِـها،
وغيابك عنها يجعلها
دافئة بك: غيابُـك أشد وطأة
من الحرمان. التشوق غالبا
ما يؤول إلى الغموض؛ فلمَ أيأس
وحضوركِ ـ رغم غيابك ـ ما زال ينهال على،
ينهال برفقٍ كنور القمر على مقعد قرب النافذة.

من يستطيع حقا أن يصف ما حل بهما، إذا أعجز الوصف هذا الشاعر المُعنَّى، هذا المنذهل الشاخص إلى نور القمر المنهال على مقعد قرب النافذة؟

ومع كل ما تتسم به هذه العلاقة من حميميه وعمق، فإن الشاعر استطاع بعدها أن ينقل فؤاده فكانت له علاقات تضاهيها إن لم تفقها عمقا واتقادا، كعلاقته بالفنانة **باولا** التى خلدها فى جنازه الشهير الذى سبقت الإشارة إليه، وعلاقاته بعازفة البيانو **ماجدا فون هاتينجبرج** التى

أثمرت مراسلا- ى منتهى الرقة والشاعرية، وعلاقته، فى أواخر أيامه، بال- -ه الأرستقراطية المصرية **نعمت علوى** التى اقتطف من أجلها تلك الوردة المهلكة الشهيرة.

ويمكن تعليل هذا التنقل الدائم، الشبيه بتنقل الفراشة بين الزهور، بكون الشاعر القلق، المهووس أبدا بالمفارقة والرحيل، عاجزا عن الاستقرار على تصور محدد للحبيبة: فوصال الحبيبة المنشودة مستحيل لأنها لا تنتمى إلى هذا العالم، كما يتضح من النبرة اليائسة فى هذا الابتهال:

أنت التى ما وصلت قط
ولا تلقتْك ذراعاى، أيتها الحبيبة،
يا من فقدتك منذ البداية،
لستُ أدرى حتى أىَّ الأغانى تُطربك، هاقد توقفتُ
عن السعى إلى أن أميزك فى الموجة المتعالية،
موجة اللحظة الآتية. كل الصور الهائلة فى باطنى:
المشهدُ النائى الذى أحس به فى أعماقي،
المدن، الأبراج، الجسور، المنعطفات المباغتة
فى الطريق،
وتلك البلاد العتيدة التى كانت
فيما مضى تنبض بحياة الآلهة ـ
كلها تتجلى فى باطنى لتدلَّ عليكِ،
يا من تتملصين أبدا منى.

أنت، حبيبتى، يا كل الحدائق
التى طالما حملقتُ فيها مشتاقا،
نافذةٌ مفتوحة فى بيت ريفى،
وكدت أن تخرجى، شاردةً، كى تُلاقينى.
شوارعُ صادفتُها،
كنتِ قد مررتِ للتو منها ثم تواريت.
وأحيَانا كانت المَرايا، فى المتاجر، ما تزال
مبهورة بحضورك، ولأنها كانت مبهوتة
فقد عكستْ صورتى المباغتة. من يدرى؟
لعل نفس الطائر تردد بالأمس صداه فى أعماقنا،
تردد فى المساء منفصلا فى أعماقنا.

فمع أن كل شىء يتجلى فى باطن الذات الشاعرة يدل على الحبيبة المنشودة، فإنها تظل أبدا متملصة: سرابا دائم التنقل يحث على مواصلة الترحال، ويبدو **لى زيجل** محقا تماما فى تشخيصه للجوانب المعقدة فى علاقات رِلكُه العاطفية:

> رحل **أوغسطين** غير مستعجل عن العيش المترف فى قرطاج، منطلقا من الافتتان بالعشق ليصل إلى محبة الرب. أما **رِلكُه** ... فقد رحل منطلقا من الرب نحو الإيمان بأن الحب بين الرجال والنساء، جسديا كان أو روحيا، هو وحده الذى تبقى من كل مبادئ التسامى. ويبدو أن تجربة

رلكه وهو ... تلك التجربة المتمثلة فى اتخاذه قناعا
... ... ، كانت بهذا المعنى نعمة كبيرة...فقد زودته هذه التجربة، أساسا، بقدرة غريبة على التعاطف مع النساء، وكانت العاشقة الخائب عشقها، والفنانة التى تصارع من أجل الحرية ومن أجل فسحة تمكنها من إنجاز عملها، هما أقوى صوره الشعرية وأكثرها تواترا، لكن الجانب الأنثوى المتحرر من **رلكه** منحه أيضا فضيلة الصراحة الواثقة فى ما يخص حاجته إلى الجنس الآخر واشتهائه له: فهو يُذكِّر بوصف **كيركجارد لدون جيوفانى** كما قدمه موتسارت؛ إنه، فى نظر **كيركجارد**، لم يكن يغوى النساء عن قصد، بل كان يشتهيهن على نحو غاو؛ فما لم تستطع النساء مقاومته فى **رلكه** هو تأثيرهن فيه، لا تأثيره هو فيهن(١٠).

ولاشك أن تأثيرهن فيه هو الذى جعل الشاعر يتصور المرأة فاكهة متسامية، غامضة، متوهجة، كتوما:

ظلتْ تتسلق من الأرض خُفيةً،

وأودعتْ سرَّها فى الساق الصامت،

وغدتْ فى الإزهار الصافى لهيبا،

ثم استأنفتْ إمعانَها فى التكتم.

10. "To Work Is to Live Without Dying", The Atlantic, (April, 1996): htt://www.theatlantic.com//issues/96apr/contrib.htm/Siegel.

الشاعر والمراثي:

تعبر المرثاة "elegy" والجنَّاز "requiem" عادة عن الحداد، ويُتوسَّل بهما للتخفيف من فاجعة الفقد والترحم على روح الفقيد، ففيهما يتأسى الشاعر على آلام القرح وبهما يسعى إلى استحضار الغياب، لكن هذين الشكلين الأدبيين يتسمان، كما يلاحظ **براين فيليبس** "Brian Philips"، لدى هذا الشاعر المعن فى المفارقة بسمة خاصة. فهُما "يستمدان قوتهما من كون الحياة آيلة للزوال، غير أن جنَّاز **رِلكَه** ومراثيه يصممان فى ما يبدو على إنكار هذه الحقيقة أكثر مما يعبران عن الحداد"[11]. ويبدو أن حماسة الشاعر فى مقارعة الفناء مقترنة بهذا الإحساس المؤلم بقصور النواح إزاء فداحة الفقد:

أتسمعينني؟
أريد أن أطرح صوتى فوق شظايا موتكِ
كأنه ثوب، وأظل أسحبه
حتى يصير مزَقا،
وستُجبَر كلُّ كلماتى على أن تطوف
فى مزق ذلك الصوت، مرتعشة؛
ليت النواح كان كافيا.

بهذه الزفرات الحرى يخاطب **رلكَه**، في جنّازه الشهير، طيفَ صديقته الفقيدة **باولا**، ومع أن الصوت هنا يُطرَحُ وشاحا يحاول، عبثا، أن يلملم

11. "The Angel and the Egotist: the Human Cost of Rilke's Art", The New Republic, (05.08.2000).

شظايا الفناء فيغدو بدوره مزقَ شجنٍ ترتعش فيها الكلمات، فإنه لن يبلغ سمعَ الفقيدة، وأمام هذا الإحساس بقصور النواح، يعبر الشاعر المكلوم عن عزمه على تحدى الفناء بابتداع لغة بعثٍ تُرتِّل فيها الكلماتُ زهورا وعطورا:

سأجعل البساتنة يأتون إلىّ ويرتلون
آلاف الزهور، وفى الأصص الطينية
الصغيرة، أصصِ أسمائها المنغومة،
سأجلب بعض بقايا العطور المائة.

هكذا حقا يثبت الشاعر أن النواح أبلغ من شجو الكمان؛ وهكذا يتم التواصل، باستحضار الغياب، مع آثار الذكرى، مع تلك الأشياء الزائلة التى تقتات على الفراق، تلك الأشياء التى تعتمد على الفانين فى سعيها إلى النجاة من الفناء:

...أره كيف يستطيع نواح الحِداد الـمُـرُّ
أن يكون أبلغَ من شجو كمانٍ حزين
هذه الأشياء التى تـقتاتُ على الفراق تفهمُ حين تُمَجِّـدُها
ما تقوله: ولأنها إلى زوال، فإنها تسعى إلى النجاة
عن طريق شىء ما يكمن فينا، نحن أشد الخلائق فناء،
تريد منا أن نُـغَـيِّـرها تماما، داخل قلوبنا الخفية، تريد منا
أن نحيلهـا أبدا، نحيلها ـ آه ـ إلى أنفـسنا، كائنين من
نكون!

فى محاضرة ألقاها بمناسبة الذكرى العشرين لرحيل **رِلكَه**، ونشرها فيما بعد بعنوان "ما جدوى الشعراء؟"، يقتبس **هايدجر** عنوان محاضرته من بيت من المقطع السابع(١٢) من قصيدة **هلدرلن** الشهيرة "خبز وخمر"، وانطلاقا من تأويل مقتدر لهذا البيت ("ما جدوى الشعراء في زمن الإملاق؟")، يقدم هايدجر تحليلا لطبيعة التجربة الشعرية لدى **رِلكَه**، يتساءل **هايدجر**:

> هل يمكن اعتبار راينر **ماريا رِلكَه** شاعرا فى زمن مملق؟
> ما علاقة شعره بإملاق الزمن؟ إلى أى مدى يمتد شعره؟
> نحو الهاوية؟ إلى أين يصل الشاعر إن افترضنا أنه يتجه
> إلى حيث يستطيع أن يذهب؟(١٣)

ثم يوضح أن المقصود بـ "الزمن المملق" هو زمن انحسار الأسطورة والدين والبطولة، زمن غياب الآلهة وتخلفهم عن القدوم، زمن انسحب فيه

[١٢] لكننا يا صديقى أتينا متأخرين. والآلهة حية حقا، لكنها فوق رؤوسنا هناك فى الأعالى، فى عالم مختلف. نشاطها هناك لا ينقطع، وهى لا تكترث إن كنا أحياء أو أمواتا- هكذا تصفح عنا؛ فالأوانى الهشة لا تستطيع دائمًا أن تتحملها، والبشر لا يستطيعون أن يتحملوا الكمال الإلهى إلا لماما. وحياتنا، منذ الآن، لن تكون سوى حلم بالآلهة، لكن الشرود، كالنوم والليل والحاجة، يعيننا؛ فهى ستظل تؤازرنا إلى أن ينمو فى المهد ما يكفى من الأبطال، إلى أن تضاهى القلوب قوة الآلهة، كما كانت من قبل. آنئذ تقبل الآلهة مرعدة، وفى انتظار قدومها، يبدو من الأولى لنا أحيانا أن ننام، فذلك خير لنا من أن نظل هكذا منعزلين بدون رفيق، خير من أن نظل هكذا ننتظر: وماذا عسانا نفعل أو نقول ونحن فى انتظارها؟ لست أدرى، وما جدوى الشعراء فى زمن الإملاق؟ لكنهم، كما تقول أنت، يشبهون الكهنة المقدسين، كهنةَ إله الخمر، أولئك الذين ظلوا يسافرون من بلد إلى آخر فى ليل مقدس؟

13. Martin Heidegger, Poetry, Language, Thought, translated by Albert Hofstadter, (New York, 1975), p.96.

الثالوث **هرقل-ديونيزوس-المسيح**، وبانسحابه بدأ العالم يأفل متجها نحو ليله المظلم: "الآلهة لم تهرب فحسب، بل إن النور الإلهى أفل عن العالم"(١٤)، ولا يفوت **هايدجر** أن يشير إلى أن **هلدرلن** يجيب مباشرة، وبمكر ملحوظ، عن سؤاله عن الشعراء فى زمن الإملاق، حيث يقول على لسان صديقه الشاعر **هاينسه "Heinse"**: "لكنهم، كما تقول أنت، يشبهون الكهنة المقدسين،/كهنةَ إله الخمر، أولئك الذين ظلوا يسافرون من بلد إلى آخر فى ليل مقدس؟" ويعلق **هايدجر** على هذا مستنتجا أن "الشعراء هم أولئك الفانون الذين يدركون، وهم يغنون عن إله الخمرة، أثَرَ الآلهة الهاربة، ويواصلون اقتفاءه نيابة عن أخوتهم فى الفناء كى يدلوهم على طريق العودة"(١٥)، ويبدو أن **هايدجر** يتبنى هذا التعريف الذى يقصى كل من لا يسعى إلى استرداد القداسة المفقودة، وفى هذا السياق يأتى جواب **هايدجر** عن الأسئلة التى طرحها حول ارتباط شعر **رِلكه** بإدراكه إملاق الزمن:

> يتركز شعر **رِلكه** الأصيل ويثبت عنفوانه فى كتيبين جُمِّعا بصبر وأناة هما **مراثى دوينو وسونيتات إلى أورفيوس**، الطريق الطويل الذى يقود إلى الشعر طريق يتم فيه الاستكشاف على نحو شعرى، وأثناء السير فى هذا الطريق، يدرك **رِلكه** إملاق الزمن إدراكا واضحا؛ فالزمن يظل مملقا ليس فقط لأن الإله قد مات، بل لأن الفانين لا يكادون يدركون حتى فناءهم ولا يكادون يقدرون عليه، وهم لم يتمكنوا بعد من السيطرة على طبيعتهم؛ فالموت ينفلت إلى عالم الأسرار، ولغز الألم يظل لغزا، والحب يظل

14. ibid., p. 91
15. ibid., p. 96.

مجهولا، لكن الفانين موجودون. إنهم موجودون فى وجود اللغة، ما يزال الغناء يخيم على هذه الأرض الفقيرة، ما تزال كلمة المغنى تحتفظ بأثر القداسة(١٦).

ويمكن أن يتبين المرء فى رؤية **رلكه** "مزجا بين حدسه الصوفى ونقده للحداثة: فاقتصاد الإنسان يناهض 'هبة' الطبيعة، والشاعر شهيد يتألم كى يُخلص عالما متألما"(١٧)، ويتمثل وعى **رلكه** بإملاق الزمن وإفلاسه على الخصوص فى صيحة إدانة ترد فى المرثية التاسعة:

...هذا زمنٌ تموت فيه الأشياءُ

التى نحبها وتندفع الأشياءُ التى لا نحبها

لتحل محلها: ظلالٌ تلقيها ظلال

غير أن الشاعر سرعان ما يستدرك فيؤكد بأن الأمور، رغم تضييق الحدود و توالى الظلال، تتجه نحو رحابة الآفاق، وبأن الوجدان، رغم حدة الآلام، يظل حيا، وبأن لسان الشاعر يظل يتدفق مديحا يتحدى العدم:

تحفظ البيضةُ ما فيها زمنا، لكنها تنشق عنه طوعا حالَما

تضيق بنموه فيتجاوز حدودها منطلقا نحو آفاق جديدة،

وبين المطارق يواصل القلبُ حياته، كما يظل حيا

بين الأسنان اللسانُ: يظل، رغم كل شىء، منبعا للمديح.

16. ibid., p. 96.

17. Jeremy Adler, "Solitude is a true Elixir", The Times Literary Supplement, 10/ 10/ 1997.

لكن المديح مستحيل فى غيابٍ قبول الإنسان لوضعه: "لا بد أن نقبل وجودنا إلى أقصى حد ممكن؛ كلٌ شيء، حتى ما لم يكن مسبوقا، ينبغى أن يُقبَل"(١٨)، ولا يتم هذا القبول، كما يوضح **ديفيد اوزوالد** فى تقديم ترجمته للمراثى، إلا إذا كان صادرا عن وعى تام بنقص الإنسان وتفاهة قدْره فى مواجهة التجربة المتعالية؛ فالمديح الذى يقصده **رِلكه** لا يتأتى "إلا ببلوغ إدراك جديد للعلاقة مع العالم الإلهي، وذلك بالتمييز بين المقاييس الإلهية والمقاييس البشرية للتجربة، أى بقبول كوننا بشرا لا آلهة"(١٩)، فالمراثي، فى رأى **أوزوالد**، تسعى إلى بلورة تصور "يتجاوز الإدراك المؤلم بأننا لسنا طبيعيين تماما كالحيوانات ولا متعالين تماما كالملائكة... فأن تكون ذاتا يعنى أن تظل رهين قطبين: ليلِ العالم ونهاره، الحيوانِ والملاك، الذكرِ والأنثى، الجسدِ والروح، الظاهرِ والباطن، الحياةِ والموت"(٢٠).

وعلى الرغم من أن جوانب هامة من تجربة الفانين تظل رهينة غيابات المجهول، على الرغم من أن الحب يظل لغزا والألم لغزا والموت لغزا، فإنه لا مجال للشك فى وجود الفانين. فوجودهم - كما يوضح **هايدجر** - يتحقق أساسا فى اللغة. ولأن الكلمات لغة، والمديح لغة، والغناء لغة، فإن الذات الشاعرة تتماهى مع هذا الطائر المتألم المتودد المتسامى، هذا الطائرِ المحلق دوما فى آفاق الصفاء:

لن يظل التودد، ولا ذلك الصوت الذى تعالى فوقه،
من طبع صيحتك، لكن صيحتك ستكون فى صفاء

18.Letters to a Young Poet, translated by Stephen Mitchell, (New York, 1984).

19. Duino Elegies, translated by David Oswald, (Einsiedeln: Switzerland, 1992).

20. ibid., introduction.

صيحة طائر يبهجه الموسم المقبل، صيحة طائر يكاد ينسى
أنه مخلوق متألم، وليس مجرد قلب متَوحد يُقذف به،
نحو الصفاء، إلى سماوات حميمة.
ستودد مثله، ولن يكون توددك أقلَّ صفاء،
كى تستشعرك، دون أن تلمحك، عاشقةٌ صامتة
يتيقظ فيها ببطء جواب ما، ويسرى الدفء فيها إذ
تسمعك.

هذا التصدى للفناء، وهذا الإصرارالذى لا يكل يجعل من التجربة الشعرية فى المراثى دفقا غنائيا متواصلا كما يوضح **برايان فيليبس**، دفقا يظل مصدره باطنيا، أيا كانت تجلياته:

> التجربة الإنسانية كما صُورتْ فى **المراثى** دفق لا ينقطع، يتوقف فيه الإدراك الباطنى للعالم (ذلك التوقد "Innigkeit" الذى يتصوره **رلكه** ضروريا للفنان) على العالم الخارجى الذى يصدمنا غالبا رغم كل تجلياته، لا توجد فى المراثى فكرة أو إحساس بمعزل عن رمزه المادى أو محيطه، غير أن عالم الأشياء فى ذاتها لا يمكن أن يكون موجودا بالنسبة للفرد المدرك إلا وجودا باطنيا، فى ملكات الإدراك: "لن يكون للعالم... وجود فى أى مكان"، كما يقول **رلكه** فى **المرثية السابعة**، "سوى الباطن"[٢١].

21. "The Angel and the Egotist: the Human Cost of Rilke's Art", The New Republic, (05.08.2000).

ولعل إصرار رِلكَه على مواجهة معضلة الفناء هو الذى جعله يبلور هذا التصور الوجودى الذى ينم عن نزعة تصوفية تحاول ربط المجهول بالمعلوم فى إطار وحدة وجودية جديرة بالملائكة:

> الموت جانب الحياة المعتم الذى حُجب عنا، يحب علينا أن نحاول اكتساب أقصى وعى ممكن بوجودنا، وجودنا الذى يحقق ذاته فى كلا هذين العالمين اللذين لا تحدهما حدود؛ فالحياة الحق تمتد فى كليهما، والدم الأشد عنفوانا يجرى فيهما معا: فلا وجود لهذا العالم ولا للعالم الآخر، بل ثمة وحدة عظمى فقط، وحدة تحس فيها الملائكة، تلك الكائنات التى تفوقنا، بكامل الارتياح[٢٢].

ولعل هذا الارتياح الذى تحس به الملائكة فى حضن تلك الوحدة العظمى، ثم تغدقه على البشر، نابع من رؤية تدرك فيها الذاتُ الشاعرة أن روح المفارقة التى تسود عالم الظواهر تحوِّل، كالكيمياء، الأمور إلى أضدادها، وتحل، إذ يتم التعالى، كلَّ المعضلات التى نشأتْ أساسا عن غياب تلك الوحدة:

> **نبدأها بهجةً، فتتجاوزنا تماما؛ وطأةُ وزننا ترهق**
> **الأغنيةَ بغتة فتُحيلها مناحة،**
> **لكن أليست المناحة حقا بهجة مُخيِّمة، بهجة أشد فتوة؟**

هكذا يتحقق تصور رِلكَه عن الإنجاز الشعري، ذلك التصور الذى يرى أن للشاعر قدرة خاصة على أن يستخلص عسلَ الرؤيا من طلع

22. Stephen Mitchell, Ahead of All Parting, op.cit., p. 554.

التجربة؛ وهو يعبر عن هذا التصور، نيابة عن الشعراء، في قوله: "نحن نحلات الخفي، نتفانى في تجميع عسلَ المرئي لنودعه في الخلية الذهبية العظمى، خلية الخفي"[٢٣]، بهذا "يغوص الفناء في أعماق الوجود"، وهكذا تتحقق تلك الوحدة العظمى في عملي رِلكُه المهمين: مراثي دوينو وسونيتات إلى أورفيوس، هذين العملين اللذينِ يكمل كل منهما الآخر، رغم اختلافهما من حيث الشكل والمنظور، ويبدو أن رالف فريدمان محق تماما في تعليقه على المجموعتين بقوله: "إذا كانت السونيتات رمزا مُركَّزا لتراجيديا العشق عند رِلكُه - رمزا لتراجيديا الشهوة، والرفض، والفن - فإن المراثي جعلت من هذه التراجيديا سردا فلسفيا منظوما"[٢٤]، ورغم أن الشعر في المراثي والسونيتات لا يمكن أن ينقلب فلسفة، فإن الشاعر يحاول في المجموعتين أن "يحل، بالاستبطان، معضلة الوجود التي يطرحها الفناءُ، عموما، والحداثةُ خصوصا"[٢٥].

الشاعر والسونيتات:

ظهر اهتمام رِلكُه بأسطورة **أورفيوس** أول ما ظهر في رائعته **"أورفيوس. يوريديس. هرميس"**، تلك القصيدة التي مزجِ فيها السرد بالغنائية مزجا موفقا يبعث على الإعجاب، وكان مصدر إلهامه نقشٌ يمثل مأساة **أورفيوس** كان قد رآه في **نابولي** سنة ١٩٠٤، وسيعود **رِلكُه** إلى هذه الأسطورة بعد ذلك بنحو ثمان عشرة سنة (١٩٢٢) حين يشرع في تأليف سونيتاته الشهيرة، وقد اكتملت هذه المجموعة (خمس

23. Ibid, p. 550.

24. Life of a Poet: Rainer Maria Rilke, op. Cit., P. 485.

25. Jeremy Adler, "Solitude is a true Elixir", The Times Literary Supplement, 10/ 10/ 1997.

وخمسون سونيتة) فى وقت قصير بالمقارنة مع المراثى التى لم تكتمل إلا بعد مضى أكثر من عقد على البدء فى كتابتها، ومصادر الإلهام هنا متنوعة: فبالإضافة إلى النقش الذى سبق ذكره والذى ألهم الشاعرَ قصيدته "**أورفيوس. يوريديس. هرميس**"، هناك بطاقة بريدية عليها لوحة لتشينا **دا كونيليانو** "Cina da Connegliano" كانت قد تركتها له صديقته **بالادين كلوسوفسكى**، وهناك حدث مأساوى أثر فى الشاعر تأثيرا عميقا، والحدث هو وفاة **فيرا اوكاما كنوب** Wera Oukama Knoop" فى التاسعة عشرة من عمرها إثر إصابتها باللوكيميا، وقد كان الشاعر صديقا لوالديها، وكانت **فيرا** فى طفولتها صديقة لابنته **روث**، كانت **فيرا** راقصة لكن المرض جعلها عاجزة عن مواصلة الرقص فاتجهت فى آخر أيامها إلى الموسيقى؛ وخلد الشاعر ذكراها بأن جعل اسمها يتصدر صفحة العنوان، وأخيرا هناك ترجمة فرنسية لتحولات **أوفيد** أهدتها **بالادين** إلى الشاعر بمناسبة أعياد الميلاد سنة ١٩٢٠.

ومأساة **أورفيوس**، شاعر **ثرايس**، كما يرويها **أوفيد**، تبدأ حين تلدغ حية عروسه **يوريديس** فى يوم عرسهما فتنخسف بها الأرض وتهوى إلى عالم الأموات السحيق، كانت لوعة الشاعر وحداده على الفقيدة من الحدة بحيث تجرأ على اقتحام العالم الآخر، ففى محاولة لكسب عطف الموتى، يلج بوابة **ترتروس** ويعبر نهر **ستكس** ويظل سائرا وسط الأشباح إلى أن يبلغ مقام **برسفونه** وزوجها هاديس اللذين يبسطان سلطانهما على العالم السفلى؛ فيقوم أمامهما بمرافعة خطابية مؤثرة يتمكن بها من إقناعهما بالموافقة على أن يعيدا إليه عروسه؛ غير أنهما يشترطان أن يتقدمها وهما يغادران العالم السفلي، وألا يلتفت لينظر إليها قبل أن يصلا إلى عالم الأحياء، وإلا فإن الهدية ستنتزع منه، يظل الشاعر سائرا أمام عروسه فى الطريق الوعر الذى يلفه الصمت والظلام، ولكنه يلتفت، قبيل نهاية الرحلة، ليطمئن عليها فتهوى عائدة إلى العالم

السفلى، وهكذا يفقدها ثانية وإلى الأبد، يفقد الشاعر صوابه، ويحاول أن يعبر نهر **ستكس** ليلتحق بها ثانية ولكن **شارون**، النوتى العجوز، يصده بعنف، فيمكث على ضفة النهر سبعة أيام يائسا، منهارا، مهزوما؛ ثم ينسحب إلى مرتفع شاكيا من قسوة آلهة **إريبوس**، يظل على هذه الحال لثلاث سنوات، ويظل نافرا من النساء زاهدا فيهن، إما بسبب تجربته الأليمة أو لأنه آلى على نفسه أن لا يقربهن، ومع ذلك تكتوى نساء كثيرة بالرغبة فى الزواج من **أورفيوس**، ويغتظن كثيرا لأنه يصدهن، وقد كان **أورفيوس** يغدق حنانه على الغلمان اليافعين، ويستمتع بإزهار ربيعهم القصير، وكان أول من نشر هذه العادة بين أهل **ثرايس**. وعلى تل من التلال، تل به منبسط مرج تسطع فوقه الشمس فلا تجد به ظلا تفىء إليه، يجلس سليل الآلهة، الشاعر **أورفيوس**، وما إن يشرع فى العزف على قيثارته حتى تبرز من العدم فجأة أشجار أسطورية معجزة وتمتد لتبسط ظلالها الوارفة على المكان، وعلى النغمات الأورفية يتوالى موكب البلوط والحور والسنديان وكل أشجار وأزهار ونباتات التحولات لتذكر بحكايات مثيرة مؤثرة عن عواطف الآلهة والفانين.

بهذه الأغانى يستميل الشاعر الغابات والصخور فتتبعه، وبها يأسر الخلائق فى الآجام، وتلمحه فجأة، من سفح التل، نساءُ **كيكونيا**، تلك المهتاجات اللواتى يغطين صدورهن بجلود الحيوانات. تقول إحداهن : "انظرن! هو ذا الرجل الذى يحتقرنا!"، تهاجم النسوة المسعورات الشاعرَ وينهلن عليه بكل ما أوتين من أسلحة، تتجنب القذائف، فى البدء، هدفَها لأن نغمات الشاعر تجعلها تنتشى طربا فتقع عند قدميه إعجابا وتكريما؛ لكن صخب عابدات **باخوس** يزداد فيطغى على أنغام **أورفيوس** ويغرقها، وهكذا يسقط الشاعر ضحية لوحشية النسوة فيشوهن جثته ويفصلن رأسه عن جسده، تلقى النسوة بقيثارة الشاعر ورأسه فى نهر **هبروس**، وإذ تجرفهما المياه تصدر عن أوتار القيثارة

أنغامٌ شجية، ويرتل اللسانُ الميت مرثية حزينة، تقيم الطبيعة حدادها على الشاعر فتبكيه الحيوانات والنباتات والطيور والأزهار وكل الخلائق التى طالما طربتْ لشدوه؛ فتفيض الأنهار دموعا، وتدمع الأشجار أوراقا حزنا لفقده، وتهبط روح **أورفيوس** ثانية إلى **هاديس**، ويتذكر كل الأماكن التى مر منها فى رحلته السابقة، وهكذا يمضى إلى أن يعثر على **يوريديس** فيخاصرها ويرتعان معا فى حقول المنعمين، يسيران أحيانا جنبا إلى جنب، ويسير هو أحيانا خلفها، أو تسير هى خلفه؛ لكنه الآن يستطيع أن يلتفت إليها متى شاء دون أن يفقدها.

ولعل الفرق الجوهرى بين مراثى رِلكُه وسونيتاته هو حرية الأولى فى مقابل انضباط الأخيرة؛ فالسونيتة -وإن تنوعت أنماطها- قالب قار من حيث الوزن والتقفية وعدد الأبيات، أما مراثى رِلكُه فيجوز وصفها، بتحوير عبارة ووردزورث الشهيرة، بأنها "استحضار حر للعواطف"، ويلاحظ **روبرت هنتر** أن السونيتات - التى تزامنت كتابتها مع كتابة الأجزاء الأخيرة من المراثي، والتى كان **رِلكُه** يصفها بأنها "أشرعة خمرية صغيرة"- تكمل حبال الأشرعة فى هيكل السفينة، ويقول **هنتر** مقارنا بين المجموعتين:

> "مراثى دوينو" شكل من نظم حر غير مقفى؛ أما "سونيتات إلى أورفيوس" فهى أناشيد متميزة مصقولة، تتراوح فى تنوعها بين التعالي والمشاكسة، مستوى بعضها رديء مقارنة بمستوى غيرها، فكأن يدا مختلسة أضافتها زورا، وأعتقد أن السبب فى ذلك هو أن قيمتها العاطفية لدى **رِلكُه** كانت عظيمة لأنها كتبت فى وقت حداده على صديقة شابة، الراقصة **فيرا كنوب**، وأنها ضُمتْ إلى المجموعة إكراما لها[٢٦].

26. Sonnets to Orpheus, translated by Robert Hunter, (New York, 1993).

ويرى **هاوارد لاندمان** أن السونيتات، مقارنة بالمراثى التى هى أكثر رزانة، مازحة، منشرحة رغم أنهما معا يتناولان نفس المواضيع(٢٧).

تنتظم السونيتات فى جزأين: يضم الأول ستا وعشرين قطعة، ويضم الثانى تسعا وعشرين، وينطلق المسار فى الجزء الأول من الشجرة المتسامية التى يتجلى فيها التعالى الخالص، وهى شجرة معجزة تبرز إلى الوجود فجأة استجابة لأنغام **أورفيوس**، ويمضى المسار ليمر بأربع وعشرين محطة لكل واحدة منها طابعها الخاص، إلى أن يصل إلى المحطة الأخيرة التى يُقدَّم فيها وصفُ ملحمى مؤثر لمقتل **أورفيوس**، ورغم فظاعة المشهد فإن الشاعر يظل خالدا يغنى "هناك"، ربما فى حقول المنعمين، يستمتع بوصال الحبيبة، ويتخذ مصرع أورفيوس هنا بعدا رمزيا شبيها بصلب المسيح: فلولاه ما سمعنا الطبيعة ولا غنينا باسمها، وبين الانطلاق والوصول يمر المسار بمقامات عديدة نذكر منها، مقام العذرية حيث يتقاطع طيف **فيرا** وطيف **يوريديس** وتتماهى كل العذارى اللواتى اغتصبهن الموت قبل الأوان، كلٌ تلك العذارى اللواتى يمثلن "أقواسَ السهام وأهدافها"، وهناك مقام الخالق **أورفيوس** الذى تتنوع تجلياته، ولكنه "موجود أنى وُجد الغناء، الآن وإلى الأبد"، فهو المغنى الذى يَخضع للفناء، ولكن كلمته تمتد لتتجاوز الوجود ذاته، وهناك مقام المدح الذى يتجلى فيه الشاعر مادحا ومُباركا، عاصرا فانيا يهب الأحياء خمرا خالدة ويهدى الأموات أطباق الفواكه ليمدحوها، وهناك مقام المناحة: حورية النبع الدامع والشقيقة الصغرى فى أُخوّة الطباع والميول، وثمة مقام الفواكه الناطقة بالموت والحياة، ومقام الأموات الذين يتفضلون علينا بغلّة وسَط بين القبلات والقوة الصماء.

27. Sonnets to Orpheus, translated by Howard Landma: http://www.polyamory.org/~howard/Poetry/orpheus_index.htmal.

أما البداية فى الجزء الثانى من السونيتات فمن النفَس، من "قصيدة خفية" تحقق فيها الذات وجودها إيقاعا، والنفَس يعادل "Anima" الأصول اللاتينية العريقة حيث تتجاوز الكلمة حرفيتها لتدل أيضا على النفْس والروح وكل ما يجعل الحياة/الحركة/الوجود ممكنا، والنفَس فى هذا السياق يحيل على روح النغم أو الموسيقى، تلك الروح التى اعتبرها **نيتشه** منشأ للتراجيديا، ومع أن النفَس/النغم يظل خفيا (يُسمَع ولا يُرى)، فإنه حسب الأسطورة الأورفية مصدر تحقق كل التجليات والظواهر. ولعل هذا ما جعل الشاعر يتضرع إليه قائلا: "أنت يا من كنتَ لكلماتي/ أوراقا وقوسا ولحاء ناعما"، محيلا بذلك على شجرة التسامى التى افتتح بها الجزء الأول من السونيتات، وبهذا تكتمل الدائرة.

ينساب النفَس الخلاق عبر سونيتات الجزء الثانى ليبلغ منتهاه - توازيا مع الجزء الأول - فى **أرفيوس**، الشاعرِ الشادى الذى "يُوَسِّع نفَسُه الفضاء"، والذى يظل، فى هدوئه، صامدا، معارضا، معاكسا، مفارقا، يتحدى الأرض الساكنة قائلا: أنا أتدفق؛ ويعارض الماء الدافق قائلا: أنا باق، بهذا تكتمل الدائرة ثانية.

وبين البدء والمنتهى يصادف القارئ العذارى وسط شموع خافقة الألسن؛ ويصادف أسرار المرايا تعكس **نرسيس** كما تعكس العذارى؛ ويصادف وحيدَ القرن: الحيوانَ الخرافى الذى يفض قرنُه عذريةَ الصبايا وعذرية المرايا؛ ويصادف شبقَ الزهر الذى يُفتِّح شقائقَ النعمان لتتلقى نور السماء؛ ويصادف الوردةَ المتوجة التى تتفتح بتلاتُها قوافىَ لا حصر لها، والزهورَ المقطوفةَ مصدومةً ترعاها أيدى عذارى يشاطرنها التفتح؛ ويصادف - كما فى الواقع أو الأسطورة - أعمدةَ الكرنك، والزخارفَ والتصاوير على السجاد الفارسى، والأسماكَ البكماء، وصيحةَ العصفور، والشوقَ المتواثب، وعذوبةَ الهلاك اليانع. ويصادف...

٢- قبلة من وراء الزجاج:

لست أذكر متى سمعت أحد سدنة التنظير يزعق بفتواه: "الترجمة عبر لغة وسيطة قبلة من وراء الزجاج"، ولا غبار على هذه الفتوى من حيث المبدأ، غير أن مضمونها يصدُق إلى حد بعيد على الترجمة عموما، حتى وإن تمتْ مباشرة من الأصل، فللترجمة طبعا حدودها، وترجمة الشعر، كما توضح **مارجريت يورسنار**، لا يمكن إلا أن تجعله منفيا، مغتربا: "إنما القصائد المترجمة حمامات قُصَّتْ أجنحتها، **سيرانات** اجْتُثَّتْ من أصولها، منفياتُ على ضفاف الغربة، لا يملكن إلا أن يتحسرن على أن حالهن فى مكان غير هذا كان أفضل"(٢٨)، وهكذا فإن ترجمة الشعر قبلة من وراء الزجاج، لكن القبلة،على ضفاف الغربة، تظل قبلةً ولو فى الهواء أو من وراء الحديد، بل قد يكون للقبلة من وراء الزجاج مزايا ليست لقبلة الـ"فُلْ كونْتاكْتْ": فلا جراثيم ... ولا بكتريا... ولا إحباط: خطوة تهزم الوهم بالوهم ... صحو مؤلم مقابل سكر مستمد من خداع التجربة ومغالطات اللغة...

وترجمة الشعر ليست فى أحسن الأحوال سوى ذلك:

... الاقتراب، سوى العروج نحو ما يظل أبدا عاليا
بعيد المنال،
سوى الاقتراب المتاح بغتة، ليس ثمة سوى اقتراب
يحيل بالإشراف على
منظر جديد تلمحه من مكان لا سبيل إلى مقاومة
التأرجح كى ترتقى إليه -
مكانٍ تظل تفقده حالما تبلغه.

28. Marguerite Yourcenar, Althen et Jean-Yves Masson,

هذه الأبيات طبعا معزولة عن سياقها الأصلى الذى يصف فيه رِلكُه الأرجوحة ويرصد فيه بكامل الدقة كلَّ الانفعالات والأحاسيس المصاحبة لتجربة التأرجح؛ لكن لا بأس، فليس مستحيلا أن يتصور المرء عوامل مشتركة بين التأرجح والترجمة.

وما قيل هنا عن الترجمة يمكن أن ينطبق، فى تصور **رِلكُه**، على عموم التجربة: على العلاقة الملتبسة بين الذات والموضوع، فهاهو، فى المرثية الأولى، يصدع بهذه الرؤيا اليائسة:

آه بمن نستعين؟

لا بالملائكة، ولا بالبشر؛

حتى الحيوانات الحكيمة تدرك أننا

لا نحس إلا بقليل من الأمان والراحة فى عالمنا المؤوَّل.

كان من الممكن أن أختار "المتَرجَم" بدلا من "المؤوَّل" كما فعل أحد من ترجَموا هذا النص إلى الإنجليزية[٢٩]. فالترجمة بالضرورة تأويل، والتأويل ترجمة، لكننى لم أفعل لأننى لا أحس إلا بقليل من الأمان والراحة فى عالمى المترجَم.

ولعل الأمان والارتياح فى حدودهما الدنيا هما اللذان جعلانى أقدم على هذه المغامرة: ترجمةِ شعر **رِلكُه** بواسطة ما ترجم منه إلى اللغة الإنجليزية، وقد كانت حقًا تجربةً مثيرة اضطرتنى إلى التنقل بين

[٢٩] استعمل A. Poulin كلمة "translated" بدل كلمة "interpreted"، التى أجمع عليها باقى المترجمين، لترجمة كلمة "gedeuteten".

ترجمات عديدة بلغت العشرين فى بعض الحالات[٣٠]، وتمكنت من الوقوف على تنوع التجارب من حيث الفهم والتمثل والصياغة؛ فهناك من هؤلاء المترجمين من تقيد بالأصل إلى حدود الحرفية، وهناك من تصرف حتى صارت ترجمته أبعد ما تكون عن الأصل؛ وبين هذين القطبين، هناك تدرج يقابل كلّ ألوان الطيف، وقد استعنت بصديقى عبد اللطيف قديم، أستاذ الأدب الألمانى بجامعة الحسن الثاني، فتكرم علىّ من وقته بالساعات الطوال انكببنا خلالها، هو الذى لا يعرف الإنجليزية وأنا الذى لا أعرف الألمانية، على مقابلة ترجمتى بالأصل الألمانى، وقد كانت حقا جلسات ممتعة استفدتُ منها الكثير، فإليه أتقدم هنا بشكرى وامتنانى.

ولا أخفى أن هذه التجربة كانت أصعب تجاربى فى مجال الترجمة الأدبية، فبالإضافة إلى حاجز اللغة، هناك صعوبات خاصة متعلقة بطبيعة شعر **رِلكه** الذى يُروَى أن الناطقين بالألمانية أنفسهم يجدون صعوبات فى التعامل مع تراكيبه ولغته، وهناك أيضا صنف آخر من الصعوبات يشخصه **مايكل ديردا** فى هذا الوصف: "يظل عشق شعر ريلكه أسهل من فهمه؛ فهو تجريدى، ورِع، يستعصى على الترجمة، وقور، مهووس بالموت، وأحيانا يثير السخرية عن غير قصد"[٣١]، ولا شك أن خصوصية شعر **رِلكه** مرتبطة بتصوره الفريد عن الشعر والتجربة

[٣٠] سأكتفى هنا بذكر أسماء أهم المترجمين الذين استعنت بنصوصهم.
J. B. Leishman, Stephen Spender, M.D. Herter, Michael Hamburger, Norton, C. F. MacIntire, A. Poulin, David Young, Stephen Mitchell, Albert Ernest Fleming, Robert Hunter, David Oswald, Edward Snow, Walter Arndt, Robert Bly, William H.Gass, Richard Harris, Leslie Norris, Howard. Landman, Orf Crego.

31. Michael Dirda, "Devil or Angel", Washington Post, 31/ 3/ 1996.

الشعرية: "الأشعار ليست كما يتصور الناس مجرد أحاسيس ... بل هى تجارب؛ ففى سبيل قصيدة واحدة لابد للمرء أن يرى مدنا وأشخاصا وأشياء كثيرة؛ لابد للمرء من أن يعرف الحيوانات، لا بد له من أن يعرف كيف تطير العصافير ويعرف الإيماءة التى تتفتح بها فى الصباح صغار الزهور[٣٢]، وهذا يقينا تصور راق، وصارم لا يترك مجالا للاستسهال؛ ولا يمكن إلا أن يتولد عنه شعر رفيع شفاف تتخلله غنائية مكثفة وعبارة أنيقة تتشكل بها "قرى الكلمات"، وتُثمر بها "ضيعات الإحساس"، وتتحقق فيها وبها الذات الشاعرة زاهية مزهوة، تتحقق صورا خارقة لا تقنع بما دون النجوم:

من السنديانة أتسلق بحواسى سماوات

تلهو فيها الريح، كأنى رفيق الطيور؛

ويغرق سقوطى ـ كأننى واقف على الأسماك ـ

فى برك اقتُطعتْ من السماء.

وأخيرا، يجب أن أكرر أننى لا أحس بكثير من الأمان والارتياح فى عالمى المترجِم/ المؤول، فلا بد أن تكون به هفوات فى الفهم والتناول والصياغة أرجو أن تكون قابلة للحصر، وما لا يُدرَك كله لا يترك كله، وحسبى من هذه المغامرة أننى غنمت منها إدراكا تلخصه هذه الكلمات:

أن تقرأ قصيدة عظيمة فى لغة واحدة فقط، خصوصا إن كانت لغة غير لغتك، شبيه بأن تتسلق الجبل بمفردك متبعا طريقا مباشرا هو أشق الطرق على الإطلاق.

32. Stephen Mitchell, Ahead of All Parting, op.cit., p.250.

أن تقرأ قصيدة عظيمة في لغتين أو أكثر يعني أن تتسلق نفس الجبل، لكن هذه المرة من جوانب مختلفة، وقد تكون فى رفقة أصدقائك؛

بوسعنا آنئذ أن ندرك أن القمة هى النقطة التى تتوحد وتأتلف فيها كل الاتجاهات التى سبق أن رأيناها مختلفة،

وأن الجبل نفسه مهما تعددت المرات التى تسلقناه يظل دائما أصيلا، صافيا، مستعصيا على الفهم.

هى ذى إذن النقطة التى قادتنا إليها القصيدة، المكان الذى تتوقف فيه اللغة...

من كتاب الساعات (١٩٠٥)

أعيش حياتى فى حلقات متوسعة

أعيش حياتى فى حلقات متوسعة
تمتد فوق الأرض والسماء،
قد لا أكمل الحلقةَ الأخيرة أبدا،
لكن ذلك ما سأحاول أن أفعله،
أطوف حول الرب، البرجِ الأصلى،

أطوف عشرة آلاف سنة؛
ولست أدرى بعد أأنا صقر أم عاصفة
أم أغنية لم تكتمل؟

هاأنذا، أيها القَلق. ألست تسمع صوتي

ها أنذا، أيها القَلِق، ألست تسمع صوتي
يتدفق فتتدفق معه كل أحاسيسي الدنيوية؟
ولأن أحاسيسي تصبو إلى السمو فقد اتخذت
أجنحة، وهاهي تحلق بيضاءَ وتطوف حول وجهك،
هذه روحي المتشحة بالصمت تتعالى
وتَمثُلُ وحيدةً أمامك: ألست ترى؟
ألا تعلم أن صلاتي تصير فوق رؤياك
يانعةً كأنها ثمرة أينعتْ فوق شجرة؟

إن تكن الحالمَ فأنا حلمك،
لكنني أمنيتُكَ حين تريد أن تُفيق،
وسأغدو قويا عظيما
فأصير صمتَ نجم عظيم
فوق المدينة البعيدة الغريبة، فوق الزمن.

أجدك أيها الرب فى كل شىء

أجدك أيها الرب فى كل الأشياء وفى كل
المخلوقات النابضة بالحياة؛
مثل بذرة صغيرة، تنام فى كل ما هو صغير؛
وفى الخضم الشاسع تَهَبُ ذاتَك بكرم.

تلعب القوةُ مع الأشياء لعبة عجيبة:
تتحركُ عبر الكون هكذا فى استسلام:
تتلمس الجذور وتصير سميكة فى الجذوع
وفى أعالى الأشجار، كأنها انبعاث.

من كتاب الصور (١٩٠٢ - ١٩٠٦)

صفحة العنوان

لا بأس أن يظل الأثرياء والمحظوظون صامتين،
فلا أحد يريد أن يعرف من هم على أى حال؛
لذلك ينبغى على المحتاجين أن يعرضوا أنفسهم،
عليهم أن يقولوا: أنا أعمى،
أو يقولوا: ذلك ما أوشك أن أصيره،
أو: أمورى فى هذه الأرض ليست على ما يرام،
أو: لدى طفل عليل،
أو: فى هذا المكان أجد نفسى كالمشلول.

ولعل ذلك نفسَه لن يكون كافيا.

ورغم كل شىء، فإن الناس يمرون بالمحتاجين
كأنهم ليسوا أكثر من أشياء، ولذلك يضطرون للغناء.

وثمة موسيقى جيدة يمكن أن تُسمع هناك،
الكل يعرف طبعا غرابةَ الناس؛ فهم يفضلون
الاستماع إلى جوقة غلمان مكتظة بالخصيان.

لكن الرب نفسَه كان يأتى للاستماع و يمكث طويلا هناك،
حين تشرع فى إزعاجه أنصاف الكائنات المحيطة بنا.

أغنية الشحاذ

لا أكفُّ عن الانتقال من بوابة إلى بوابة،
محروقا ومبلولا حتى العظم،
فجأة سأضع أذنى اليمنى
فى يدى اليمنى،
ثم أسمع صوتى
كأننى لم أعرفه قط.

ولن أكون متأكدا من الصارخ:
أنا أم شخص آخر،
حقا، أنا أصرخ بلا سبب،
الشعراء يصرخون لأكثر من سبب.

أخيرا، أغطى وجهى

وعيناى مغمضتان،
يبدو وجهى كأنه فى يدى
يستريح بكل ثقله،
أفعل هذا كى لا يظنوا
أننى لا أملك مكانا
تستريح فيه رأسى.

أغنية الأعمى

أنا أعمى، يا من أنتم بالخارج. إنها لعنة،
تناقض، مهزلة مملة،
وأنا أزداد كل يوم يأسًا،
أضع يدى على ذراع زوجتى
(يد شاحبة على كُمٍّ شاحب)
فتقودنى عبر فضاء فارغ.

تدفعون وتضغطون وتظنون أنكم تحدثون
أصواتا تختلف عن صوت حجر يضرب حجرا،
لكنكم مخطئون: أنا وحدى
أعيش: أتألم وأعوى،
فىَّ صياح أبدى
ولا أستطيع أن أحدد الصارخ:

أمعائى أم قلبى المكلوم.

هل النغمات مألوفة؟ أنتم لا تغنونها هكذا:
كيف يمكن أن تفهموا؟
نورُ الشمس يدخل بيوتكم كل صباح،
وترحبون به صديقا،
وأنتم تعلمون ما معنى أن تقابلوا أحدا وجها لوجه؛
فذلك يغريكم بأن تكونوا متسامحين.

أغنية السكير

لم تكن فيَّ.. كانتْ تخرج وتدخل،
أردتُ أن أضبطها.. ضبطتْ نفسها، بالنبيذ،
(لم أعد أعلم ما هى.)
ثم ضبط النبيذُ هذا وضبط ذاك من أجلى
حتى أصبحت معتمدا عليه تماما،
مثل حمار.

الآن ألعب لعبته، وهاهو يوزع على الأوراق
وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة، وقد يخسرنى
الليلة لصالح الموت، ذلك الوحش،
حين يكسبنى، وأنا أقذرُ ورقة فوق المائدة،
سيهرش بى الجربَ فى عنقه،
ثم يقذف بى فى الوحل.

من كتاب جديدة (١٩٠٧ - ١٩٠٨)

الغزالة

Gazella Dorcas

أيتها المسحورة، كيف يمكن أن تنال
كلمتان مُختارتان تناغمَ القافية الخالصة
التى تنبض فيك إذ يتحرك جسدك؟
من جبينكِ يتعالى الغصنُ والقيثار،

وكل ملامحك تتردد تشبيهات فى
أغانى العشق، فى أغانيٍّ كلماتها رقيقة رقة
بتلات الورد، ثم تستقر على محيا شخص
كان قد أبعدَ كتابَه ثم أغمض عينيه:

ليراك: متوترةً كأن كل سيقانك بنادقُ
عُبِّئتْ وثبات لم تُطلق، بينما يرفع جيدُك
رأسَك ساكناً، ينصتُ: كما تُنصتُ

فتاةٌ تسبح في مكان منعزل حين تسمع
حفيفَ الأوراق فتلتفتُ لترى:
بركةَ الغابة منعكسةً في وجهها.

القربان

آه كم يزهر كل عرق فى جسدى،
ويفوح عطرا منذ اقتربتِ منى،
انظرى كيف أمشى، أكثر استقامة ورشاقة،
وأنتِ تنتظرين بهدوء ـ فمن أنت؟

انظرى: هاأنا أحس أننى تركت نفسى
ورائى، بعيدا؛ وأرَقْتُ حياتى السابقة، ورقة ورقة،
حتى لم يبق فى النهاية سوى نجمٍ
بسمتِك المشرق ثراءً على حياتنا.

كل شىء كان فى سنوات طفولتى ساكنا،
براقا كالماء،كل شىء كان بلا اسم،
سأسميه باسمكِ أمام المذبح المقدس،

الذى يجعله شعرُك اللامع مشعا،
أمام المذبحِ الذى توَّجتْه خفةُ نهديك.

بـوذا

كأنه كان ينصت.. الصمت، بعيدا، بعيدا...
انسحبنا حتى لم نعد نسمع أعماقه،
وهو نجم، وتحيط به ثمة نجوم
جبارة أخرى لا نستطيع رؤيتها.

آه، إنه الكل، وهل ننتظر هنا حقا
إلى أن يرانا؟ أهو فى حاجة إلينا؟
سيكون عميقا، وكسولا مثل حيوان،
حتى إن ألقينا أمامه بأنفسنا.

أجهد نفسه لآلاف السنين
بهذا الذى يسحبنا حتى نبلغ قدميه،
هو الذى ينسى ما لابد أن نتحمله،
الذى يعلم ما هو مسحوب إلى ما وراء مصيرنا.

التُّم

كدُّنا هذا فى عمل لم يكتمل بعد ـ
كأننا، وسيقاننا مغلولة، نعرَج طوال الطريق ـ
شبيهٌ بمشية التُّم المتعثر.

والموتُ ـ وهو أن نتخلى، أن نكف عن الإحساس
بصلابة الأرض التى نقف عليها كل يوم ـ
شبيهٌ باستسلامه القَلِقِ للسقوط.

فى المياه التى تتلقاه برفق
والتى تنسحب بجانبيه جداولَ،
كأنها تُبَجِّلُهُ وتبتهج بِتَلَقِّيه؛
بينما يتواضعُ هو صامتا واعيا،
فى أوج جلالته غيرَ مكترث،
يتواضعُ لينـزلق فى انسياب.

زهرة الكَوْبية الزرقاء

كآخر أخضرَ فى لوحة الألوان،
تبدو هذه الأوراق باهتةً، خشنة، ذابلة تحت
زهور تفتحت كخيمة كانت ستكون أشد دكنة
لولا انعكاس لون أزرق منبعث من بعيد.

أزرقُ تعكسه الأوراق بوهن كأن الدموع
هدتها، تعكسه بحياء كأنها لا تريد أن يدوم؛
فكأنه ورق الرسائل الأزرقُ خلعت عليه
السنون ألوانا صفراء وبنفسجية ورمادية.

باهتٌ كمريلة طفل لم تعد تُستَعمل ـ
لا يمكن أن يصيبها الآن أى شيء:
يحس المرء كم كانت قصيرة هذه الحياة التافهة.

لكن ألأزرق يُجدِّد نفسه بغتة
في هيئة عنقود أخير ـ انظر كيف
ينتشي في الأخضر الأزرقُ الحزين.

المحظية

شمس البندقية ستحيل شعرى
ذهبا يكون بريقه تتويجا لسلطان
الخيمياء، وجسورُها يضاهيها
حاجباى الرقيقان ـ ألست ترى كيف

يمتدان عبر الخطر الصامت فى عينى،
عينى اللتين ترتبان بهدوء مع قنواتها
وصالا سريا كى يعلو البحر
فيهما وينحسر ويتغير؟

من يرنى مرة يغبط كلبى الذى
تداعبه فى لحظات الشرود هذه
اليد (التى لم تحرقها قط أيٌّ شهوة)،

يَدى المنيعةُ المزينة بباذخ الحلى،
وآَلافُ الفتيان النبلاء، آمال العائلات العتيقة،
يتحطمون على شفتى، كأنهما شفتان مسمومتان.

جزيرة السيرانات

حين سأله الضيوف فى وليمته،
(وكان الوقت متأخرا، حسب مقياسهم للزمن)،
حين سألوه عن المخاطر التى كان قد سافر محفوفا بها،
قص عليهم بهدوء حكايته، ما كانت كلماته

العجيبة لتصعقهم وتأسِرهم،
كان لابد أن يأتوا ليرواْ
فى بحر الجزيرة الأزرق الساكن،
كما يرى هو، تلك الجزر الذهبية تتجلى،

فرؤيتُها تقلب الهلاك ظهرا لبطن؛
فلم يعد الآن كامنا، حيث كان
معروفا، فى غضب المياه المتلاطمة.

إنه يمضي دون أن يحدث صوتا
ليتجاوز البحارةَ وهو يعلم أن الغناء سيبدأ
أحيانا هناك على تلك الشواطئ الذهبية،
ثم ينكبون هم هناك بعمى على مجاديفهم،
يطوقهم الصمتُ هناك؛

حيث يبدو الأفق المغمور بالضباب،
صمتٌ يُهَوِّي آذانهم
حتى وإن كان جانبه الآخر
من أغنية لن يُقاومها أيُّ فانٍ.

العمياء

جلستْ إلى المائدة كالآخرين تماما،
لكنها -عند النظرة الثانية- بدتْ ممسكة فنجانها
بشكل مختلف قليلا وهى ترفعه،
ابتسمتْ مرة واحدة. يكاد الأمرُ يكون مؤلما.

وحين انتهوا حان الوقتُ كى يقفوا
و ببطء -كما اتفق- غادروا
وساروا عبر غرف كثيرة (تبادلوا الأحاديث والضحك)،
رأيتها، كانت تسير متخلفة كثيرا

عن الآخرين، منشغلة، كشخص عليه
أن يغنى فورا أمام جمهور كبير؛
وفوق عينيها المشعتين فرحا،

تراقص النورُ كما يتراقص على سطح بركة.

سارتْ خلفهم ببطء، متمهلة كثيرا،
كأن ثمة فى الطريق مانعا ما؛
لكنها كانت تمشى كأنها ستتجاوز ـ
حين تتجاوزه ـ المشيَ ذاتَه فتحلق طائرة.

الراقصة الإسبانية

كما يقذف عودُ كبريت شرارات بيضاءَ مومضة
قبل أن ينفجر لهيبا يلحس لسانُهُ كلَّ الجوانب:
يَتَّقدُ الجمهورُ مهتاجا حول الحلبة
حين تُومضُ رقصتُها فى ظلام القاعة.

وفورا تندلع النار النار.

بنظرة خاطفة إلى الأعلى تشعل شَعرَها
وإذ تدور سريعا سريعا، يدور ويدور فستانها
كأنه مروحة لهبِ شهوانيٍّ، يدور حتى يصير
أتونا تصعد منه الذراعان الطويلتان العاريتان
هائجتين، مطقطقتين، كأنهما حيتان مفزوعتان.

وآنئذ: كأنها ضاقت بالنار حول جسدها،

طفقت تغرف اللهبَ وتلقيه بعيدا فى كبرياء،
تتمادى فى حركاتِها المتكبرة، وترقبُ
اللهبَ على الأرضية يزمجر مغتاظا؛
يتعالى وهجُه، وترفض ألسنتُه أن تخمد،
إلى أن ترفع بصرها أخيرا ـ وهى تومئ
واثقةً و تبتسم ابتسامة عذبة منتشية ـ
فتُخمدها بقدمين صغيرتين صارمتين.

أورفيوس. يوريديس. هرميس

كان ذلك هو المنجم العميق الغريب، منجم الأرواح،
وكعروق خامة الفضة، كانت الأرواح فى ظلامه تتحرك صامتة،
كان الدم ينبع وسط الجذور ويتدفق نحو البشر،
وكان فى الظلام يبدو كتلا من صخور السُّماق،
لم يكن ثمة غيره شيء أحمر.

كان ثمة جبال
وغابات من ضباب، كان ثمة جسور
فوق الفراغ، وكانت تلك البحيرة العظيمة الداكنة العمياء
معلقة فوق قرارها العميق
كأنها السماء فى يوم ماطر،
وعبر المروج الوديعة الودودة
بدت الطريق شريط قطن شاحب.

من هذه الطريق كانوا قادمين،
يقودهم الرجل النحيل ذو العباءة الزرقاء ـ
ينظر إلى الأمام صامتا، جزوعا،
وكانت مشيته تلتهم الطريق فى قضمات كبيرة
نهمة غير ممضوغة؛ ويداه على جانبيه متوترتان ثقيلتان،
بعيدا عن المنحدرات، لم يعد يحس بالقيثارة المرهفة
المنغرسة فى ذراعه الأيسر كأنها جدائل ورد بها طُعِّمت زيتونة،
كانت حواسه مشتتة:
بصره يعدو أمامه كأنه كلب، يتوقف ثم ينكص،
يندفع ثانية ثم يقف جزعا عند المنعطف؛
لكن سمعه يظل متخلفا كأنه رائحة،
كان يتصور أحيانا أن سمعه يمتد إلى الخلف
ليبلغ خطوات ذينك الشخصين
اللذين لابد أنهما يمضيان فى إثره طوال الطريق،
لكن، مرة أخرى، لم يتبين سوى صدى خطوته،
أو صوت الريح و هى تنفخ فى عباءته،
كان يقول لنفسه: عليهما أن يسيرا خلفه؛

يقول ذلك بصوت عال فيسمع صوته يتلاشى،
كان عليهما أن يقتفيا خطوه، لكن خفوت
وقع خطوهما كان نذير شؤم، ليته يستطيع أن يلتفت،
ولو مرة واحدة (لكن الالتفات
سيبطل كل عمله الذى كاد يكتمل)،
لو أمكنه أن يلتفت لما أخفق فى رؤيتهما،
رؤية ذينك اللذين يمشيان خلفه الهوينى:

إلهَ الخفة والرسائل البعيدة،
فوق عينيه البراقتين قلنسوة المسافر،
يمد أمامه صولجانه الرشيق،
وعند كاحليه تخفق برفق أجنحة صغيرة،
وهى، حيث أُودعتْ، على ذراعه اليسرى، تكاد لا تلمسها.

امرأة معشوقة، عشقها يجعل نواح قيثارة واحدة يفوق نواح كل النساء؛
عشقها ينشئ عالما من نواح، عالما تجلت فيه الطبيعة:

الغابة والوادى، الطريق والقرية، الحقل و النبع والدواب؛
وحول عالم النواح هذا تدور شمس ويملأ الفضاء نجم صامت؛
عشقها يشوه النجوم ويجعل السماء مناحة عظمى:
بهذا الجبروت كان عشقها.

لكنها الآن تسير جنب الإله الجميل،
تقيد ثياب القبر خطواتها،
وديعةً تمشى، لا واثقةً ولا جزعة،
كانت غارقة فى قرار ذاتها كأنها
تكاد تضع حملها، ولم تكن ترى
الرجل أمامها ولا الطريق الصاعد شاهقا نحو الحياة،
كانت مستغرقة فى عمق ذاتها، أُشبِعتْ بموتها
حتى تجاوزتْ الرضا، وكثمرة مُخضبَة بسرها ولذتها،
كانت مشبعة بموتها الهائل الذى صار الآن جديدا،
والذى جعلتها جِدتُه تخفق فى استيعاب أى شىء.

اكتسبتْ عذرية جديدة

وصار لمسها متعذرا؛ انسد فرجها
كأنه زهرة فتية عند حلول الليل، و صارت يداها
غير معتادتين على الزواج حتى أن لمسة الإله
و هو يقودها آلمتها؛
آلمتها ـ على رقتها الخارقة ـ كأنها قبلة مغتصب.

لم تعد تلك المرأةَ الشقراء
التى كانت أصداؤها تتردد فى أغنية الشاعر،
لم تعد عطر المضجع الوثير وجزيرته،
لم تعد ملك ذلك الرجل.

كانت متحررة كشعر طويل مرسل،
منسكبة كالمطر الهاطل،
مشاعة كسلعة لا تنفَد.

كانت جذرا.

وحين مد الإله يديه فجأة ليوقفها ـ

قائلا فى صوت حزين: لقد التَفَتَ ـ
لم تدرك قصده فقالت: منْ؟

وبعيدا، بعيدا،
فى الظلام خلف بوابة الخروج الساطعة،
وقف شخص ما، شخص لا تـتميز ملامحه،
وقف ورأى كيف توقف إله البريد
بادى الحزن على شريط الطريق بين المروج،
واستدار صامتا ليسير خلف الهيئة الناحلة
التى سارت على الدرب عائدة من حيث أتتْ،
خطواتها تقيدها ثياب القبر،
تمشى وديعةً، لا واثقةً ولا جزعة.

جذع تمثال قديم لأبولو

لن نعرف أبدا رأسَه الخرافى
بعينيه الشبيهتين بثمرتين يانعتين. لكن جذعه
ما يزال مخضبا بألق صادر عن باطنه
كمصباح، به الآن نظرتُه الخفيضة.

يومض بكامل قوته، ولولا ذاك الألق ما استطاع
الصدرُ المنحنى أن يبهرك هكذا، ولا استطاعت
بسمةٌ أن تعبر هدوء الوركين والفخذين
نحو البؤرة المظلمة التى تتوهج فيها الشهوة.

لولاه لبدا هذا الحجر مشوها
تحت الشلال الشفاف، شلال الكتفين،
لولاه ما لمع كأنه فرو حيوان ضار:

لولاه ما تفجر، من كل أطرافه،
كأنه نجم: فليس في هذا الحجر مكان
لا يراك، لا بد أن تغير حياتك.

إحداهن

باريس

أوتدرى ماذا يحدث فى المساء؟
غالبا ما يتوقفن فجأة، يومئن ويرقبن،
ومن تحت قبعاتهن الصغيرة
تُلقَى إليك ابتسامةٌ مرقعة.

يتوقفن جنب مبان تبدو كتلة
لانهاية لها، يغازلنك
بلغز حِكة الأجرب،
بالقبعة، بالشال، وبالمشية المتلكئة.

باليد خلف الياقة،
تنتظر هى متسترة وتشتهيك:

كأنها تَلُفُّ يدَك

فى قطعة ورق كانت قد التقطتها.

صباح البندقية

نوافذ مدلَّلة كالأمراء تطل دائما
على ما قد يتعطف أحيانا بإزعاجنا:
على المدينة التى تتشكل ـ مرة تلو أخرى ـ
دون أن تكتمل ولو مرة واحدة،

مدينة ما انفك ألقُ السماء بها يقدح الإحساسَ بالضوء الغامر،
كل صباحٍ جديد لا بد أن يريها الحُلِيّ
التى كانت بالأمس تتزين بها، ويسحبَ
من القنال خيوط ألق،
ويذكرها بالأزمنة الأخرى:
آنئذ فقط ترضى أن تستقر، كأنها

حورية استقبلتْ **زيوس** العظيم.

القُرطان المتدليان يسكبان فى أذنيها الرنين؛
لكنها ترفع القديس **جورجيو مايورى**[1]
وتبتسم كسلى نحو ذلك المخلوق البديع.

1. San Giorgio Maggiore.

العود

أنا العود؛ إن أردتَ أن تصف جسدى
الذى تحضنُه الخطوط المقوسة البديعة،
فـتكلم كأنك تتكلم عن حبة تين
مكتملة يانعة، و بالغْ فى وصف

الظلام الذى تراه بداخلى،
كان ظلامَ **توليا**، لم يكن فى عارها
شيئا يُذكَر، وكان شعرها اللامع
يبدو قاعة وهاجة، من حين لآخر

كانت تسمع النغم المنعكسَ
على وجهها، وتغنيه لتعيده إلىَّ؛
فأغدو متوترا وأمضى نحو الوهن
إلى أن تستقر كينونتى فيها.

طفولة دون جوان

فى جسده النحيل كان القوسُ المُضمَر
الذى لم تستطع النساء كسره؛
وغالبا ما كان يستيقظ على وجهه،
ودون أن يتجنب جبينه، ميلٌ إلى

هذه التى تمر بجانبه، أو إلى تلك التى
يحفظ وجهُها لوحةً أجنبية عتيقة؛
كان يبتسم، لم يكن أكثر من غلام بكى،
وهو يخفى نفسه بعيدا فى مكان مظلم.

وإذ ينشأ إيمان جديد
كى يعزيه أو يجدِل روحَه،
يتحمل بوقار جبروت عيونهن التى كانت
تنظر إليه بإعجاب وتُثيره.

طيور النُّحام

Jardin des Plantes, Paris

كل أصباغ **فراجونار**[1] الدقيقة
لا يمكن أن تعبر عن أحمرها وأبيضها
أكثر مما يعبر شخصٌ عن عشيقته
إذ يخبرك قائلا: "كانت رائعة، وهي ترقد هناك

وقد جعلها النوم ناعمة"، "تتطاول فوق المرج الأخضر
وتتمايل قليلا على سيقانها القرمزية الطويلة،
تتمايل بعضها على بعض، مثل أزهار مريشة هائلة،
تُغوى (وإغواؤها أشد من إغواء **فرين**[2])

1. Fragonard.
2. Phryne.

نفسَها؛ حتى تلتوى أعناقها فتُغرقُ عيونَها
الواسعةَ الشاحبة فى نعومة ريشها،
حيث يكمُن أحمر التفاح وأسود الكهرمان،
تهز صرخةُ غيرةٍ قفصَ الببغاء؛
لكنها تتمطى مندهشة وتخطو، واحدا
تلو الآخر، نحو عالمها الخيالى.

بـوذا فـى مـجـده

مركزَ المراكز، يا قلبَ القلوب،
يا حبَّةَ لوز تحتضن نفسها وتزداد حلاوة،
هذا الكونُ كلُّه ـ حتى أبعدِ النجوم
وما بعدها ـ ثمرتُك، المجد كلَ المجد لك.

الآن تحسُّ أن لا شيء يتشبث بك؛
قشرُك العظيم يمتد إلى الفضاء اللامتناهى،
وثمة تعلو وتتدفق السوائل الغنية الكثيفة،
وإذ تستمدُّ بلايينُ النجوم النورَ من سكينـتك

الأبدية، تواصلُ دورانَها طوال الليل،
متوهجة هناك فى الأعالى،
لكن فيكَ يكمن الحضور الذى
سيظل باقيا حين تفنى النجوم.

من جناز (١٩٠٩)

جنَّاز إلى صديقة

لديَّ موتاي، وقد تركتهم يرحلون،
وكنتُ مندهشا إذ رأيتهم مطمئنين،
مرتاحين فورا لكونهم موتى، مبتهجين،
مختلفين كثيرا عما نتصورهم. وحدكِ أنتِ
تعودين؛ تمسينني برفق وأنت تمرين بجانبي، تتلكئين،
تحاولين أن تَدقِّي شيئا ما كي يُنبئ الصوتُ
عن حضورك، آه لا تنتزعي مني ما
أتعلمه ببطء، أنا متيقن أنكِ ضللت الطريق
إن أنتِ تأثرتِ فأحسستِ بالحنين إلى أي شيء
في هذا المدى، نحن نحوِّل هذه الأشياء؛
إنها ليست واقعا، إن هي إلا انعكاس
فوق سطح كينونتنا الصقيل.

كنت أظنكِ في مكان قصي، يقلقني
أنكِ شرَدتِ فعدتِ، أنتِ يا من حققتِ
تحولا أكثر مما حققه غيركِ من النساء.
ويقلقني أننا كنا مذعورين إذ متِّ... كلا؛ بل
يقلقني أن موتك الصارم سطا علينا بقتامته
فانتزع ما بعده مما قبله ـ
يقلقنا هذا: علينا أن نرتب الأمر كله،
وهذا عبء يظل أبدا أمامنا،
لكن أن تكوني مرعوبة، وأن تنبِضي
خوفا حتى الآن، حيث لا معنى للخوف؛
أن تفقدي، يا **باولا**، كل شيء، أن تفقدي
حتى أصغر جزء من أبديتك، وأن تدخلي هنا،
حيث لا وجود لأي شيء؛ أن تكوني هناك،
محتارةً لأول مرة، شاردةً،
وألا تعانقي بهاءَ القوى المطلَقة:
كما كنتِ على الأرض تعانقين كلَّ شيء؛
وأن تكونَ عَظَمةُ استياء قديم

قد جرتكِ، من العالم الذى تلقاكِ،
فأعادتك إلى الزمن الذى يُقاس ـ
كل هذا يجعلنى أجفل فأخرج ليلا من نوم
لا أحلام به، فكأنه لص يتسلق نافذتى،
ليتنى أستطيع أن أقول بأنك أتيتِ
لمجرد طيبوبتك، لمجرد عظيم كرمك،
بأنك أتيتِ لأنك هادئة آمنة، وأن بوسعك
أن تشرُدى حيث تشائين، كأنك طفلة،
غيرَ خائفة من أى ضرر قد يتربص بكِ...
لا: فأنت تستغيثين. وهذا يخترقنى
حتى العظامِ ويُقطِّعنى كأنه منشار،
فأمَرُّ لوم يمكن أن يوجهه إلىَّ شبحُكِ
هو أن يصرخ بى ليلا حين ألجأ
إلى رئتى، إلى أمعائى،
إلى آخر غرفة خالية فى قلبى ـ
فليس ثمة مرارة يمكن أن تجعلنى
أرتعش كما تفعل هذه الاستغاثة

الخرساء، ماذا تريدين؟
أينبغى على أن أسافر؟ أخبرينى،
هل تركت شيئا ما، مكانا ما، لا يطيق
غيابَك؟ أينبغى أن أرحل إلى بلد
لم تريه قط مع أنه كان قريبا منكِ،
قريبا وزاهيا كما كانت حواسكِ؟
سأجوب أنهاره، وسأستكشف وديانه،
وسأستخبر عن أقدم عاداته؛ وسأتوقف
لساعات أُحادثُ النساءَ عند عتباتهن وأرقبهن
وهن ينادين أطفالهن أن يعودوا إلى البيوت،
سأرى كيف يَتَّشحْنَ بالأرض حولهن إذ يزاولن
أشغالهن العتيقةَ فى الحقول والمروج، وسأطلب
أن أمثُل بين يدى ملك البلاد، وسأرشو الرهبان
كى يأخذونى إلى معبدهم، فأَمْثُلُ أمامَ
أشدِّ تماثيلهم نفوذا،
ويتركونى هناك، ثم يُغَلِّقون البوابات خلفهم،
وآنئذ فقط، حين آخذُ من العلم ما يكفى،

سأذهب لمشاهدة الحيوانات، وأستسلم
لهدوئها علَّ بعضا منه ينساب ليدب فى
أوصالي؛ سأرى وجودى عميقا
فى عيونها، عيونِها التى تمسك بى لحظة
ثم تدعنى، بهدوء، أمضى دون أن أُحاكَم،
سأجعل البساتنة يأتون إلى ويرتلون
آلاف الزهور، وفى الأصص الطينية
الصغيرة، أصصِ أسمائها المنغومة،
سأجلب بعض بقايا العطور المائة،
والفواكه: سأبتاع الفواكهَ، وفى حلاوتها
ستنبعث أرضُ تلك البلاد وسماؤُها؛
فذلك ما كنت تفهمين: الثمارَ اليانعة،
كنتِ تضعينها فى صحون بيضاء أمام قماش اللوحة،
وبألوانكِ كنتِ تَزِنـين ثقلَ كل حبة منها،
والنساء أيضا كنتِ ترينهن فواكه؛ وكنت ترين الأطفال
يُجبَلون فى الأرحام فيتخذون أشكالها،
وأخيرا رأيتِ نفسك ثمرة، فَنَضَوْتِ

الثوب عنك ثم عرضت نفسك
على المرآة، سمحت لنفسك بالدخول
أمام نظرتِك؛ وظلت المرآةُ شاسعة أمامك،
فلم تقل: "أنا تلك"؛ كلا بل قالت: "هو ذا"،
وصارتْ نظرتُك خالية تماما من الفضول،
بريئة تماما من التملك، صارت فقيرة فقرا
تركها بدون رغبة حتى فيك أنت؛ نظرتُكِ
لم تعد ترغب فى أى شئ، صارتْ: مقدسة،
ولذلك كنتُ بكِ متعلقا ـ وأنتِ
فى عمق المرآة حيث أودعتِ نفسك،
بعيدا عن العالمين. لماذا تجليتِ بهذه الهيئة
فأنكرتِ نفسكِ؟ لماذا تريدين أن تجعليني
أظن أن نوعا من الرصانة ما يزال تكتنف
حباتِ الكهرمان التى كنتِ فى البورتريه الذاتى
تتحلين بها ـ رصانةً لا يمكن أن
تتحقق فى سماء الرسم الصافية؟ لماذا
تُرينني بوقفتك هذه نذيرَ نحس؟

ما الذى يجعلك تقرئين حدودَ جسدك
كأنك تقرئين الخَطوطَ المنقوشة فى راحة يدك
قراءةً تجعلنى لا أستطيع أن أراها إلا قدرا؟
تعالى إلى ضوء الشمعة؛ فلستُ أخاف
أن أواجه الموتى، حين يعودون، يحق لهم
أن يعودوا، كما يحق لغيرهم من الأشياء،
يحق لهم أن يتوقفوا لتنتعش فى مجال رؤيتنا نفوسُهم،
تعالى؛ وسنظل للحظة صامتيْن،
انظرى إلى هذه الوردة عند زاوية المكتب:
أليست هالةُ النور حولها متهيبة
مثل الهالة المحيطة بك؟ الوردة أيضا لا ينبغى أن تكون
هناك، كان ينبغى أن تتفتح ثم تذبل، بالخارج،
فى الحديقة.ما كان لها أبدا أن ترتبط بى. لكنها الآن
تحيا فى مزهريتها الخزفية الصغيرة:
أى معنى يمكن أن تجد فى وعيى أنا بها؟

لا تفزعى إن كنتُ قد فهمتها الآن؛

إنها تتصاعد فيَّ، آه، هاأنذا أحاول أن أمسكها،
لابد أن أمسكها، حتى لو هلكتُ للإمساك بها، لا بد
أن أستوعب أنك الآن هنا؛ فكما يتشبث الأعمى بالشيء،
أحس قدركِ مع أنى لا أستطيع أن أسميه،
لنبْكِ معا لأن شخصا ما أخرجكِ
من عمق مرآتكِ، أما تزالين تستطيعين البكاء؟
كلا: فأنا مدركٌ أنكِ لا تستطيعين، فقد حولتِ
قوةَ وضغط دموعكِ إلى نظرتك اليانعة، وكنتِ
تحيلين كلَّ سائل بداخلك إلى واقع حي يعلو
ويسرى فى اتزان وعناد،
ثم دخل القَدَرُ، لآخر مرة، واجتثَّكِ
فأعادك، من آخر خطوة على طريقكِ،
إلى عالم تنال فيه الأجسادُ ما تريد،
لم يجتثَّك مرة واحدة: مزق منك فى البدء مجرد مزقة؛
لكن حين امتد عالم الواقع ـ حول هذه المزقة ـ
وتضخم يوما بعد آخر فأصبح ثقيلا، صرتِ فى حاجة
إلى كامل ذاتكِ، فمضيتِ وخلَّصتِ نفسك من قبضته،

وكنتِ تتفتتين متألمةً لأنك كنت فى أمس الحاجة إلى ذاتكِ..
ومن أعماق تربة قلبك التى أدفأها الليل
استخرجتِ البذورَ، وكانت بعد خضراء، استخرجت البذور
التى سوف يتبرعم منها موتُك: موتُك أنتِ، موتك المكتمل،
ذلك الموتُ الذى صار تتويجا مثاليا لكل حياتكِ،
وابتلعتِ نوى موتك، كباقى النوى، ابتلعتِه ثم جفلتِ
إذ وجدتِ نكهةً عذبةً ما كنتِ تتوقعينها، أحسستِ بعذوبة
على شفتيك، يا من كنتِ قبل ذلك عذبة فى عقر حواسك.
آه لنبْكِ معا، أتعلمين كيف عاد دمك،
حين ناديتِه، كيف كان مترددا محتشما وهو
يعود من طوافه الذى لا مثيل له؟
كم كان مرتبكا لاستئنافه السريان
فى دورته الضيقة عبر الجسد؛ كم
كان الارتياب والاستغراب يغمرانه
وهو يتدفق فى مشيمة الجنين ثم
ينهكه فجأة طول الرحلة،
كنتِ تقودينه، تدفعينه قدما، تسحبينه

ليعود إلى الأرض، كما يُسحب حيوان
مذعور إلى مذبح القرابين؛ وكنت تريدين
له أن يكون، بعد كل ذلك، سعيدا.
وأخيرا، أرغمته: فكان سعيدا،
استسلم وتدفق، وظننتِ، لأنك كنت
قد تعودت على مقاييس أخرى،
بأن هذا لن يدوم طويلا،
ولكنك كنتِ ترحلين فى الزمن، والزمن طويل،
ويمضى الزمن، ويصير الزمن هائلا،
والزمن شبيه بنكوص بعد مرض مستديم،
لكم تبدو حياتكِ قصيرة، إذا قارنتها الآن
بتلك الساعات الفارغة التى أنفقتِها فى الصمت،
فجعلتِ القُدْرَةَ الغزيرة، قدرةَ مستقبلك الغزير،
تنحرف عن مجراها، لتتدفق فى البذرة الطفل،
البذرة الجديدة التى صارت مرة أخرى قدرا، مهمةٌ عسيرة مؤلمة:
مهمةٌ تعجز عن أدائها كل طاقة، لكنك كنت تؤدينها
يوما بعد يوم، كنت تتحاملين على نفسك كى تواجهيها؛

تسحبين الخيط الجميل من النول
ثم تجدلين خيوطك لتنسجى زركشة جديدة،
ومع كل ذلك كان لديك ما يكفى من الشجاعة للاحتفال،
وحين اكتمل العمل، رغبت فى أن تُكافَئِ،
مثل الأطفال حين يتجرعون
جرعة شاى مُرٍّ قد تداويهم،
هكذا اخترتِ مكافأتك، ولأنك كنتِ ما تزالين
حتى فى ذلكَ الوقت مُبعَدةً عن الناسَ، لم يتصور
أحد أى مكافأة ترضيك،
لكنك كنت تعرفين. جلست فى سرير طفولتك
وكانت أمامك مرآة تعيد إليك كل شىء،
وكنت أنتِ كل شىء،
و أمامك بالتحديد، لم يكن فى صميم المرآة إلا الخداع،
الخداع العذب، خداع كل امرأة تبتسم
إذ تضع حليها أو تمشط شعرها،
وهكذا متِّ كما اعتادت النساء أن يمتن،
فى البيت، فى غرفة نومك الدافئة، الميتةَ العتيقة،

ميتةَ النساء وهُنَّ يلدن، تلك النساء اللاتى يحاولن
أن يغلقن ثانية أنفسهن فلا يستطعن، لأن ذلك
الظلام العتيق الذى أنجبنه أيضا
يعود إليهن: يندفع بعنف، ثم يلج.

فيما مضى، كان ممكنا أن تُنشَد المناحةُ الجنائزية،
كان ممكنا أن تُستأجَر النسوةُ ليعولن ويلطمن لأجلك
صدورهن طوال الليل، حين يكون كل شيئا صامتا،
أنى لنا أن نجد الآن مثل هذه العادات؟ كثير منها
هُجِر أو اختفى منذ أمد طويل؛
لذلك عُدت: عُدتِ لنسترجع
المناحةَ التى كنا قد أهملناها، أتسمعيننى؟
أريد أن أطرح صوتى فوق شظايا موتكِ
كأنه ثوب، وأظل أسحبه
حتى يصير مزَقا،
وستُجبَر كلُّ كلماتى على أن تطوف
فى مزق ذلك الصوت، مرتعشة؛

ليت النواح كان كافيا، لكننى الآن لا بد أن أتهم:
ليس ذلك الرجلَ الذى انتزعك من نفسك
(لا أستطيع العثور عليه؛ فهو لا يبدو مختلفا عن غيره)
لكن فى هذا الرجل وحده، أتهم: أتهم الرجالَ جميعا،
حين ينشأ، فى مكان ما من أعماقى،
ذلك الإحساسُ الزاهى بأننى كنتُ طفلا،
ذلك الإحساسُ بروح وصفاء تلك الطفولة
التى ولَّتْ: أصيرُ زاهدا فى معرفتها،
أريد أن أنشئ من ذلك الإحساس ملاكا
ثم أقذف به عاليا ليتبوأ الصفَّ الأول
بين الملائكة التى تصرخ عاليا، وتُذكِّرُ الرب؛
فهذا العذابُ دام طويلا؛
وما عاد فى وسع أى منا أن يتحمله؛ هو عبء ثقيل
هذا العذابُ المتشابك، عذابُ العشق الزائف،
هذا العذاب الذى يقوم على العرف كالعادة،
هذا العذاب الذى يقتاتُ على الظلم ويرى نفسه عادلا،
أرنى إنسانا له الحق فى أن يملك ما يملك.

من يستطيع أن يملك ما لا يستطيع أن يمسك حتى نفسه،
بل لا يستطيع سوى أن يتلقف،
من حين لآخر،ذاتَه بسعادة، ثم يقذفها بعيدا،
كأنه طفل يلعب بكرة،
لا يستطيع أن يمسك إلا القليل: إلا مثل ما يلمحه الربان وهو
فى مقدمة السفينة من تمثال **نايكه**[1] المنقوش المواجه للآفاق، ما يلمحه
منها حين تسمو بها خِفَّةُ ألوهيتها فترتفع فى ريح البحر الساطعة:
لا أحد منا يستطيع أن يستحضر إلا القليل من المرأة التى
تواصل سيرها ـ وهى الآن لم تعد ترانا ـ على الشريط الضيق،
تلك التى تواصل سيرها على شريط وجودها آمنة تماما
كأن فى الأمر معجزة؛ لا أحد منا يستطيع أن يستحضر
منها الكثير إلا إذا كان راغبا فى الإساءة؛
فهذه إساءة، إن يكن ثمة إساءة:
ألاَّ يتيح المرءُ ـ وبكل ما فى وسعه من
حرية باطنية ـ انطلاقا أوسع لعشق ما؛
فليس علينا فى العشق إلا أن نفعل هذا:

1. Nike

أن يتيح أحدُنا للآخر الانطلاق؛ فالتشبث
سهل؛ ولسنا فى حاجة إلى أن نتعلمه،
أما زلتِ هناك؟ أتقفين فى زاوية ما؟
كنتِ تعرفين الكثير من كل هذا، كان بوسعك
أن تفعلى الكثير؛ مررتِ بالحياة عابرةً، متفتحةً
على كل الأمور، كأنك صباح باكر، أعلم:
النساء يتألمن؛ فالحب يعنى معاناة العزلة؛
والفنانون أحيانا يحدسون فى أعمالهم
أن عليهم أن يواصلوا التغيير، حيث يعشقون،
بدأتِ كليهما؛ كلاهما موجود في
ما تنتزعه منكِ أى شهرة ثم تشوهه،
آه، كنت فوق كل شهرة؛ كدتِ
أن تكونى محجوبة؛ وكنتِ قد سحبتِ جمالك
بنعومة كما ينكس المرءُ علَما زاهى الألوان
فى صباح غائم بعد يوم عطلة،
كانت لك رغبة واحدة فقط: عمل دام سنوات،
لكنه لم يكتمل، عمل ربما لم يكتمل قط.

إن كنتِ ما تزالين معى هاهنا، إن كان ما يزال
ثمة فى هذا الظلام مكانٌ ما تَرِنُّ فيه أصداءُ روحكِ
فوق هدير الأمواج الأجوف الذى يثيره صوتي:
فاسمعينى؛ ساعدينى، نستطيع أن ننـزلق بسهولة
عائدين مما جاهدنا كى نناله، أن نعود بغتة
إلى حياةٍ ما رغبنا قط فيها؛ نستطيع أن
نكتشف اننا وقعنا فى الشرك، كأننا فى حلم،
و أن نموت ثمة دون أن نفيق أبدا،
يمكن أن يحدث هذا، أىُّ شخص أودع
دمَه فى عمل دام لسنوات يمكن أن يكتشف
أنه لا يستطيع أن يتحمله، قوة الجاذبية
لا تُقاوَم، وهى ترتد، فتصير بدون قيمة؛
فثمة فى مكان ما عداوة قديمة
بين العمل العظيم وحياتنا اليومية،
لا تعودى، إن كنت تستطيعين أن تتحملى
البقاء ميِّتةً وسط الموتى، للموتى مهامهم الخاصة،
لكن ساعدينى إن كنت تستطيعين مساعدتى دون أن تلهينى،
كما يساعدنى أحيانا ما هو بباطنى أقصى.

من قصائد متفرقة (١٩١١ - ١٩٢٠)

إلى لو أندرياس سالومى

I

تركتُ نفسى أعزلَ ونسيتُ
أن ما بالخارج ليس مجرد الأشياء، مجرد
حيوانات تنعم براحة البال،
عيونها لا تخرج عن استدارة حياتها
إلا كما تخرج اللوحةُ عن إطارها؛
نسيتُ أننى انتزعتُ لنفسى
نظراتٍ وآراء وفضولا؛
فالعيونَ، حسَب ما نعلم، قد تلوح فى الفضاء،
وتحدق فى كل شىء تشرف عليه، وجهى لا يكون آمنا
إلا حين أُلقِى بنفسى فى أحضانك، فيمتد هو فيك
ويمضى أبدا فى عتمة قلبك المحمى.

II

وكما يحمل المرء منديلا ليكتم به
أنفاسَه المتزايدة... كلاًّ: بل كما يضغط المرء بمنديل
على جرح تحاول الحياة ـ في وثبة واحدة ـ
أن تفر منه، حضنْتُكِ بشدة
حتى غمرنا الخجلُ معا، من ذا الذى يستطيع
أن يصف ما حل بنا؟ تداركْنا كلَّ ما لم يكن
لدينا من قبل وقت لننعم به، نضجتْ نضجا غريبا
كلُّ نزوة من نزوات شبابى الضائع،
ووجدتِ، يا حبيبتى، نفسكِ تبسطين
على قلبى طفولة جامحة.

III

تَذكُّرُ تلك اللحظات لن يكون كافيا،
فلا بد أن يتبقى من كل تلك اللحظات
وجودٌ خالص مازال فى أعماقى، سُوْرٌ

تبقى من محلول لا قياس لفيضه،
أنا لا أسترجع ذكرى: فوجودى أنا
يجعلنى حيا بسببك أنتِ، فأنا لا أكتشفكَ
فى الأماكن الباردة الكئيبة التى غادرتِها،
وغيابك عنها يجعلها
دافئة بك: غيابك أشد وطأة
من الحرمان، التشوق غالبا
ما يؤول إلى الغموض؛ فلمَ أيأس
وحضوركِ - رغم غيابك - ما زال يغمرنى،
وينزل برفق كنور القمر على مقعد قرب النافذة.

اللآلئ تتدحرج مبتعدة

اللآلئُ تتدحرج مبتعدة، آه، هل انفرط العقد؟
لكن أى جدوى فى أن أعيد نظمها: أنتِ غائبة،
وأنت الزر الذى يبقيها فى مكانها، أيتها الحبيبة.

أما كان الوقت قدحان؟ فكما ينتظر الشروقَ
أولُ شعاع أنتظركِ، وهاأنا قد هزمتُ الليل،
أنتظرك وأنا شاحب من ضنى اللهفة؛
كمسرح مكتظ أصير وجها كبيرا واحدا
كى لا تفر منى، أثناء دخولك إلى
الخشبة، أيةُ إيماءة صغيرة،
آه، كأن خليجا صغيرا يصبو إلى البحر الواسع
ومن المنار الممتد يطرح
أشرطة منيرة؛ أو كأن قرار نهر فى الصحراء يمتد

كى يجرى فيه ـ وهو بعد سماوى ـ مطرٌ آتٍ من جبال نقية؛
كما يتطلع السجين منتصبا من نافذته البريئة
إلى جواب نجم بذاته؛
كما ينتزع رجلٌ
من تحت إبطيه عكازيه الدافئين، كى يُعلَّقا فوق
المذبح، فيرقد هناك لا يقوى على النهوض
بلا معجزة: انظرى، كذلك
سأزحف نحو نهايتى إن لم تُـقبلِى.

إليكِ وحدك أشتاق؛ أما ينبغى للشَّق على الرصيف،
حين يحس وهو بئيس بالعشب يجيش، أما ينبغى له
أن يشتهى كلَّ الربيع؟ كلَّ ربيع الأرض؟
ألا يحتاج القمرُ لكل المظهر العظيم، مظهرِ الكوكب الغريب،
كى تهتدى صورتُه إلى نفسها فى بركة القرية؟ كيف يمكن
لأتفه شىء أن يحدث إن لم يكن المستقبل بأكمله ـ
بل الزمن كلُّه ـ يسعى، مكتملا، فى طريقه نحونا؟

ألستِ موجودة فيه، يا من أعجز عن نطق اسمها؟
إن يصدر منك بعد الآن ولو تمنع طفيف، فسأخذُلكِ،
لن أكون أهلا لك، سأكون طاعنا فى السن،
أو يُنَحِّينى الأطفال إلى حيث...

أشجار اللوز مزهرة

أشجار اللوز مزهرة: كل ما بوسعنا
أن نحققه هاهنا هو أن ندرك ذواتنا
فى تجلياتها الدنيوية.

أظل أتأملكن مستغربا، أيتها المباركات، أتأمل سكينتكن،
وأعجب كيف تحملن، فى بهجة أبدية، بهاءَكن الزائل،
آه ليتنا نعرف كيف نتفتح! لو عرفنا لتجاوزتْ قلوبُنا
كلَّ خطر تافه، ولوجدتْ فى الخطر الأعظم سكينتها.

الثلاثية الإسبانية

I

من هذه الغيمة، انظر! هذه الغيمة الهائجة التى
غطتْ النجمَ الذى كان منذ لحظة لامعا هناك ـ (ومنِّى)،
من هذه التلال المتجمعة عناقيدَ غامقةً تسند الليل،
وتسند للحظة رياح الليل ـ (ومنِّى)،
من هذا الجدول بالوادى يعكس
الألقَ المتكسر، ألقَ السماء، سماء الليل ـ (ومنِّى)؛
منى، أيها الرب، ومن كل شىء، أَلْهِمنى
أن أخلق شيئا واحدا؛ منى ومِن النفَس البطىء
الذى بفضله يتحمل القطيع، المُودَع فى الزريبة
عند الغسق، يتحمل الغيابَ المظلم العظيم، غيابَ العالم ـ
منِّى ومن كل شمعة تخفق

فى عتمة آلاف البيوت، ألهمنى يا رب
أن أخلق شيئا واحدا؛ من الغرباء، فأنا لا أعرف
هنا أحدا، منى، يا رب،ألهمنى أن أخلق
من نفسى شيئا واحدا؛ من النائمين فى هذه البيوت،
من الشيوخ المهجورين فى الملجأ،
الشيوخِ الذين هم فى الأسرة يسعُلون، ومن الأطفال،
خصوصا، الأطفال الذين أسكرهم النوم على صدور الغرباء،
من كثير من الأشياء المتقلبة، ومنِّى،
منِّى أنا وحدى ومما أجهله،
ألهمنى ـ يا رب، يا رب، يا رب ـ أن أخلُق الشىء
الدنيوى والكونى الشبيه بـنـيـزك لا يجمع داخل ثقله
سوى حاصل الفرار ولا يزن شيئا سوى الوصول.

II

لماذا يتحتم على المرء أن يواجه أبدا
أشياء ليست له، كأنه خادم

يحمل فى السوق سلة تزداد ثقلا،
سلةً تزداد امتلاء بمروره من متجر إلى آخر،
يمتثل ولا يجرؤ أن يسأل: سيدى، لِمَ هذه الوليمة؟

لماذا يتحتم على المرء أن يظل واقفا كأنه راع،
أعزلُ أمام سيل استبداد كهذا،
وكأنه جزء لا يتجزأ من المشهد الذى يغمره هذا الحدث،
فلو استند إلى جذع شجرة
لقرر مصيره إلى الأبد،
لكن ليست لديه ـ فى نظرته الشاخصة ـ
تلك الدعة الصامتة، دعةُ القطيع: لاشىء لديه
سوى الكون؛ يتملك الكونَ كلما رفع رأسه؛
كلما أطرق ـ تملَّك الكون، كلُّ ما يستسلم راضيا
لغيره يخترقه هو كالنغم، يغشى دمَه
على غير هدى، ثم يتغير فيختفى.

فى الليل يقف، ونداء الطيور البعيدُ

مستقر فى قرارة ذاته؛ ويحس بالجرأة
لأنه استورد إلى وجهه كلَّ المجرات،
لم يستوردها مَرِحا ـ آه ليس مرحا
كمن يهيئ لحبيبته ليلة كهذه
ثم يستضيفها ويدللها فى سماوات يعرفها،
لكن دعنى، حين تحيط بى ثانية
فوضى المدن، وخصلاتُ
الفتنة المتشابكة، ولعلعةُ حركة المرور، دعنى وشأنى،
دعنى، فوق كثافة الصَّخَب، أتذكرْ
هذه السماء وحافةَ الوادى التى بدأ يغزوها الظلام
حيث بدتْ القطعان على طريق عودتها، وهى تردد ثغاءها،
دع شجاعتى تكن فى صلابة صخرة،
دع مهمة الراعى اليومية تبدو لى ممكنة،
إذ يتجول هنا وهناك ويقذف الحجارة كى يقدر وزنها،
ويصلح ما انكسر من حافة قطيعه،
يا لرزانة خطواته البطيئة وجسده المتأمل،
يا لمهابة وقفته: يستطع اليوم أى إله

أن يحل فى هذه الهيئة دون أن ينال الحلول من ألوهيته،
هاهو يتريث ثم يمضى كأنه النهار ذاته،
وظلال الغيوم
تمر به، كأنها خواطر بطيئة
تخطر للفضاء بدل أن تخطرله.

دعه يكن من تشاء، كشمعة تخفق
فى فانوس يواجه العاصفة، أُودِعُ نفسى بداخله،
يسكن الوهج؛
فليعثر الموت بسهولة على الطريق.

روح إرييل

(بعد قراءة العاصفة لشكسبير)

ذات مرة، فى مكان ما، بشكل ما، كنتَ قد حرَّرتَه

بتلك النخعة العنيفة التى انتـزعتْكَ

من حياتك وأنت فتى فرفعتْ مقامك،

ثم غدا مذ ذاك طيعا، خدوما،

متلهفا على خَلاصه بعد كل مهمة يؤدِّيها،

ولأنك كنتَ كالمستبد، ولأنك كدتَ تشعر بالخزى،

فقد كنتَ تلتمس لنفسك الأعذار، كنت تقول إنك

مازلتَ فى حاجة إليه كى يؤدى هذه المهمة أو تلك،

وكنت، آه، لا تجد بدا من أن تستطرد واصفا

كيف كُنتَ تساعده، لكنك كنتَ ـ أنت نفسك ـ

تحس أن كل شىء يعوقه اعتقالُه

يُحرَم منه الفضاء، يا للعذوبة، يا للإغراء:

أن تدعه يمضى ـ أن تتخلى عن سحرك كله،
أن تستسلم كغيرك للقدر،
وتعلم أن صداقته البهيجة، التى غدت الآن عفوية،
والتى لم تعد، فى أى مكان، خاضعة لأى التزام،
والتى تُكثِّفُ الفضاءَ الذى تستنشقه،
تفعل فعلها فى العناصر دون قصد،
أنت بعد الآن معتمد عليه، لن تقوى أبدا
على أن تجعل شفتيك الخدرتين تنطقان ذلك النداء
الذى غاص هو عند سماعه. أعزلُ، مملق، طاعن فى السن،
لكنك ما تزال تستنشقه، كأنه عطر
يُـنْـثَر دون انقطاع، عطرٌ يجعل ما هو خفىٰ،
لأول مرة، مكتملا، وتبتسم لأنك استطعت
أن تستحضره وتحسَّ بالارتياح
فى خضم ذلك الوصال، ولعلك تبكى أيضا
إذ تتذكر كم كان يحبك، ولكنه كان يتمنى
أن يهجرك: يحبك ويتمنى، دائما فى نفس الآن، أن يهجرك.

(هل تخليتُ فعلا؟ أظلُّ أنظر،

وأنا مفزوع من هذا الرجل

الذى صار ثانية دوقا، يا لليسر الذى يَسحبُ

به السلكَ عبر رأسه ويشنق نفسَه

مع الدمى الأخرى؛ ثم يخطو إلى الأمام

ليلتمس تصفيق الجمهور

وعطفه... يا للسلطان المبين:

أن يتنحى المرء جانبا، أن يقف هناك عاريا

من كل قوة سوى قوته هو، "قوةٍ فى غاية الوهن") "١٧ يوليوز".

يصارعون ببلاء جبروت الليل

وإذ يصارعون ببلاء جبروت الليل،
يلقون بأصواتهم الرقيقة على الضحك
الذى يقاوم الاحتراق، آه أيها العالم العاق،
يا من يمتلئ بالرفض، ومع ذلك فإنه يتنفس الفضاء
الذى تدور فيه النجوم، وهو ليس فى حاجة إلينا،
وقد يدور مبتعدا، فى أى وقت، لأنه مهجور
فى الفضاء، ثم يوغل فى البعد، بعيدا بعيدا عنا،
الآن يتواضع كى يلمِس وجوهَنا بنعومة
كأنه نظرة امرأة معشوقة؛ يتفتح أمامنا،
وقد يرشنا بأريجه، ولسنا لأريجه أهلا،
لعل قوة الملائكة تهن قليلا
حين تنحنى السماء بكل نجومها نحونا وتجعلنا
هاهنا نتدلى لنُشرِفَ على مصيرنا الغائم.

عبثا، من ينتبه إلى المصير الغائم؟ وحتى لو
رآه أحد، من يجرؤ على أن يتكئ بجبينه
على الليل كما قد يتكئ على نافذة غرفة النوم؟
من لم يُنكِره؟ من لم يُقحم فى هذا العنصر الفطرى
الصافى ليالىَ مزيفةً ومغشوشة، لياليَ مبهرجة،
فكان راضيا (ما أيسر رضاه!) مكتفيا بتلك الليالى؟
نتجاهل الآلهة و نملأ أذهاننا بالنفايات؛
فالآلهة لا تُغرى.. للآلهة وجودها
ولاشىء غيرُ وجودها: فيض من وجود،
لا رائحة ولا حركة، ليس ثمة ما هو أخرس
من فم إله، و لأن الإله جميل جمال طائر بجع
يطفو على أبدية مظهره الذى لا يسبر غوره،
فإنه ينزلق منسابا ثم يغوص فيُنقِذُ بياضَه.

كل شىء يُغرى، حتى الطائرُ الصغير، الطائر المحجوب
وسط الأوراق الصافية، يستطيع أن يأسِرنا؛
الزهرة تحتاج فسحة لتستطيع شق طريقها،

ما الذى لا تستطيع الريح أن تبسط عليه سلطانها؟
وحدَه الربُّ، الربُّ الشبيهُ بالعمود، يسمح لنا بالمرور،
مُوَزِّعا على الجانبين ـ فى الأعالى التى يسنُدها ـ
القوسَ الخفيف، قوس اتزانه.

خلف الأشجار البريئة

خلف الأشجار البريئة
يُشكِّل القدرُ العجوز وجهَه
الصامتَ المُصمت،
وجه تتحرك فوقه الغضون...
كلما صرخ هنا طائرٌ مذعور
تَشقَّقَ هناك أخدود ألم
على الفم المتنبئ الناشز.

وهؤلاء المقبلون قريبا على العشق
يبتسمون وهم لما يعرفوا الفراق؛
وفوقهم يخيم قدرهُم ويعلو
كأنه مجرة،
مجرةٌ هيَّجها الليل.

قدرٌ لم يهب بعدُ نفسَه لهم؛

قدرٌ يظل

شكلاً أثيريا

يطوف محلقا فى مسالك السماء.

الليل الأعظم

طالما حدقتُ فيكَ مستغربا: وقفتُ منذ الأمس
عند النافذة، وقفتُ وحدقت فيك مستغربا،
وكانتْ المدينة الجديدة ما تزال تبدو محرمة عليَّ،
وأمعن المنظرُ الطبيعى العنيد فى الظلام حتى غاب،
حتى أقرب الأشياء
لم يكن يهمها أن أفهمها، كان الشارع
يندفع نحو عمود النور: أدركتُ أننى لستُ فى بلدى،
وهناك ـ غرفةٌ أُدرِكُها واضحةً فى نور المصباح ـ
هاقد شاركْتُهم، فطنوا فأغلقوا النافذة،
وقفتُ، بدأ طفلٌ صراخَه، كنت أعرفُ ما يمكن
أن تفعله الأمهات فى البيوت، فى كل مكان ـ
وكنتُ أعرفُ دواعى الدموع التى لا عزاء لها،
وربما سمعتُ صوتَ امرأة يتجاوز قليلا توقعاتى،

أو شيخا بالطابق السفلى تنبعث منه سعلةٌ
يملأها اللوم، فكأن جسدَه كان محقا، وكأن
العالمَ الرفيقَ كان مخطئا، ثم دقتْ الساعة ـ
لكننى تأخرتُ فى العَدِّ فمضتْ منى منفلتة،
مثل تلميذ جديد بالمدرسة، سُمح له بالمشاركة أخيرا،
لكنه لا يستطيع أن يتلقف الكرة، كان عاجزا فى كل
الألعاب التى يمارسها غيره بسهولة، يقف هناك محملقا
فى الأفق ـ يحملق أين؟ وقفتُ هناك وأدركتُ فجأة
أن ذلك التلميذ لم يكن إلا أنت: كنتَ تلعب معى، أيها الليل
البالغ، وكنتُ أنا أحدق فيك مستغربا، حيث كانت القلاع
تتميز من الغيظ، حيث أحاطـتْنى مدينةٌ بقَدَر مُحبَط،
واحتشدتْ ضدى جبالٌ لا سبيل لحل ألغازها، وطافتْ
الغرابةُ، فى دوائر متضايقة، حول أحاسيسى الخافقة ـ
آنئذ لم تكن، مع كل عظمتك، تحس بالعار لأنكَ عرفتنى،
كان نَفَسك يهف بحنان على وجهى، و إذ انفرجتْ
عبر المسافات الوقورة بسمتُك، ولجتْ فؤادى.

الــــذروة

الطريق من الانفعال إلى العظمة يمر عبر التضحية. ـ Kassner

منذ أمد طويل نالها بالنظر،
كانت النجومُ تركع
تحت رؤيته المتحكمة،
أو كان عطره الملحاح ـ
وهو يواصل النظر راكعا ـ
يرهق إلها من الآلهة حتى
يبتسم له ذلك الإله وهو يغالب النوم.

كان يحدق فى الأبراج
حتى تغمرَها الرهبة:
فينشئها ثانية فجأة فى رمشة عين!
لكن كم كان المنظر الطبيعى،

وقد أرهقه النهار،
يأتى ليلا ليستريح فى وعيه الصامت.

كانت الحيوانات تأمنه، تقتحم
نظرته المحدقة؛
وكانت الأسود المحبوسة
تحدق كأنما تتفرس فى حرية غير مفهومة؛
وإذ تحس بنظرته الطيورُ، تحلق متهورة
لتعبرها؛ والزهورُ ـ هائلة كما تبدو للأطفال ـ
كانت تستجيب وتتمادى فى التحديق فى نظرته.

والإشاعة التى راجتْ بأن ثمة من
يعرف كيف ينظر،
أثارتْ تلك المخلوقات
التى كانت أقل وضوحا:
أثارتْ النساء.

ما مدى نظرته؟
ما مدى عمق حرمانه،
وهو يتوسل فى أعماق نظرته؟

حين جلس ـ وهو الذى كان الانتظارُ مهنتَه ـ بعيدا عن موطنه، كانتْ غرفةُ الفندق الشاردة كئيبة حوله، وانعكستْ الغرفةُ ثانية فى المرآة التى تحاشى النظر إليها، وبعد ذلك انعكس السريرُ المُضنى مرة أخرى:
ثم ناقشت قلبَه أصواتٌ فى الفضاء ـ
مناقشة تستعصى على فهمه ـ
ناقشت قلبَه الذى كان ما يزال بوسعه أن يحس به
فى جسده المدفون المتألم ـ تداولتْ الأصواتُ قلبَه
ثم أصدرتْ، بعد المداولة، حكمَها:
القلبُ خال من الحب.

(قررتْ أن تُحرمه من أى صِلاتٍ حميمة أخرى)
فثمة، كما ترى، حدٌّ للنظر،

والكونُ الذى يُنظَر إليه بعمق
يريد أن يُزهر عشقا.

هاقد أُنجِزَ عملُ العين، فامض الآن
وأنجزْ عملَ القلب،
مارِسْهُ على كل الصور المسجونة بباطنك؛ فأنت إنما
أخضعتَها: ولكنك إلى الآن لا تعرفها،
تَعَلَّمْ أيها الرجل الباطنى أن تنظر إلى امرأتك الباطنية،
تلك التى انتُـزِعتْ بالكَدِّ من طبائع كثيرة، تَعَلَّمْ أن تنظر إلى
تلك الهيئة التى انتُـزِعتْ فقط، لكنها لـم تصبح معشوقةً بعد.

لابد أن نهلِك لأننا عرفناهن

(ورق بردى، من حِكم بتاه حوتب، مخطوط يرجع تاريخه تقريبا إلى الألفية الثانية قبل الميلاد)

"لابد أن نهلِك لأننا عرفناهن،" نهلِكَ
من الزهرة التى لا تُنطَق، زهرةِ بسمتهن، نهلِكَ
من رقة أيديهن، نهلِكَ
من النسوة.

دع الفتى يغنى عنهن، دعه يتغزل
بهؤلاء المُهلكات المتعاليات،
حين يَجُبْنَ فؤاده،
من صميم قلبه المُزهر

دعه يُنشدهن:
لا سبيل إلى بلوغهن! آه، يا لبعدهن!
فوق قمم
أحاسيسه يحلقن ويهطلن
ليلةً سامية على الوادى المهجور،
وادى ساعديه، ريحُ قيامتهن تعزف الحفيف
على أوراق أجسادهن، غدرانه تترقرق براًقة
نحو الأفق البعيد.

لكن الرجل البالغ
يرتعش صامتا، الرجل الذي
كان بالليل شاردا
فى جبال أحاسيسه
يصمت الآن.

يصمتُ البحَّارُ العجوز
وتعزف بداخله الأهوال التى كابدها
كأنها تعزف فى أقفاص مهتزة.

إلى هلدرلين

لا يحق لنا أن نتلكأ حتى مع ما هو أقرب إلينا،
من صور مكتملة، تنقذف الروح
إلى صور ينبغى أن تكتمل؛
ليس ثمة بحيرات قبل الأبدية،
هنا، أفضل ما يكمن هو السقوط؛ أن تسقط من
إحساس تتحكم فيه نحو إحساس تخمنه، ثم تواصل.

لديك أيها الشاعر العظيم، لديك، يا طارح الرقيات،
كانت الصورة الجبارة حياةً كاملة؛ وحين نطقتَها
انغلق/ اكتمل بيت كأنه القدر، كان ثمة موت ما
حتى فى ألطف صورك، كنت أنت تغشاه،
لكن الرب الذى كان يتقدمك كان يجعلك تتجاوزه.

أيتها الروح الشاردة، يا أشد الأرواح شرودا!
لكم يعيش غيرك مرتاحا فى قصائده الدافئة
راضيا أبدا فى تشبيهاته الضيقة، المشاركة؛
أما أنت فلم تكن تتحرك إلا مثل القمر،
وتحته يومض المشهد الليلى، المشهد المقدس، المشهد الرهيب الذى
كنتَ تُحسه فى كل رحيل، لا أحد وهب ذلك المشهد بسمو
أكثر من سموك، لا أحد أعاده كما أعدتَه أنت إلى الكون
مكتملا، دون أدنى حاجة إلى التشبث به.
كذا عبثتَ لسنوات لم تعد تحصيها، عبثتَ مقدّسا بالبهجة الأبدية،
كأنها لم تكن بباطنك بل كانت متناثرة ـ لا مالك لها ـ فوق
مروج الأرض الوديعة حيث تركها أطفال يشبهون الآلهة،
آه، ما تاق إليه العظماء شيدته أنت، دونما شهوة، حجرا فوق
حجر حتى غدا شامخا. ولم تصبك الحيرة حتى حين انهار.

لماذا نظل ـ بعد حياة بهذا الخلود ـ نشك فى
كل ما هو دنيوى؟ بدلا من أن نتعلم فى أناة من الزوال
إحساسا بما يُستقبَل، فى الفضاء المحض، من تلال الفؤاد؟

أنت التي ما وصلتِ قط

أنت التي ما وصلتِ قط
ولا تلقتْك ذراعاى، أيتها الحبيبة،
يا من فقدتك منذ البداية،
لستُ أدرى حتى أيًّ الأغانى تُطربك، هاقد توقفتُ
عن السعى إلى أن أميزك فى الموجة المتعالية،
موجة اللحظة الآتية، كل الصور الهائلة فى باطنى:
المشهدُ النائى الذى أحس به فى أعماقى،
المدن، الأبراج، الجسور، المنعطفات المباغتة
فى الطريق،
وتلك البلاد العتيدة التى كانت
فيما مضى تنبض بحياة الآلهة ـ
كلها تتجلى فى باطنى لتدلَّ عليكِ،
يا من تتملصين أبدا منى.

أنت، حبيبتى، يا كل الحدائق
التى طالما حملقتُ فيها مشتاقا،
نافذةٌ مفتوحة فى بيت ريفى،
وكدت أن تخرجيى، شاردةً، كى تُلاقينى،
شوارعَ صادفتُها،
كنتِ قد مررتِ للتو منها ثم تواريت،
وأحيانا كانت المرايا، فى المتاجر، ما تزال
مبهورة بحضورك، ولأنها كانت مبهوتة
فقد عكستْ صورتى المباغتة، من يدرى؟
لعل نفس الطائر تردد بالأمس صداه فى أعماقنا،
تردد فى المساء منفصلا فى أعماقنا.

أنت. أنت وحدك. موجودة

أنت، أنت وحدك، موجودة،
نفنى إلى أن يصبح، فى النهاية،
فناؤُنا هائلا
فتقومين: أيتها اللحظة الجميلة،
فى كل اندفاعك،
تنشئين فى العشق، أو مسحورةً
فى انحسار العمل.

إليك أنتمى، مهما ينهكنى
الزمن، منك إليك
أمضى مأمورا، وفى الطريق
منك إليك يتدلى إكليل الزهر عرضا؛
لكن إن تأخذيه وترفعيه عاليا عاليا فانظري:
كل شيء يصير مهرجانا.

هايكو

الفراشاتُ الصغيرة تُقبل من سياج الأشجار تترنح وترتعش؛
ستهلك الليلة، ولن تعلم أبدا
أن الموسم لم يكن ربيعا.

قصائد متفرقة (١٩٢٢ - ١٩٢٦)

نحن فى الليالى المكافحة

نحن فى الليالى المكافحة نظل،
نسقط من قرب إلى قرب؛
حيث المرأة العاشقة قطرة طل،
نحن حجرة ساقطة.

أوديت ر....

أيتها الدمعات ـ يا أشد الدموع توهجا ـ ثُورى!

آه حين تتجلى حياة ما
و تتساقط من غيوم فؤادها
المُـغـتَـم: نسمى ذلك المطر موتا،
لكن الإحساس بها يشتد، فتبدو (لنا فى فقرنا)
أغلى وتبدو (لنا فى ثرائنا) تلك التربةَ الرطبة الغريبة.

ننطق الخلاص والألق والورود

ننطق الخلاص والألق والورود،
فترجِّع الأصداءَ كلُّ الأشياء،
لكن وراء العالم الذى تحده أسماءٌ نسميها
ثمة ما لا يُسمَّى: أصلنا وموطننا.

تبدو الشمس ذكرا، وتبدو الأرض امرأة،
يبدو الحقل متواضعا، وتبدو الغابة مغرورة؛
لكن فوق كل ما نسميه من أسماء
ثمة الرب الذى لا يتعين أبدا.

نحن نكبر، لكن العالم يظل طفلا.
النجمة والزهرة الصامتتان ترقباننا ونحن نمضى،
ونبدو أحيانا ذلك الامتحانَ الذى لابد
أن تجتازه النجمة والزهرة؛ فتفعلان.

ما تغوص فيه الطيور ليس بالفضاء الحميم

ما تغوص فيه الطيورُ ليس بالفضاء الحميم
الذى تَرى فيه كل الأشكال مُكثَّفة،
(هناك فى العراء، ستُنكَرُ عليك ذاتُك،
فتختفى فى تلك الرحابة).

الفضاء يمتد بدءا منا ثم يُؤوِّل العالم:
لكى تعرف شجرة، تعرفَها فى عنصرها الحق،
ألقِ بالفضاء الباطنى حولها، ألقه من تلك الغزارة
المحض، تلك الغزارة الكامنة فيك. أحطها بالقيد،
لا حدود لها، قبل أن تُعتقَل
فى إنكارك، لن تكون حقا موجودة هناك.

دوام الطفولة

(إلى E.M)

أماسى الطفولة الطويلةُ...، لم تتحقق الحياةُ الحقُّ بعد،
ما يزال الزمن مجردَ زمن نامٍ يحبو،
زمنِ الانتظار الأعزل،
وبين ما يمكن أن نصيره
وهذا الوجودُ الذى لا حدود له: أصنافُ موت،
لا حصر لها، والحبُّ: ذلك المتملكُ، يحيط
بالطفل الذى يتعرض أبدا للخيانة فى الخفاء،
ويَعِدُ بأن يهبه للمستقبل، لمستقبلٍ ليس مستقبلَه.

أماسيَ قضاها وحيدا، يحملق
فى مرآة بعد مرآة ؛ يُربك نفسَه بلغزِ اسمه:
من؟ من؟ لكن الآخرين يعودون إلى البيت،

يُربكونه.

ما أسرَّتْه إليه بالأمس النافذةُ، أو الطريق

أو رائحة العطن فى الخزانة: يُغرقونه الآن ويُحطمونه،

إليهم كان يوما ينتمى،

وكما تمرُق الفروعُ أحيانا عن الشجيرات

الكثيفة، ستمرق شهوتُه عن شجرة العائلة

المتشابكة، وتتدلى هناك متمايلةً فى الضياء،

لكنهم سيجعلون نظرتَه إلى جدرانهم المسكونة كليلة ـ

تلك النظرةَ البريئة الواسعة التى تسمح للكلاب بالدخول

وتجعل الزهورَ الطويلة

ساكنةً يكاد بعضها يواجه بعضا.

آه يا لبُعد المسافة

بين هذا المخلوق المحروس وكلِّ ما سيكون يوما

مبعثَ دهشة له أو دمار،

قدرتُه اليافعة

تتعلم المكرَ وسط الشِّراك،

لكن مجموعة نجوم

عشقه المقبل كانت تدور منذ

أمدٍ طويل وسط النجوم، أىُّ رهبة

ستنتزع قلبَه من درب أحاسيسه

لتُخضعه مستسلما لنفوذ

السماوات الهادئ؟

الكونُ تجلى فى وجه الحبيب

الكونُ تجلى فى وجه الحبيب،
لكنه انسكب فجأة ثم غاب:
الكون الآن فى الخارج، لا يمكن أن يُمسَك.

لماذا لم أشرب من الوجه الملىء الحبيب،
وأنا أرفعه نحو شفتى، لماذا لم أشرب الكونَ؛
قريبا، قريبا منى كان، وكان بوسعى أن أذوقه؟

آه شربتُ، شربتُ ولم أرتو،
لكننى كنتُ مترعا بالكون إلى حد الإفراط
فغمرتُ نفسى وأنا أشرب.

راحة اليد

باطن اليد، أخمص قدم يدوس
المشاعر فقط، يواجه الأعلى
وفى مرآته
يتلقى طرقا سماوية تسافر
عبر ذاتها،
تعلَّم أن يمشى فوق الماء
حين يغرفه،
يمشى على الآبار،
ويُغَيِّرُ شكلَ كل طريق،
يقتحم أيديا أخرى
فيُحيل تلك الأيدى التى تشبهه
منظرا طبيعيا:
يتوه فَيَصِلُ فى ثناياها،
يملأها بالوصول.

جاذبية الأرض

أيها المركز، لكم تسحب نفسَك بعيدا عن
كل الكائنات، تستعيد نفسَك حتى من
تلك التى تطير، يا مركزا لا يقاوم.

من يتوقف تَغُصْ فى أعماقه جاذبية
الأرض كمشروب أثناء العطش.

لكن مِنَ النائم يتساقط
(كما يتساقط من غمامة ساكنة)
مطرُ الجاذبية الغزير.

الضريح

قلب الملك، قلب الشجرة الباسقة،
الشجرةِ الحاكمة، ثمرة البلسم،
قلب الجوز الذهبيُّ، جرة الأفيون
في وسط الضريح المركزي
(حيث يتردد الصدى،
كأنه شظية صمت،
شظية تتردد حين تقوم بحركة
لأن بوسعك أن تُحس
بأن وقفتك كانت إلى حد ما
أشد صخبا مما يجوز ...)،
مُبعَدا عن الأمم،
ميالا إلى النجوم،

يدور قلب الملك
في مجرته الخفية،
أين غاب،
قلب الحبيبة
الحنون؟
بسمة من الخارج
موضوعة على الاستدارة
المحتشمة للفواكه البهيجة؛
أو لعلها رهافة
الفراشة، جناحُ الضباب، المِجَسُّ...

لكن أين القلب
الذي غناهما معا فتوحدا،
أين قلبُ الشاعر؟
الريح،
الخفية،
باطن الريح.

أيتها الباكية

(ثلاثية مهداة إلى موسيقى مقبلة لـ Ernst Krenek)

I

أيها الجسد المترع دموعا، أيتها المنقبضة
فوق فضاء حزنها كأنها سماء مكبوتة،
وحين تبكي تتساقط قطرات المطر الرقيقة،
تتساقط مائلة فوق الرمال في قرار قلبها.

آه، أيتها المثقلة بالدموع، يا ميزانا يزن كل العَبَرات،
يا من لم تحس بأنها سماء، لأنها كانت مشرقة،
أما السماء فلم توجد إلا كي تتشكل فيها الغيوم.

•

يا لصفائها! يا لقربها! أرضِ حزنك،
تحت وحدة السماء الصارمة، كوجه

يرقد هناك، يستيقظ ببطء ويفكر
أفقيا فى أعماق لا نهاية لها.

II

الفضاء، ليس إلا نَفَسا،
وذلك الاكتمال الأخضر
للأشجار المزهرة نَفَسٌ،
نحن الذين ما يزال يُنفَخ فينا،
ما يزال إلى الآن يُنفَخ فينا، نحصي
هذا النفس البطىء، نفسَ الأرض
التى نحن سرعتها.

III

آه، لكن فصول الشتاء! انسحابُ الأرض
الغريبُ نحو ذاتها. حيث تُستَجمع الجرأة،
جرأةُ مواسم الربيع المقبلة،

حول الموتى فى الانحسار التام،
انحسارِ النسغ،
حيث يَرِدُ الخيال
تحت ما هو صلب؛ حيث تبهت كل
الألوان الخضراء بحلول مواسم الصيف الواسعة
فيتحول مرة أخرى إلى فِراسة جديدة
ومرآةُ الحدس
حيث ينسى لونُ الزهور
كلَّ ذلك الاتئاد المقيم فى عيوننا.

وثـــن

إلهُ أو إلهة نومِ القطط،
يتذوق الألوهية التى تعصر
فى ظلام الدَّن توتَ العيون، ناضجا،
فتحيله رحيقَ الرؤية العذب،
تحيله نورا خالدا فى قبو حاسة الذوق.
ليس تنويمة، إنه الجرَس! الجرَس!
ما يأسرِ آلهةً أخرى
يُمَكِّن هذا الإلهَ الأمكر من الفرار
إلى سلطته المتراجعة أبدا.

جرَس

لم تعدْ موجها إلى الآذان ... أيها الصوت
الشبيه بأذن عميقة تسمعنا،
تسمعنا نحن الذين نبدو كأننا
نسمع، يا نَقضَ كلٍّ فضاء،
يا إسقاطَ أشدِّ العوالم حميمية
على العراء... يا مَعبدا مشيدا
قبل ميلادهم، ويا محلولا
مشبعا بآلهة
تكاد لا تنحل... : يا جرَسُ!

يا خلاصةَ كل صمت
يعترف لذاته بذاته،
أيها التحول الباطنى المُرعد،

تحولُ ذاك الذى أصيب فى ذاته بالبكم،
يا دَوَاما اعتُصر من الزمن العابر،
يا نجما أُذيبَ ثانيةَ... : يا جرسُ!

أنت يا من لا ينساك المرء أبدا،
يا مُنجبا فى الفقد ذاتَه،
يا مهرجانا لم يعد يُفهَم،
يا خمرةً فوق شفاه لا تُرى،
يا عاصفةً تحل بالعمود الداعم،
يا تخبطَ التائه على الطريق،
يا خيانتنا، لكل شىء... يا جرسُ!

إلـى Veronica Erdman

لكي تصبح مثلَ هذه الرسالة رسالتُنا،
أيَّ طاعة نبذل، أيَّ بهجة ننال،
بين سطورنا تغني الأرض معنا
ومن الصخَب إلى النغم تجرفنا.

أو هو التعارض الذي لا بد أن يدفعنا
إلى خلق شيء حقيقي؟
هل الحب قتل بلا سكين؟
وهل الأغنية أكثر الأنواع عرضة للانقراض؟

مرثـــاة

إلى Marina Tsvetayeva-Efron

آه، يا للخسارة فى الكل، يا **مارينا**، فى كل النجوم المتهاوية!
حيثما قذفنا أنفسنا، أيا كان النجم الذى نقصده،
لن نستطيع أن نجعلها أكبر! كلُّ الأشياء فى الغيب معدودة،
وحين يهوى أيٌّ منها، لا يتناقص المجموع الكامل،
من يستسلم لسقوطه، يغص فى المنبع فيُعافى،
هل الحياة إذن لعبة، تموجٌ عبثى للرتابة،
ليس بها اسم، ولا إنجاز باق فى أى مكان؟
يا أمواج، يا **مارينا**، نحن المحيط! يا أعماق، يا **مارينا**، نحن السماء.
يا أرض، يا **مارينا**، نحن الأرض؛ يا ألف نيسان، كطيور
تقذفها فى قمم لا ترى أغنيةٌ تنبعث منها،
نبدأها بهجةً، فتتجاوزنا تماما؛ وطأةُ وزننا ترهق
الأغنيةَ بغتة فتُحيلها مناحة،

لكن أليست المناحة حقا بهجة مُخيِّمة، بهجة أشد فتوة؟
حتى الآلهة السفلى تُريد أن تُمجَّد، **يا مارينا**،
الآلهة فى منتهى البراءة: كالأطفال تُصدِّق المديح،
دعينا، أيتها الغالية، نُغدق المديحَ حين نُمجِّد.
فلسنا نملك حقا أى شيء. وضعنا أيدينا برفق حول
أعناق زهور لم تُقطف. رأيت ذلك فى النيل، فى **كوم أمبو**.
كذلك تماما، **يا مارينا**، يقدم الملوكُ الهبات التى يتخلون عنها،
وكما ترسم الملائكة علاماتٍ على أبواب أولئك الموعودين بالنجاة،
نتوقف نحن، مع أننا نبدو مشفقين، نتوقف ونلمِس هذا أو ذلك،
آه لكم غدونا منعزلين، غافلين، يا مارينا، حتى فى أشد دعاوانا حميمية.
منذرون نحن: لسنا سوى منذرين؛
هذا الوصال الصامت، حين ترغب الحياة
عن أن تتحمل واحدا منا،حينما تعتقله فى قبضتها،
تنتقم لنفسها، تقتل؛ فقدرة قوتها على القتل
كانت بينةً لنا جميعا فى رهافتها وتحفظها وفى قوتها
الغريبة التى تُحيلنا من كائنات حية

إلى مجرد ناجين. (إنه) العدم، أتذكرين كم كان مجرد
أمر أعمى يحملنا عبر غرفة الانتظار الباردة،
غرفة ميلاد جديد؟ ... نحن؟ جسدٌ من عيون
تحت أجفان لا تُحصى، عيونٍ رافضة، جسدٌ حمل
القلبَ الذى أودع فى صدورنا، قلبَ جيل بأكمله،
نحو هدف منشود كالجنوب تقصده الطيور المهاجرة،
حمل الصورة والخطة المتساميتين، صورةَ وخطةَ تحوُّلنا،
العشاقُ لم يكن يُسمح لهم، يا **مارينا**، ولا يسمح لهم الآنَ أن يعرفوا
الدمارَ معرفة عميقة، كان لا بد أن يكونوا كأنهم قد وُلدوا حديثا،
قبرهم وحده هو القديم، هو وحده الذى يتأمل ويُظَلم
تحت الشجرة المنتحبة، متذكرا كلَّ ما كان،
قبرهم وحده ينهار؛ فهم فى مرونة أعواد القصب:
ما يثنيهم إلى أقصى حد يجعل منهم أكاليل نضرة مستديرة،
لكم يَهفُّون فى ريح أيار! من صميم الأبد،
الذى تنفخين فيه وتحدسين، فقد أقصتهم اللحظة إلى الخارج،
(لكم أفهمكِ أيتها الوردة الأنثى، يا من تقفين على نفس الساق،
على ساق لا تفنى، لكم أنثر نفسى جامحا فى نسيم الليل

الذى سيلمسك قريبا)، الآلهة تعلمت

منذ القـدم أن تُفَكِّك الأنـصاف، نـحن ـ المنجـذبين إلى الدورة الموسمية ـ

ملأنا أنفسنا من الكل، كقرص القمر،

حتى فى فترة الأفول، فى أسابيع تغيُّرنا التدريجى،

ليس بوسع أى شىء أبدا أن يساعدنا كى نكتمل،

لا شىء غير سيرنا المتوحد على طريق لا نوم فيها.

الحمامة التى جازفتْ بالخروج

(إلى Erika، امتنانا لمهرجان المديح)

الحمامة التى جازفتْ بالخروج،
طائرةً من برج الحمام:
أُويتْ وحُميتْ مرة أخرى
متصالحة مع النهار، والليل
تعرف ما السكينة،
فقد أحست بجناحيها
يعبران كل المسافة والخوف
أثناء شرودها
الحمامة التى لم تغادر المأوى،
لم تتعرض قط للفقد
بريئة وآمنة،
لن تعرف الحنان

وحـــده الـقلبُ المُـســـتـــرَدُّ
يمـكــن أن يُـرضَـى: يـحــق لـه
جــزاءَ كـلٍّ مــا ضـــحى به،
أن يـنـعـم فـى ســــــــره
الوجـــودُ يمد ذاتَـه جـــســرا
فـــوق الهـــاوية الـعظيـــمـــة
آه، الكرة الـتى تَحَـــدَّيْنَهـــا،
تلك التى قـذفنا بهـا فى الفضـاء
اللامتناهى،
لا تمـلأ بِعَـــــــوْدتـهــــا
أيديـنا بـشكـل مـــخــتـلف
ثـــقـــلُ المـــكـــان الـــذى
كـــانتْ به يـجــعلـهــا أثـقل.

وحيد القرن

الناسكُ الورع توقف فجأة أثناء صلاته
ورفع عينيه ليرى ما لا يُصدَّق:
فأمامه هناك وقف الكائنُ الخرافي
ذو اللون الأبيض المنذر، كان قد اقترب
خلسة، وهاهو الآن يتضرع بعينيه.

كانت السيقان الرشيقة تدعم
جسدا صيغ من عاج رفيع، وكانت
عباءتُه ـ وهو يمشى ـ تعكس نورَ القمر،
فى أعلى الجبين تعالى القرنُ الساحر، رمزُ فرادته،
برجٌ أقامتْه مِشيتُه المتحفزة، مع أنها حيية ناعمة.

فمٌ تتناغم فيه أنعم الظلال ورديةً ورمادية،

يتكشف، حين يفتر قليلا، عن أسنانه اللامعة،
بياضها يفوق بياض الثلج؛ ارتعش المنخران قليلا:
كان يسعى إلى أن يروى ظمأه، أن يرتاح فتقر عيناه،
عيناه كانتا تنظران إلى ما وراء خَلوة القديس،
تعكسان آفاقا وأحداثا غابرة،
فيهما تكتمل دائرةُ هذه الخرافة السرية العريقة.

أى الحقول فى عبق يديك؟

أى الحقول فى عبق يديك؟
أنتِ تحسين كيف تُوقفُ مقاومتُك
الأقوى العبقَ المنبعث من الخارج،
النجوم تتوقف فى الأعالى صورا،
هاتى ثغرك أرويه، حبيبتى؛
شعركِ، آه، شعركِ متراخ خامل.

انظرى، أشتهى أن أحيطكِ بنفسك
وأرفع التطلعَ الباهت
عن أطراف حواجبك،
من أجلك أشتهى أن أحجُب ـ
كما يحجب باطنُ الجفون ـ كلَّ ما
يُرى، أن أحجبه الآن بلمساتى الحنون.

نزهـــة

عيناى قد لمستا التلَّ المشمس،
ومضيتُ بعيدا فى الطريق الذى بدأته،
هكذا ينالنا ذلك الذى لا نستطيع أن نناله؛
فله نور باطنى، يُدرَك حتى من بعيد ـ

ويعبئنا حتى إن لم نبلغه،
ويجعل منا شيئا آخر نكاد لا نحسه،
شيئا سبق أن كناه؛ تُحيينا إيماءةٌ ردا لتحيتنا...
لكن ما نحسه هو الريح على وجوهنا.

الانتظار

إنه الحياة بحركة بطيئة،
إنه القلب مقلوبا،
إنه أمل ونصف،
إنه الإفراط والتفريط فى نفس الآن.

إنه قطار يتوقف
فجأة دون أن تكون ثمة محطة،
وبوسعنا أن نسمع صرصار الليل،
وإذ نطل مستندين على باب العربة،

نتأمل دون جدوى
ريحا نُحِسُّ أنها تحرِّك
المروج المَزهرة،
المروجَ التى يجعلها هذا التوقفُ وهمية.

يُسْلَى قبل النوم

أشتهى أن أنوِّم شخصا ما بالغناء،
أن أجلس بجانب شخص ما وأكون معه،
أشتهى أن أهدهدك فى المهد وأترنم بصوت رخيم،
أن أكون لك رفيقا فى النوم واليقظة،
أشتهى أن أكون فى البيت الشخص الوحيد
الذى يعلم أن الليل بارد خارج البيت،
وأشتهى أن أنصت إليك
وأنصت إلى الكون والغابات فى الخارج.

الساعات تدق، تتنادى تستنادى،
وبوسع البصر أن يبلغ حافة الأبدية،
يسير خارج البيت رجلٌ غريب
فينبح كلب غريب أُوقِظ من نومه،

ووراء كل ذلك، الصمت.

عيناى المفتوحتان تستقران على وجهك،
تُمسكانك برفق، وتتركانك
حين يتحرك شىء ما فى الظلام.

إخباركم بكل شيء

إخباركم بكل شيء يقتضى وقتا طويلا،
ونحن نقرأ فى الكتاب المقدس
كيف يكون الخير مؤذيا
وكيف تكون المصائب خيرا.

لنستحضر شيئا جديدا
بتوحيد صمتنا؛
فإن توفقنا
عرفنا ذلك فورا.

ولكن باقتراب المساء،
حين تكون ذاكرته مثابرة،
تجعله طرافةٌ متأخرة

يتوقف أمام المرآة.

لا ندرى هل هو مرعوب،
لكنه يظل هناك مستغرقا،
وإذ يواجه ما تعكسه المرآة،
ينقل نفسه إلى مكان آخر.

أغنية البحر

نسماتِ البحر الأبدية،
يا ريح الليل البحرية:
تقبلين دون أن تقصدى أحدا؛
من يُفق فعليه
أن يكون مستعدا
كى ينجو منك.

نسماتِ البحر الأبدية،
يا من تهبين على الصخور العتيقة
لآلاف العصور،
أنت الفضاء الخالص
مقبلا من مجاهيل بعيدة...

آه، كم تحس قدومَك
شجرةُ تين مثقلةٌ بالثمار
تنمو على التل تحت نور القمر.

هاجس

أنا شبيه بعلم وسط الخلاء.
أحس ريحا قادمة عليَّ أن أتحملها،
الأشياء حولى مازالت ثابتة:
مازالتْ الأبواب تُغلَق برفق، والمداخن يغمرها الصمت،
النوافذُ لما تتحرك، والغبار لم يعل بعد.

أما أنا فعلى علم سابق بالعاصفة، وأنا كالبحر مضطرب،
أثب وأرتد هاويا، وألقى بنفسى فى الفضاء،
أنا وحيد.. وحيد فى العاصفة العظيمة.

الليل

هذا الليل خَضَّتْه العاصفة المتعالية،
كم مددت مَدَّدَتْ أبعاده بغتة؛
كان ممكنا أن يمضى كالعادة دون أن يثير أيَّ انتباه،
كأنه قطعة ثوب طويتْ تم أخفيت فى ثنايا الزمن.

ليل لا يتوقف عند النجوم التى تقاومه،
ولا يبدأ فى أعماق الغابة،
ولا يتجلى على صفحة وجهى،
لا ولا على طلعتك.

تظل المصابيح متمايلة فى غفلتها:
فهل يكذب نورُنا؟
هل الليل هو الواقع الوحيد
الذى دام لآلاف السنين؟

الليل

أيها الليل، يا من يُحلق هدوءه الذائب
فى العمق حائما حول وجهى،
يا أثقل وزن يوازي
تأملاتى الصاعقة.

ليل يرتعش إذ ينعكس فى عينىّ،
لكنه قوى فى ذاته؛
إنه خلق لا ينضب، سائدٌ،
دوامُه يفوق دوام الأرض.

ليل غامر بنجوم محدثة،
نجومٍ تترك آثارا من نار تتدفق من حواشيه
وهى تحلق فى الفضاء فى مغامرة صامتة بين النجوم:

كم أبدو ضئيلا أمام عظمتك المحيطة، لكننى أجرؤ على اقتحامك لأننى متصالح مع الأرض التى يزداد أبدا ظلامها.

المضى قدما

الأجزاء العميقة من حياتى تواصل التدفق،
كأن ضفاف النهر تمعن فى الاتساع،
يبدو أن الأشياء قريبة الشبه بى،
وأن إدراكى لللَّوحات صار الآن أعمق،
أُحِسُّنى أقربَ إلى ما لا تبلُغه اللغة،
من السنديانة أتسلق بحواسى سماوات
تلهو فيها الريح، كأنى رفيق الطيور؛
ويغرق سقوطى ـ كأننى واقف على الأسماك ـ
فى برك اقتُطعتْ من السماء.

العشاء الأخير[1]

هاهم قد اجتمعوا حوله مندهشين قلقين،
وهو الذى بدا مثل حكيم قرر مصير نفسه؛
هاهو الآن يرحل عن من كان إليهم قريبا،
يمر بهم ويرحل عنهم كأنه غريب،
تداهمه عزلةُ الماضى التى أنضجته
فصار قادرا على أفعاله الحاسمة؛
الآن سيمشى ثانية عبر بستان الزيتون،
لكن من يحبونه سيفرون منه.

إلى هذا العشاء الأخير دعاهم،
و(كقذيفة تُفزع الطير فيفر من الأشجار)

١. كتبها الشاعر فى **ميلانو** سنة ١٩٠٤ إثر رؤيته للوحة **ليوناردو دافنتشى** "العشاء الأخير".

تتراجع أيديهم عن الأرغفة فوق
كلمته: يطيرون عبرها نحوه؛
مذعورين تخفق أجنحتهم حول مائدة العشاء،
وهم يبحثون عن مفر، لكنه حاضر
في كل مكان كأنه ساعة غسق مخيمة.

فــراق

لكم عانيت ذلك الذى يسمونه "الفراق"،
وما زلتُ أعانيه: فهو قاس، قاتم، لا سبيل إلى
قهره، وبه يُعرَض ما هو ملتحم،
يُشهَر مرة أخرى قبل أن يُمزَّق.

بأى نظرة عزلاء وقفتُ أنظر إلى ذلك
الذى ظل هناك، إذ تركنى أمضى وهو
ينادينى، فكأنه كان الأنوثة كلها، لكنه
كان أبيض ضئيلا؛ لم يكن، آه، إلا

تلويحا، لا صلة له بى الآن،
تلويحا ضئيلا متواصلا، لا يكاد
الآن يُفهَم: لعله غصن شجرة برقوق
غادره للتو طائر وقواق كان عليه جاثما.

رحيل الابن الضال

أن نرحل الآن عن كل هذا التهافت،
الذى هو تهافتنا، ولكننا لا نستطيع أن نصادره،
هذا الذى يعكس، كأنه الينابيع، مظهرنا،
يعكسه هيئةً ترتعش حدودُها ثم تتلاشى؛
أن نرحل عن كل هذا، هذا الذى بنا
يتشبث كما يتشبث العُلَّيْق ـ أن نرحل،
ونبدأ بعد الرحيل
فى التكرم على هذا وذاك الذى لم نعد نراه
(فاستخففنا بغوثه)،
نبدأ فى التكرم عليه بنظرة مباغتة: نظرةٍ كلها مصالحة،
نظرة رقيقة، قريبة، جديدة،
وأن نتنبأ بالخراب الغامر،

بالبرودة التي لا ترحم،
بكل ما كانت الطفولة تحتاجه كي تقاوم:
وأن نرحل حتى حين نفعل، منفصلين،
كأننا مزقنا جرحا كاد يلتئم،
وأن نرحل: أين؟ إلى فضاء
لا يتكشف عن شيء، إلى أرض ما دافئة، غريبة،
أرضٍ ستظل، بدون إحساس، خلفَ كل شيء:
خلفَ الحديقة والبحر والرمل؛
أن نرحل: لم؟ النـزوةُ، الإنجاب،
الجزع، الأمل الغامض، اليأس،
أن يُساء فهمُنا أو نسيء نحن الفهم:

أن نواجه كلَّ هذا ونثابر بلا جدوى.
أن ندع ما حملناه يسقط، أن نموت
في العزلة معوزين، دون أن نعلم لماذا ـ

أنحن في الطريق نحو وجود جديد؟

بستان الزيتون

وكان ما يزال يتسلق، ويتسلل من خلال الأوراق الرمادية،
كان شاحبا ضائعا فى أراضى الزيتون الشاحبة،
وكان يضع جبينه المحترق المغبر
فى عز غبار يديه المحترقتين.

بعد كل شيء، هذا، وكان هذا حينئذ هو النهاية.
عليَّ الآن أن أرحل وأنا أفقد البصر،
فلماذا، آه، تريدنى مع كل هذا راضيا
بوجودك، يا من لم أعد أجدك.

ما عدتُ أجدك، ليستْ فى نفسى
نغمةٌ منك، ولا فى غيرى، ولا فى هذا الحَجَر،
لم أعد أجدك، أنا وحيد.

وحيد أنا ومعى كل ذلك المصير البشري
الذى تعهدتُ بأن أخفف بك من آلامه،
لكنك لستَ وحيدا. آه يا للعار الفادح...

جاء ملَكٌ، كما يَروى أولئك الذين أتوا بعدى.

لماذا ملَكٌ؟ آه، ثم جاء الليل،
وبدَّل أوراقَ الأشجار دون تمييز،
وتحرك المريدون قلقين،
لماذا ملَكٌ؟ آه، جاء الليل.

الليل الذى جاء لا يتطلب تحديدا؛
جاء كما تأتى مئات الليالى،
والكلاب نائمة والحجارة راقدة ـ
تلكأ كما تتلكأ أى ليلة حزينة
تتنهد حتى يمتطى الصبح السماء.

فالملائكة لا تحضر صلوات رجال كهؤلاء،

ولا الليالي تمزج بالمجد غمَّهم.
الهجران قَدَرُ من خسروا أنفسهم،
وهم غائبون عن هموم آبائهم،
مطرودون من أرحام أمهاتهم.

موت الشاعر

كان راقدا، وجهه المسنود إلى الأعلى لم يكن بوسعه إلا
أن ينظر فى رفض شاحب من خلال الغطاء الصامت،
الآن وقد انسحبتْ الدنيا مع كل هذه
المعرفة بها ـ هذه المعرفةِ التى انتُزعتْ قسرا
من حواس عاشقها ـ لاَجِئةً إلى السنَة الفظة.

أولئك الذين رأوه حيّا لم يروا أثرا
لوحدته العميقة مع كل ما يحدث؛
فهذه، هذه الوديان هاهنا، هذه المروج،
هذه الينابيع الثرة، كانت وجهه.

أجل، وجهه كان، آه، هذا الأفق الأقصى،
هذا الذى ما زال يسعى إليه ويتودد يائسا؛

ولم يعد مجردُ قناعه، المحتضَر ثمة حيا،

رقيقا نزيها، لم يعد أكثر ثباتا

من فاكهة جريحة تتفسخ فى الفضاء.

توابيت رومانية

لماذا لا نتوقع نحن أيضا
(وقد وُضِعنا هنا وحُدِّدتْ هكذا أماكننا)
أن الغيظ والكراهية وهذه الإرادة المحيرة
لن تظل فينا إلا لوقت قصير،

كما في التوابيت المنمقة، تحيط بها
صورُ الآلهة، والأطراق، والكؤوس، والزخارف،
فثمة يرقد، في أغطية تُبَدِّدُ ببطء ذاتَها،
شيء يتواصل ببطء تفسخه ـ

إلى أن تلتهمه في النهاية أفواه مجهولة
لا تتكلم أبدا، (أين الذهن الذي قد يأمن،
مع ذلك، تلك الأفواه على نطق أفكاره؟)

من القنوات العتيقة كان يمر
الماءُ الأبدى ليصب يوما فيها:
ذلك الماءُ الذى يجرى الآن فيها ويتألق عبرها.

ثلم فى دماغى

ثلم فى دماغى،
خط فى راحة يدى:
إن تسدْ العادةُ مرة أخرى
تطمسهما وتخلطهما معا.

انجُ بنفسك واهرب
من طوق يضيق باستمرار،
اطرح قانونا جديدا
فوق نفسك وفوق الطوق.

قيامة لعازر

كان على المرء أن يتحمل الجمهور ـ
كانوا يريدون علامة صارخة:
لكن **مارثا ومريم** سيرضيهما ـ
حسب حلمه ـ مجردُ اليقين
بأن بوسعه أن يفعل، لم يصدقه أحد
صاح الحشد: "مولانا، لقد جئتَ متأخرا"،
هكذا قصد النفسَ المطمئنة ـ مع أن
ذلك أحزنه ـ ليأتي ما كان محرمًا،
سألهم متألما وعيناه شبه مغمضتين
وجسده يتوهج غضبا: "أين القبر؟"
وبدا لهم وهم يحتشدون بفضول
خلفه أن عينيه تدمعان.

وبدا له الأمر، وهو يمشي، أمرا
بشعا، صبيانيا، بدا له تجربة رديئة:
آنئذ شب بباطنه لهيبُ برهان
ماحق يدحض حياتهم وموتهم، ويدحض
كل حد فاصل يقيمونه هم وحدهم،
كان جسمه ينتفض رفضا وصوته
الأجش يأمرهم أن ارفعوا الصخرة،
صاح صوت من بينهم قائلا إن الجثة نتنة
(كانت قد دفنتْ لأربع خلون) - لكنه
وقف منتصبا، مدججا بتلك الإيماءة العنيدة،
تلك الإيماءة الصاعدة، تلك الإيماءة التي
رفعتْ يده في ألم (ما ارتفعتْ بهذا البطء
قط يد، إنه ارتفاع لا سبيل أبدا إلى قياسه)
إلى أن انتصبت هناك مشرقة في الظلام،
تقلصتْ ببطء هناك، كأنها مخلب:
ماذا لو اجتُذِب الميتُ نحو الأعلى
من خلال ذلك القبر الأنبوب

حيث كان يتلوى مخلوقٌ شاحب

شبيه بالعثة، يحاول النهوض من مرقده؟

لكنه وقف وحيدا، (لم يعد يجيب)،

ورأوا حياة غامضة غير مُميِّزة

تُجبَر على أن تمنحه ملاذا.

الدَّرج فى ضيعة البرتقال

كالملك المنهك يسير فى نهاية المطاف بخطوات بطيئة،
لا هدف له سوى أن يشهر ـ كما اعتاد ـ
العزلةَ التى تنطوى عليها حاشية العباءة
حتى تراها حاشية الـمُنْحَـنين ولاءً على الجانبين:

هكذا تصعد هذه الدرج فى أبهة
متوحدة بين هذه الأعمدة المنحنية أبدا:
تصعد ببطء وبلطف الرب نحو السماء،
لا تقصد أى مكان آخر غير السماء؛

فقد أَمرتْ كافةَ البطانة
بأن لا ترافقها، فلم يجرؤ أحد
حتى أن يسير خلفها عن بعد، لا يباح
لأى كان حتى أن يرفع أذيالا تجرجرها.

ليـــدا

حين تَقدَّم الربُّ هائجا نحو
التُّم، كاد جمالُ التم يفزعه؛
لكنه ـ على حيرته ـ اندس فى الطائر وتوارى فيه،
كان خداعُه المتقن قد كشف أمره

حتى قبل أن يختبر أحاسيس
المخلوق الغرِ، لكنها كانت تعرف
آنفا من يسكن الطائر وتقدر عاقبة
الشيء الوحيد الذى لا بد أن تفعله.

وإذ قاومتْ وهى فى حيرة من أمرها، لم تكن
تدرى هل تخفى عنه نفسها، ولا كيف تقاوم...
انزلق عنقه فى يديها اللتين ما فتئتا تضعفان،

فترك ألوهيتَه تثب لتستقر فى الحبيبة.
ثم أحس بالبهجة تجتاح كل ريشه
فصار حقا فى حجرها تُما.

حملة رومانية

من المدينة المضطربة التي تفضل
أن تغفو، وتحلم بالينابيع الحارة العظيمة،
يهبط طريقُ القبور محموما بانسياب؛
من آخر ضيعة، يتبع بهاءُ النافذة

الطريقَ بنظرة شريرة،
لا تفارق عنقَ الطريق وهو
يهبط، يحطم اليمين واليسار،
إلى أن يضيق نفَسُهُ فيرفع فراغَه

نحو السماء متوسلا،
ويختلس نظرات سريعة من حوله،
ليرى هل ما تزال ثمة نافذة ما تتجسس،

وإذ يومئ إلى قنوات الماء
كى تأتى، تهبه السماواتُ مقابلَ فراغه
فراغَها الذى يدوم بعد فنائه.

الفاكهة

ظلتْ تتسلق من الأرض خُفيةً،
سرَّها في الساق الصامت،
وغدتْ في الإزهار الصافي لهيبا،
ثم استأنفتْ إمعانَها في التكتم.

وظلتْ طوال موسم الصيف تُثمر
في تلك الشجرة الكادحة ليلا ونهارا،
وأحستْ بنفسها إصرارا لجوجا
على لقاء الفضاء المستجيب بالخارج.

ومع أنها تعرض الآن من جديد ببالغ التألق
تلكَ الاستدارة، استدارةَ الطمأنينة المكتملة،
فهي، داخل اللحاء، تعود مستسلمةً
إلى المركز الذي تجاوزته.

عزف على البيانو

الصيفُ يدندن، والظهيرةُ مرهَقة؛
شاردةً نشرتْ عبيرَ ردائها الأبيض النقي
وأودعتْ ذلكَ اللحنَ المدونَ بحدة،
أودعتْه تلهفَها على واقع

قد يتحقق: غدا، أو في هذا المساء،
واقعٍ ربما قد تحقق فعلا، لكنه ظل رهين الكتمان؛
كانت قرب النافذة، طويلة لا ينقصها شيء،
وأحستْ فجأة بالحديقة المُدلَّلة.

إذ ذاك كفتْ عن العزف؛
حدقتْ في الخارج، شبكتْ يديها؛
اشتهتْ قراءةَ كتابٍ مطول؛ وفي نوبة غضب،
أبعدتْ باقةَ الياسمين؛ فالعطر أثار اشمئزازها.

أبولو البدائي

كما يطل صباحٌ مرات كثيرة
بين أغصان لا أوراق لها، صباحٌ ينتصب
في موسم الربيع، يأمر هذا الرأسُ الصخري
بأن لا يعوق هذا الألقَ الساطع شيءٌ أو يُعتم

شيءٌ بهاء القصيدة المُهلك؛
فلم يتباطأ بَعدُ عند نَظرته ظلٌّ؛
صُدغاه أبرد من أن يكونا في حاجة إلى خليج،
ولا يصبحان نافرين عن جبينه إلا فيما بعد،

ورودٌ غنية ستعلو سيقانا طويلة مغرورة:
زهور بتلاتُها المفككةُ فُرادى، ستسقط
ببطء على فمه الفتى المهتز؛

فمُه الشاغر، ما زال ثابتا، لكنه يلتمع
ابتسامةً واهنة، يشرب ليرتوي
كأن أغنيته مخضبةٌ فيه.

جاهلا أمام سماوات عمرى

جاهلا أمام سماوات عمرى،
أقف وأحملق مستغربا، يا لعظمة النجوم!
يا للسكينة فى بزوغها وأفولها!
كأننى لستُ موجودا، ألديَّ نصيب
فى هذا؟ هل استغنيتُ بشكل ما
عن تأثيرها الخالص؟ هل يتغير بتغيرها
مَدُّ دمى وجزره ؟ دعنى أنبذ
كلَّ شهوة، كلَّ صلة
سوى هذه الصلة، كى أضبط فؤادي
على أقصى موجة من موجاتها؛ فخير له
أن يعيش بكامل وعيه فى رهبة نجومه،
من أن يواسيه ما هو قريب، كأنه مدلل.

بشارة

(كلام الملاك)

لستِ أقرب عنا إلى الرب؛
فهو بعيد عنا جميعا،
لكن في يديكِ تتجلى
بَركَتُه خارقة،
لم تتجل قط من كم امرأة
يدان بهذا النضج وهذا الوميض:
أنا النهار، أنا الطَّل،
وأنتِ، سيدتي، أنتِ الشجرة.

عفوكِ، الآن نهايةُ رحلتي،
لقد نسيتُ، أيتها الشاردة المتوحدة،
أن أقول

ما كلفنى الجالسُ فى الشمس،
ذلك العظيم فى ردائه الذهبى،
أن أخبركِ به، أيتها الشاردة المتوحدة
(فقد حيرنى الفضاء).
أنا بدايةُ ما استُهِل،
وأنتِ، سيدتى، أنتِ الشجرة.

بسطتُ جناحىّ وحلَّقتُ،
تضاءل الفضاءُ من حولى؛
بيتُك الصغير يغمره
ردائى الوافر،
لكنك تُمعنين فى عزلتك
فلا تكادين تلمحيننى:
أنا لستُ سوى نسمة فى الغاب،
وأنتِ، سيدتى، أنتِ الشجرة.

الملائكة فى جوقتها ترتعش،

تشحب وتغدو عن بعضها منفصلة:
لم تكن اللهفة ولا الشهوة قط
بهذا الغموض ولا بهذه العظمة،
لعل رؤيا خطرتْ لك
وأنت تحلمين تتحقق.
المجدُ لكِ! فبوسع روحى
أن تدركَ أنك ناضجة وحبلى،
بوابتُك العاليةُ التى قد تنفتح
فى أى يوم لما فيه خيرنا:
يا أذنا تحاول أناشيدى المشتاقة بلوغَها،
أعلم الآن أن كلمتى تاهتْ في
الطريق إليك، كأنها تاهت فى غابة.

وهكذا قُدِّر لِآخر حلم من أحلامك
أن يتحقق فىَّ.
نظر الرب إلى: جعلنى أعمى...

أنتِ، سيدتى، أنتِ الشجرة.

إرانا إلى سافو

آه، أيتها القاذفة الجامحة:
مثل رمح يتجاوز غيره
رقدتُ وراء المعنى.. رنينكَ
قذف بى بعيدا، لستُ أدرى أين أنا،
لا شىء يستطيع أن يعيدنى.

شقائقى يفكرن فى وينسجن،
والبيتُ ملىء بالخطوات المألوفة،
أنا وحدى رحلتُ بعيدا، بعيدا،
وهاأنا أرتعش كأننى تَضَرُّعٌ؛
فالإلهة الجميلة وسط أساطيرها
تتوهج وتحيا حياتى.

أرتِـــمِس

يا ريح سفوح التلال: ألم يكن
جبينها مثل مصباح منير؟
أيتها الريح الباردة، يا ريح الحيوانات الواثقة الخطى:
أنت وهبتِها هيئَتَها: ثيابُها

تعلو نهديها الغِرَّين
كأنها هاجس متقلب،
كانت تندفع بكلابها وحورياتها،
كأنها ـ وإن تكن بعيدة ـ على علم سابق

بكل شيء، هادئةً فى كامل عدتها،
تختبر طوال الوقت ذلك القوس
المربوط إلى حزامها العالى؛

أحيانا كانت تنادي قُرى الغرباء
وتُجبَر مغيظةً بصيحات الميلاد
على أن تمضي سريعا.

صور[1]

إلى Monique مع امتناني

وقت الشاي

إذ أرتشف من هذا الفنجان المزين بكلمات من لغة مجهولة، لعلها رسالة للتعبير عن المباركة والفرح، أمسكه بهذه اليد المليئة بخطوط لا سبيل إلى قراءتها، هل الرسالتان متوافقتان؟ إنهما في خلوتهما وحيدتان، مختبئتان أبدا تحت قبة نظرتي، فهل تتبادلان الحديث بطريقتهما فيتصالح هذان النصان العتيقان اللذان جمعتْهما إيماءةُ رجل يرشف الشاي؟

كنيسة ريفية

يا لَهدوء البيت: أنصتْ! لكن ما مصدر ذلك السكون الأعظم هناك، في الكنيسة البيضاء؟ ـ أيصدر عن كل أولئك الذين دخلوا إليها منذ أكثر من قرن، دخلوا كي يتقوا برد العراء فأرهبهم

[١] هذه النصوص مكتوبة أصلاً بالفرنسية.

صمتهم وهم يركعون؟ أيصدر عن قطع النقود التي فقدت رنينها وهي تسقط في صندوق الهبات فلا يصدر عنها حين تُستخرج من الصندوق إلا زقزقة خافتة كأنها زقزقة صرصار الليل؟ أم أنه صادر عن الغياب العذب، غياب القديسة آن، حامية الحرم التي لا تجرؤ على الاقتراب حتى لا تُلحق أي أذى بالبعد الخالص الذي ينطوي عليه النداء؟

الفراشة الصغيرة

منتفضةً تقترب من المصباح، وقد منحها الدوار آخر فرصة للنجاة قبل أن يشب فيها اللهيب. هاقد هوتْ فوق غطاء المائدة الأخضر، وفوق تلك الأرضية المُسعفة، تعرض للحظة، (لوحدة من زمنها الذي لا نملك وسيلة لقياسه)، تعرض بهاءها الغزير، تبدو كأنها نسخة مصغرة لسيدة تصاب وهي في طريقها إلى المسرح بنوبة قلبية، هيهات أن تصل، ثم أين يمكن أن يوجد مسرح يناسب جمهورا بهذه الهشاشة؟ جناحاها، بخيوطهما الذهبية، يخفقان كأنهما مروحة مزدوجة أمام وجه منعدم؛ وبينهما هذا الجسد النحيف، هذه الباقة التي ترتد إليها عينان تشبهان كرتين من زمرد...

فيك، يا عزيزتي، أنهك الرب ذاته. إنه يقذف بك إلى النار كي يستعيد بعضا من قوته. (مثل طفل صغير يسطو على حصالته).

آكل البرتقال

آه يا للحكمة! هذه الأرنب من عالم الثمار! تصور: سبع وثلاثون بذرة في كل عَيِّنة، مهيأةٌ للسقوط والانتشار في كل وجهة لتنجب نسلها. كان علينا أن نصحح ذلك، كان بوسعها أن تجعل كافة أصقاع الأرض مأهولة ـ هذه البرتقالة الصغيرة المرتدية رداءً أكبر منها كأنها كانت تنوى أن تواصل النمو. خلاصة القول أنها كانت رديئة الهندام؛ تهتم بالإنجاب أكثر من الأناقة، أرها الرمانة، في درعها المصنوع من جلد قرطبي: إنها تفور بالمستقبَل، لكنها تكبح نفسها، تتواضع... وإذ تمكننا من مجرد نظرة خاطفة إلى نسلها المحتمل، تخنقه في مهد قرمزى. إنها ترى الأرضَ مسرفة في التملص، لا تستحق أن تبرم معها ميثاق الوفرة.

أغنية التمثال

أهناك من يعشقنى عشقا يجعله
راضيا بأن يهب فى سبيلى حياته الغالية؟
لو قبل أحد أن يغرق فى المحيط من أجلى،
لبُعثتُ من حجر وأُعِدتُ إلى الحياة،
هاأنذا أتشوق إلى تدَفق الدم،
فالحجر ساكن صامت مُصْمَت،
أحلمُ بالحياة؛ فالحياة حق،
ولو وجدت نفسى يوما فى الحياة،
والحال أن كل شيء باهر،
لبكيت وحيدا،
لبكيت حدادا على حجرى،
أى فائدة ترجى من دمى حين يعتق كالخمر؟
لن يسترد صراخى من المحيط
ذاك الذى كان يعشقنى.

الشاطئ

الطوفان يتعالى،
الزئير مازال بعيدا،
مياه هائجة عليها
نجوم فوق نجوم.

من رأى،
أيتها الأرض المقدسة،
كيف اجتاحك الموج؟

الزئير ما زال بعيدا،
ريح الليل تستحضر
الذكرى، وفى الرمل
تتوارى موجة.

تتويج فى حلم

كان ذلك يوم الأقحوان الأبيض،

كاد بهاؤه يرهبنى...

ثم أتيت لتأخذ روحى

إلى عمق الليل،

كان القلق يتملكنى، وأتيتَ بهدوء ومحبة،

كنتُ قد ذكرتك فى حلم،

أتيتَ، فغنى الليل أغنية شجية تشبه

أغنية فى حكاية من حكايات الجنيات.

أنتن كالزوارق أيتها العذارى

أنتن كالزوارق أيتها العذارى؛
مربوطاتٌ أنتن إلى حواشى الساعات ـ
لذلك أنتن شاحبات؛
دون أن تفكرن،
ترغبن أن تهبن نفوسكن للريح؛
البِركةُ حُلمكن.
أحيانا تجركن ريح الشاطئ
حتى تصبر السلاسلُ ممدودة
فتحببن أنتن ذلك:
أيتها الأخوات، نحن الآن كطيور التُّم،
نسحب جنب الشاطئ الذهبي
أصداف حكايات الجنيات.

إلى القديسين المساكين

إلى القديسين المساكين المصنوعين من خشب
أحضرتْ أمي الهدايا،
بَدَوْا خلف المقاعد الصُّلْبة
فخورين صامتين.

نَسُوا بالتأكيد
جهودها المخلصة،
لم يعرفوا إلا أضواء شموع
جماهيرهم التي لا تبالي.

لكن أمي التي
جاءت تهديهم زهورا
قَطفتْ من حياتي
كلَّ الزهور.

أوائل الورود تُفيق

أوائل الورود تُفيق،
شذاها حيّ
حياءَ ضحكٍ ناعم.
بأجنحة مرهفَة كأجنحة
الطير الفانى تلمِس النهار،

أما أنت فيسود الخوف
كل مكان تلمِسه.

فكل بصيص مؤقت
وليس ثمة صوت صادق:
الليل محدَثٌ
والجمال عارٌ.

أشـتهـى أن أكـون حـديقـة

أشتهى أن أكون حديقة فى نافورتها
تنجب آلافُ الأحلام أزهارا جديدة،
بعضها منعزل كئيب،
وبعضها مستغرق فى حوار صامت.

وحيث تطأ الأقدام، أشتهى أن تكون
كلماتى كالحفيف فى أعالى الشجر،
وحيث يرقدون، أشتهى أن أنصت
صامتا إلى نعاسهم المخدَّر.

طقوس

كن من تشاء، واخرج إلى المساء،
غادرْ غرفتك التى تعرف كل شىء فيها؛
فمهما كان قَدْرك،
فإن بيتك هو آخر بيت قبل اللانهاية،
وبعينيك الملولتين ـ عينيك اللتين قلما ترتفعان
عن العتبة الحجرية المتآكلة ـ ارفع ببطء
شجرة داكنة ظليلة
ثم ثبتها فى مواجهة السماء: هيفاءَ وحيدة،
هاقد أنشأتَ العالم
(وسينمو كلمةً لم تُنطق بعد، كلمةً مازالت تنضَج فى الصمت)،
برفق ستدعها عيناك تنفلت
حين تُدرك كنهَها إرادتُك.

الفارس

يمضى الفارس فى درعه الأسود
ويقتحم العالم الهائج،
كل شىء هناك :
الصديق، العدو، الوادى، النهار،
وجبة الأكل فى البهو،
العذراء والغابة وشهر أيار،
والكأس المقدسة؛
الرب ذاته يتجلى فى الشوارع
آلاف المرات.

لكن، فى درع الفارس،
خلف الحلقات المشؤومة،
يجلس الموت القرفصاء، ويمعن فى التأمل:

متى يشب السيف،
ذلك النصل المُحرِّر الغريب،
فوق حاجز الحديد،
كى يأخذنى من هذا المكا
الذى قيدنى أياما و أياما،
حتى أستطيع أخيرا أن أتمطى
وألهو
وأشدو؟

جـنـون

لا شك أنها لا تنى تتأمل مغمومة: أنا... أنا...

من أنت إذن يا مارى؟

أنا ملكة! أنا ملكة!

اركع يا من هناك! اركع!

لا شك أنها لا تنى تتأمل باكيةِ: كنتُ... كنتُ...

من كنتِ إذن يا مارى؟

طفلة لا أهل لها ـ لست أدرى لم ـ

لكننى وحيدة، فقيرة.

فكيف تغدو طفلةٌ مثلك أميرة

يركع لها الناس؟

كل الأمور مختلفة

عما يحس به المتسول.

هكذا رفعتْ قدركِ الظروف،
لكنك لا تعلمين متى وكيف؟
ذات ليلة، ذات ليلة، كل ذلك حدث في ليلة واحدة،
اندفعوا نحوي.

سرتُ في الشارع وفجأة
تمدد الشارع أوتارا مرتعشة،
ماري غدتْ لحنا، لحنا...
وعلى نغمات الأوتار رقصتْ،
وأجفل الناس هلعا
كأنهم اجتُثوا من أقدامهم.
الملكة وحدها تجرؤ على أن ترقص،
أجل، ترقصَ في شوارع المدينة.

الملائكة

أفواهها جميعا مرهقة،
أرواح ساطعة هى، لا شروخ بها.
أحلامها مسكونة غالبا
باشتياق يشبه الاشتياق إلى الخطيئة.

فى جنة الرب تَشردُ صامتة
ـ كل واحد منها يشبه الآخر ـ
كأنها فترات فاصلة ـ فترات فاصلة كثيرة ـ
تتخلل لحنَه وجبروته.

فقط حين تبسُط أجنحتها
توقظ فى البلاد ريحا عظيمة:
فكأن الرب بيده، يدِ النحات العريضة،

يقلِّبُ أوراق الكتاب الأسود:

كتاب البدء.

من ذكريات الطفولة

الظلام كان ثروة فى الغرفة
حيث كان الولد جالسا، مختبئا، وحيدا،
وحين دخلتْ الأم ـ وكأنها فى حلم ـ
ارتجفتْ على الرف الساكن كأسٌ رقيقة،
أحستْ الأم كأن الغرفة وشت بها،
لكنها قبَّلت ابنها وهمستْ: أنت هنا؟
ثم نظرا معا مرتبكين إلى الأرغن،
فغالبا ما كانت تغنى فى المساء
أغنية تأسر الطفل بشكل غريب.

كان يجلس هادئا، نظرته لا تفارق
يديها، يديها المثقلتين بخواتم ثقيلة،
وهما تنتقلان فوق المفاتيح البيضاء
بينما يشق الرجال طريقهم وسط الثلوج المتراكمة.

الجار

أيها الكمان الغريب، هل تفهمنى؟
كم تغنيتَ فى مدن الغربة
عن لياليك ولياليَّ الموحشات؟
أيعزف عليك عازف واحد أم عليك يعزف المئات؟

هل يوجد هناك فى كل المدن الكبرى
من أضناهم اليأس فعزموا على الغرق
فى النهر لولاك؟
ولماذا تلاحقنى دوما أنغامك؟

لماذا قدر على أن أجاور دوما
أولئك المتشائمين الذين يجعلونك تغني:
الحياة أثقل
من كل الأعباء؟

المعتزل

أنا وسط هؤلاء القوم المتأصلين معتزل
كمن أبحر عبر بحار مجهولة؛
الأيام الحافلة على موائدهم أيامُهم،
أما أنا فأرى الواقع فى ما هو بعيد.

عالم جديد يتناهى إلى بصرى،
لعله مكان غير مسكون كالقمر؛
أبسط أحاسيسهم لابد أن يحللوها،
ولكل كلماتهم نغمة واحدة.

الأشياء التى أحضرتُها معى من بعيد
تبدو إزاء أشيائهم مختلفة غريبة:
كانت أشياء حية فى بلادها العظيمة،
ولكنها هنا تكتم أنفاسها، كأنها تشعر بالخزى.

مناحة

آه كل شيء بعيد،
موغل في القدم.
أومن بأن ذلك النجم ـ
مع أنني ما أزال أرى نوره ـ
مات منذ آلاف السنين،
أؤمن بأن شيئا مخيفا
قيل في تلك السفينة
التي تعبر الليل،
في بيت ما دقتْ
ساعة...
في أي بيت دقت؟ ...
أريد أن أغادر قلبي
وأخرج لأسير

تحت السماء الواسعة،

أريد أن أُصلى،

لابد أن ذلك النجم، وسط كل هذه النجوم،

ما زال موجودا،

أظن أننى أعلم

أيٌ هذه النجوم

مازال موجودا،

أعلم أيها مازال قائما عند نهاية شعاعه السماوى

كأنه مدينة من نور أبيض ...

يوم من أيام الخريف

حان الوقت يا رب؛ فالصيف كان طويلا،
اطرح الآن على المزاول ظلك،
ودع الرياح تهب عنيفة على المروج.

مُرْ آخر الثمار على الدالية أن تينع؛
امنحها مهلة يومين من أيام الجنوب الحنون
حتى يكتمل نضجها فتجعل
النبيذَ المُرَكَّز فى النهاية عذبا.

من لا يملك الآن بيتا لن يبنى أبدا لنفسه بيتا،
من هو وحيد ستطول الآن وحدته،
سيستيقظ ويقرأ ويكتب رسائل طويلة
وفى الطرق المقفرة سيشرد قلقا،
صاعدا هابطا، والريح تذرو ذابل الأوراق.

ذكـــرى

وتنتظر آملا أن يأتى ذلك الذى
سيجعل حياتك الصغيرة تنمو:
ذلك الجبار، الفريد،
تنتظر يقظة الحجر،
والأعماق التى ستُفتَح.

الآن فى الغسق تومض
المجلدات البنية والذهبية على الرفوف؛
تتذكر بلادا جبتَها،
صورَ نساء فُقِدن منذ عهد بعيد،
وتتذكر ملابسهن.

وتدرك فجأة : كان ذلك هناك!

تستجمع شجاعتك، فتواجه
سنة يستحيل نقضها،
سنة من الكرْب والصلوات والرؤى.

نهاية الخريف

منذ مدة، وإلى الآن، أرى
التغير فى كل شىء،
يظهر شىء ما ويعمل
ويسبب الآلام ويقتل.

فى الحدائق الآن تغير
من يوم لآخر: من الأخضر
إلى الأصفر إلى الرمادى؛
موت بطىء:
ما أطول طريقى!

أقف الآن فى هذا الفراغ
وأنظر إلى صفوف الأشجار.

جديةُ السماء المنذرةُ

تـنـزل بثقلها

فتكاد تبلغ البحر البعيد.

مساء

بطيئا يغير المساء الآن أثوابه
التى تُناولها إياه حافةُ الأشجار العتيقة؛
تحدقُ فينشطر أمامك المنظر ثم يولِّى عنك:
يغوص منه شطر ويصعد شطر نحو السماء.

تجد نفسك مهجورا، لا ولاء لديك لأى شطر،
فلست كئيبا كالبيت الصامت، ولا أنت، يقينا،
موعود بالخلود
كذاك الذى يصير نجما ثم يتسلق الليل.

وتبقى لديك (وأنت فى منتهى الارتباك)
حياتُك، هائلة، مليئة بالمخاوف، لا تكف عن النضج،
فتتحول فيك ـ تارة مُطوَّقة وتارة محيطة بكل شىء ـ
وتصير تارة حجرا وتارة نجوما.

الساعة المهيبة

من يبكى الآن فى أى مكان من العالم،
من يبكى فى العالم بدون سبب،
يبكينى.

من يضحك الآن فى أى مكان من الليل،
من يضحك فى الليل بدون سبب،
يضحك منى.

من يرحل الآن فى أى مكان من العالم،
من يرحل فى العالم بدون سبب،
يرحل إلىّ.

من يموت الآن فى أى مكان من العالم،

من يموت فى العالم بدون سبب،
ينظر إلىّ.

مقاطع

ثمة واحد تسع يده كل الأشياء،
يدعها تنسكب من بين أصابعه متوازنة كالرمل؛
يختار أجمل الملكات
وينحتهن من أنصع رخام،
وإذ يرقدن ساكنات على رف المصطلى،
يأمر بنحت الملوك الموضوعين بجانب زوجاتهم
من نفس الرخام الذى منه قد نُحِتن.

ثمة واحد تسع يده كل الأشياء،
فتتكسر كأنها سيوف رديئة،
ليس غريبا عنا بل يسكن الدم
الذى هو حياتنا، يرتاح تارة ويفيض أخرى،
لا أستطيع أن أصدق أنه يخطئ،
مع أنى سمعت عنه شرا كثيرا.

أغنية اللقيط

لست أحدا وسأظل هكذا إلى الأبد،
أنا من الضآلة بحيث لست الآن حيا
ولن أحيا بعد الآن.

أيتها الأمهات، أيها الآباء،
رفقا بي.

لكن ذلك لا يستحق اهتمامكم:
سأُحصَد على أي حال،
لن يستفيد مني أحد: لم يأن بعد الأوان،
انتظروا حتى الغد ـ وسيفوت الأوان.

لا أملك إلا هذه العباءة الصغيرة

وقد صارتْ باهتة مهلهلة...

لكنها، حتى أمام الرب،

قد تضم الأبدية،

لا أملك إلا هذه الخصلة من جبينها

(تظل دائما كما هى)،

كانت فى ما مضى كـنـز الأب.

لا يحب الآن أى شىء.

من "ليلة عاصفة"

VI

فى ليال كهذه تكون كل المدن متشابهة،

تعلوها أعلام الغمام،

بعنف تخفق الرايات فى العاصفة،

ممزقة كالشعر

فى أى بلد، أينما كان،

أيِّ بلد مجهولةٍ حدوده و الأنهار،

فى كل حديقة بركةٌ،

وراءها نفس البيت الصغير،

كل البيوت مضاءة بنفس النور؛

كل الناس متشابهون

يغطون وجوههم بأيديهم.

VIII

فى ليال كهذه تكبر أختى الصغيرة،

أختى التى وُلدتْ وماتت قبل ميلادى، كانت صغيرة جدا،

ليال كثيرة كهذه خلون، ولَّـيْـنَ منذ زمان طويل:

لابد أنها الآن جميلة، قريبا يأتى الخُطَّاب.

مراتع العشق

مرة تلو أخرى ـ مع أننا نعرف مراتع العشق
ومقبرة الكنيسة الصغيرةَ بأسمائها المحزنة
والهاويةَ الصامتة الرهيبة التى فيها يهوى الآخرون ـ
مرة تلو أخرى، نسير معا فى العراء
تحت الأشجار العتيقة؛ نستلقى مرة تلو أخرى
وسط الأزهار ونحن نواجه السماء.

ارتواء

على جانب الطريق الذى غمرتْه الشمس،
من نصف الجذع الكبير الأجوف الذى ظل، لأجيال،
حوضا يتجدد ببوصة أو بوصتين من ماء المطر،
أُروى عطشى: أغمس معصميَّ فأسقى جسدى،
كلَّ جسدى، طراوةَ الماء الأصلية،
فأنا لن أطيق سلطان الشرب و لا صفاءه،
أما هذه الإيماءة المتمهلة التى تنم عن تنازل و انضباط
فتغمر وعيى كله بالماء المشرق.

و سأكتفى ـ إن أنت أقبلتِ ـ بأن أدع يدي
تستريح برفق، تستريح للحظة برفق،
على كتفكِ أو صدركِ،
العاشقان

انظر كيف يصير كل شيء فى عروقهما خمرا!
يتعتق و ينمو كل منهما فى الآخر،
كأنهما جذعان؛ تتحرك بارتعاش هيئتاهما
فى مدار حوله يدوران؛ ساحران متوهجان،
عطشانان و يوهبان الشراب،
مبصران ويتلقيان الرؤية؛
فليغرق كل واحد منهما فى الآخر
حتى يتحمل كل واحد منهما الآخر.

فـى البدء

منذ تلك الأيام العجيبة، أيام الخليقة،
ينام ربنا الإله: ونحن نومه،
وبعفوه رضى بهذا مذعنا
لأن يرتاح وسْط النجوم القصية.

أفعالنا ثنته عن رد الفعل؛
فيده المنقبضة قد خدَّرها النوم،
والزمان جاء بعصر الأبطال،
عصرٍ سلبتْه فيه قلوبُنا السوداء.

أحيانا يبدو معذبا
وينتفض جسدُه إذ ينهكه الألم؛
لكن هذه النوبات تهزمها دوما
عوالمُه الأخرى التى لا تُحصى.

السيدة أمام المرآة

بهدوء تذيب بَشَرَتَها المرهقة
في المرآة السائلة الصافية
كأنها تذيب الأعشاب في مشروب ما قبل النوم،
و تُغرِق بسمتَها عميقا في قعر المرآة.

وتنتظر حتى ينبثق
منها السائل؛ ثم تسكب شعرها في المرآة، وإذ تسحب
رداءَ المساء عن كتف رائعة،

تشرب بهدوء من صورتها، تشرب
ما قد يشربه عاشق شارد،
و بارتياب شديد تتفحص صورتها؛ ولا تومئ

إلى وصيفتها إلا حين تلمح فى قعر المرآة
الشموع، وخزانات الملابس،
والثُّقل الغائم، ثُقل ساعة متأخرة.

سيدة في شرفة

فجأة تخطو، وقد دثرتها الريح،
وهاجةً نحو الوهج، كأنها اصطفيتْ،
و الغرفةُ الآن خلفها، وكأنها فُصِّلتْ على مقاسها.
تملأ الباب عتمة

كما تعكس الخلفية وميضا يتسرب
عند جوانب نقش يحيط بحجر كريم،
و تحسب أن المساء لم يكن ثمة
قبل أن تخطو هي نحو الخارج و تُبرِز

على حاجز الشرفة قليلا من نفسها،
مجردَ يديها ـ كي تكون خفيفة تماما:
وكأن صف البيوت أسلمها
إلى السماوات، كي يُؤَرجِحها كلُّ شيء.

القطة السوداء

شبح مازال، مع أنه لا يُرى، يشبه مكانا
يمكن أن يطرقه بصرك، فيرتد الصدى؛ لكن هنا،
داخل هذا الجلد الأسود السميك، ستُمتَص
أقوى نظراتك وتختفى تماما:

تماما كمجنون مهتاج يهاجم ـ حين لا يستطيع
أى شيء آخر أن يُسكِّنه ـ ليلَه الأسود
و هو يعوى، يدق الجدار المحشو
ويحس بالغيظ يُمتص فيستكين.

يبدو أنها تخفى كلَّ ما هوى فى أعماقها
من نظرات، تتجاهلها، عابسة متوعدة،
كأنها تتجاهل جمهورا،

ثم تلتف حول نفسها كى تنام فى صحبتها. لكن فجأة

تلتفت نحو وجهك ـ كأنها أُوقظتْ ـ
فتُصدم أنت إذ تجد نفسك، ضَئيلا،
متدليا داخل كهرمان مقلتيها المذهب،
مثل ذبابة أقدم من التاريخ.

البهجة الفارغة

هى التى لم تأت، هل كانت مع ذلك
مصممة على أن ترتب قلبى و تزينه؟
ماذا ينبغى للقلب أن يبتدع
إن كان علينا أن نبرز إلى الوجود كى نصير من نحب؟

أيتها البهجة البهية التى تُركتْ فارغة، لعلكِ
جوهر عشقى وعنائى؛
فإن بكيتك كثيرا فلأننى
آثرتك من بين تجليات كثيرة للبهجة المجسمة.

طفولة

يستحسن أن تفكر مليا،

قبل أن تحاول العثور على كلمات تعبر بها عن شيء مفقود،

عن ظهيرات الطفولة، تلك الظهيرات الطويلة التى عرفتها،

تلك الظهيرات التى اختفت تماما ـ لماذا اختفت؟

مازلنا نُذَكر ـ أحيانا يذكرنا المطر،

لكن لم يعد بوسعنا أن نحدد معناه،

لم تعد الحياة مترعة باللقاء،

بالوصل بعد البين، بالعبور، كما كانت آنئذ،

حين لم يصبنا شىء

سوى ما يصيب الأشياء و المخلوقات،

عشنا عالمها كأنه شىء بشرى،

و صرنا مترعين بالصور.

صرنا نعانى من العزلة كما يعانى منها الراعي
و صرنا نرزح كما يرزح هو تحت وطأة المسافات الشاسعة،
نُستدعى و نُحرَّك كأننا نستدعى و نحرك من بعيد،
و ببطء نُـولَج، مثل خيط طويل جديد،
فى تعاقب تلك الصور،
حيث نحتار لاضطرارنا أن نقتحمها الآن.

الطفلة ذات الفستان الأحمر

تسير أحيانا فى أزقة القرية مرتدية فستانها الصغير الأحمر
منهمكة تماما فى كبح نفسها،
ويبدو مع ذلك أنها تتحرك ـ رغما عنها
على إيقاع حياتها المقبلة.

تركض قليلا، تتردد، تتوقف،
تكاد تلتفت...
وإذ تظل أثناء كل ذلك حالمة، تهز رأسها
موافقة أو معترضة.

ثم تسير بضع خطوات وهى ترقص،
تبتدع حركاتها ثم تنساها،
لاشك أنها أدركت أن الحياة

تمضى سريعة،
إنها لا تخرج من الجسد
الصغير الذى يكتنفها،
لكن كل ما تحمله فى ذاتها
يتخمر ويمرح.

هذا الفستان هو ما ستتذكره لاحقا
وهى تستسلم استسلاما لذيذا؛
حين تصير حياتها محفوفة بالمخاطر،
سيظل هذا الفستان الأحمر الصغير يبدو مناسبا.

الموت[*]

تعال أيها الأخير، يا من أتعرف عليه،
يا ألما لا يُطاق يسرى فى نسيج هذا الجسد:
فها أنا أحترق فى روحى كما أحترق فيك:
وهاأنا أطعم ذلك الحطب الذى قاوم طويلا ألسنة اللهيب
المتوغلة التى جعلتَها دائمة التوهج فأحترق فيك.

كينونتى الوديعة الرقيقة أحالها هياجك الجارف
جحيما عاصفا، جحيما لا منبع له فى هذا العالم،
طاهرا و بدون ترج أمتطى
محرقة الجنازة المتشابكة المقامَة لتعذيبى،
واثقا من أننى لن أبتاع شيئا أحتاجه بعد الآن،

[*] كتبتْ فى ديسمبر ١٩٢٦، وكانت آخر ما دون فى دفتر رِلكُه أقل من أسبوعين قبل وفاته وهو فى الواحدة والخمسين.

بينما تظل الكنوز المحفوظة مكبوتة فى فؤادى،
ألا زلتُ أنا الذى أحترق هناك حتى صار التعرف على مستحيلا؟
الذكريات لست أمسكها فأحضرها إلى الداخل،
أيتها الحياة! أيها الأحياء! آه من وجودكم هناك بالخارج!
وأنا أحترق، و لا أحد يعرفنى.

إهداء

إيمانى عظيم بكل ما لم ينطق بعد،
وأريد أن تنعتق مشاعرى الورعة العميقة،
ما لم يجرؤ أحد بعد على أن يجازف به و يبرره
سأعتبره أنا تحديا لابد لى أن أواجهه.

فلتغفر لى - يا رب - إن كان هذا تطاولا،
وإليك ما أريد أن أخاطبك به:
ستكون جهودى مثل قوة موجِّهة،
بدون غضب، بدون وجل،
كما يعبر صغر الأطفال عن محبتهم لك،
بهذه الدفقات الشبيهة بنهر تمتد به الدلتا
مثل السواعد كى تبلغ رحابة البحر،
بالأمواج المتواترة التى لا تتوقف أبدا

سأقر بوجودك، سأدعو إليك

كما لم يفعل أحد قط؛

إن كان هذا تكبرا منى،

فدعنى أتكبر كى أبرئ من الإثم

صلاتى الماثلة وقورةً وحيدةً

أمام جبينك المحفوف بالغيوم.

إلى . . . M

أرجوحة الفؤاد! يا من تتدلين ثابتة

مربوطة إلى غصن مجهول خفى!

من، من دفعكِ حتى تأرجحتِ معى فاقتحمنا الأوراق؟

كم كنت من الفاكهة اللذيذة قريبا! لكن الرحيل

هو جوهر هذه الحركة

فليس ثمة سوى الاقتراب، سوى العروج نحو ما يظل أبدا عاليا بعيد المنال، سوى الاقتراب المتاح بغتة، ليس ثمة سوى اقتراب يحيل بالإشراف على منظر جديد تلمحه

من مكان لا سبيل إلى مقاومة التأرجح كى ترتقى إليه ـ مكانٍ تظل تفقده حالما تبلغه،

و الآن هاهى العودة المضبوطة

عبورا نحو أعمدة التوازن،

وفى الأسفل، وبين الطرفين، تعرف التردد، تعرف انسحاب الأرض،

تعرف المرور عبر نقطة التحول، تتجاوزها:
فيتمدد المنجنيق،
مثقلا بفضول الفؤاد،
إلى الجانب الآخر، الجانب المقابل، الجانب الأعلى،
يا لاختلافهما، يا لجدتهما! لكم يغبط أحدهما الآخر
عند طرفى الحبل، هذان النصفان المتقابلان، نصفا اللذة.

أو ـ هل أجرأ فأسميهما ـ هذين الرُّبعين، وأضمِّن ذلك
النصف الآخر من الدائرة، مادامت الدائرة متماسكة،
أعنى تلك الدائرة التى يدفع زخمُها الأرجوحة؟
ليس هذا النصف مجرد وهم ينشأ عن تقوس مرآة حضورى
هنا الآن.
لا تخمن شيئا، فإنه سيصير يوما ما أكثر جدة.
لكنى أتحكم فيه الآن تماما، أتحكم فى كل القوس الذى تحديته:
تصدر منى دفقات تندفع نحوه فتغمره،
تمدده حتى تكاد تمزقه، أما رحيلى،
حين تتوقف يوما تلك الطاقة التى تدفعنى،
فيجعله أقرب.

أوائل الربيع

الخشونة اختفتْ، نعومةٌ مباغتة أزاحتْ
لونَ الحقول الشتوى الرمادى،
و الغدران الصغيرة غيرت نبراتها الشادية، رِقةٌ

تمتد مترددة نحو الأرض
من الفضاء، و أزقة الريف تعرض
هذه التموجات المفاجئة المنسابة
التى تعبر عنها الأشجار الخالية.

بستان التفاح

تعالى نرقب الشمس تغرب
و نتجولْ على مرجِ البستان فى الغسق،
ألا يبدو أننا جمّعنا و آوينا و رعينا فى أنفسنا طويلا
ذكريات قديمة؟ كى نعثر على منافذ للخلاص و نسعى نحو
آمال جديدة، متذكريْن أفراحا شبه منسية،
أفراحا ممزوجةً بالظلام المنبعث من أنفسنا،
إذ نفصح جزافًا عن خواطرنا
و نحن تائهان تحت الأشجار المثقلة بالغلال،
تحت أشجار تذكرنا بمنقوشات **دورر** على الخشب؛
الأغصانُ التى أثقلتْ كواهلَها غلالٌ حان قطافها
تنتظر صابرة و تحاول أن تصمد
و تكدح لمائة يوم من موسم آخر،

جاهدة، لا تنكسر بل تزهر،
لا تُسمع لها شكوى مع أن العبء
يبدو أحيانا فوق الاحتمال،
ألاَّ تتداعى! ألاَّ تكون غائبا!

ذلك ما ينبغي أن يكون، حين تجاهد
فلا تُسمَع لك شكوى طوال عمر مديد،
مخلصا لغاية واحدة: أن تهب نفسك!
أن تنمو في صمت و تطرح الغلال.

بهجة مجنحة

كما نقلتْك ذات يوم طاقةُ البهجة المجنحةُ
فوق الهاوية المظلمة، هاوية الطفولة،
شَيِّد الآن في مكان أبعد من حياتك
القوسَ العظيم لجسر لم يخطر على بال.

العجائب تتحقق إن نحن أفلحنا
في عبور أقسى الأهوال،
لكننا لا نحقق المعجز
في ما يمنح لنا من إنجاز وهاج.

ليس عسيرا علينا أن نشتغل بالأشياء
في علاقة تفوق الوصف،
الزخرف يصير معقدا و دقيقا،

وليس كافيا أن تكون منجرفا.

خذ طاقاتك المدربةَ و مدِّدها
حتى تمتد على الفجوة
بين نقيضين ... فالرب يريد
أن يعرف نفسه فيك.

خريف

الأوراق تتساقط، تتساقط كأنها تهوي
من أعالي السماوات البعيدة،
فكأن في سامي الفضاء بساتين ذواية؛
تسَّاقط كأنها تنكر ذواتها.

وفي كل ليلة تهوي الأرض المثقلة،
تهوي إلى العزلة، تهوي بعيدا عن كل النجوم.

كلنا نهوي.. هذه اليد تهوي،
انظر! إنه السقوط يكتنفنا جميعًا.

لكن ثمة أحد
لا تني يداه الرحيمتان توقفان كل هذا السقوط.

قبيل مطر الصيف

فجأة يتوارى، من كل الخضرة حولك،
شىءٌ ما ـ لا تدرى ما هو؛
شىء تحس به زاحفا يقترب من النافذة
فى صمت مطبق، ومن الغابة القريبة

يتناهى إلى سمعك المكاءُ اللجوج، مكاءُ الزقزاق،
يذكرك برؤيا شخص ما للقديس جيروم:
ينبعث كثيرٌ من العزلة و العشق
من ذلك الصوت وحده. ذلك الصوت الذى سيشبع

الوابلُ شهوتَه الضارية. الجدران بلوحاتها العتيقة
تنساب، بحذر، مبتعدة عنا،
كأنها أذنبتْ بسماعها ما نقوله،

وعلى المطروزات الباهتة ينعكس الآن

ضوء الشمس البارد المتردد، شمسِ تلك الساعات الطويلة،

ساعات الطفولة التى كنتَ فيها فى منتهى الخوف.

آدم

شامخا يقف جنب تماثيل القديسين الكثيرة
مواجها قَوْصرة الكاتدرائية القوطية
قريبا من نافذة يسمونها الوردة، و يبدو الآن

مندهشا من تألهه الذى وضعه هناك،
منتصبا فخورا يبتسم و يستمتع
بالبقاء ـ هذا الإنجازِ الفذّ العنيد.

كادحا فى الحقول بدأ
و بكده أخصب الحديقة
التى سماها الرب عَدْنا فأثمرت، لكن أين كان
الطريق الخفى المفضى إلى الأرض الجديدة؟

لم يستجب الرب لتوسلاته التى لا تنتهى،
بل توعده بالموت،
لكن آدم تشبث بقراره: حواء ستنجب.

حـواء

انظر إلى و قفتها، عالية على الواجهة الشاهقة،
واجهة الكاتدرائية، قرب وردة الرياح،
و إذ تمسك يدها التفاحة،
تدان ببساطة وإلى الأبد: مذنبة بريئة.

جريمتها الفاكهة النامية التى يحضنها جسدها،
و التى أنجبتها بعد انفصالها
عن دائرة الآباد، رحلتْ لتواجه
الأرضَ الجديدة الغريبة، و كانت فى أوج عنفوانها.

آه، كم كانت تشتهى أن تمكث قليلا
فى تلك الحديقة الساحرة،
حيث كانت الوحوش الوديعة المسالمة

ترعى جنبا إلى جنب،
لكن آدم كان مصمما على الرحيل،
مصمما على أن يلج هذه الأرض الجديدة،
فولت وجهها نحو الهلاك و اتبعته،
وكانت تكاد لا تعرف الرب.

عزلاء على أجراف القلب

عزلاء على أجراف القلب، انظر، كم هى صغيرة فى الأسفل هناك!
انظر: قرية الكلمات، و فوقها (يا لصغرها!) ضيعة أخيرة
من ضيعات الإحساس، أتستطيع رؤيتها؟
عزلاء على أجراف القلب، قاع صخرى
تحت كفيك؛ حتى فى هذا المكان
يمكن مع ذلك أن يُزهر شيء ما؛ على حافة جرف صامت
تنمو نبتة غافلة، شاديةً، نحو الفضاء،
لكن ماذا عن تلك الذات العارفة؟ آه، بدأتْ تعرف
و هى الآن هادئة، عزلاء على أجراف القلب،
بينما تمر أو تتباطأ ـ فى كامل و عيها ـ
حيوانات جبلية كثيرة، واثقة الخطو،
و الطيور المحمية العظيمة تحلق حائمة

ببطء حول جحود القمة الخالص، لكنها
عزلاء هنا على أجراف القلب...

أطفئ نور عينى

أطفئ نور عينى فمازلتُ أراك،
احرم من الصوت أذنى فمازلت أسمعك،
وحتى بدون قدمين سآتيك،
وحتى بدون صوت سأناديك،

ابتر ذراعى و سأحضنك
بكل قلبى كأنى أحضنك بيد واحدة،
أوقف قلبى، يواصل نبضَه ذهنى،
و لئن دمرت نارك فى النهاية عقلى،
فإن دمى الدافق سيحملك.

أغنية العشق المسائية

زخارف الغيم
تلحن أغنية عشق مسائية؛
فترحل متملصةً طريقُ،
القمر الجديد يفتح

فصلا جديدا من فصول ليالينا،
تلك الليالى الهشة
التى نبسطها ثم نمزجها
مع هذه الآفاق السوداء.

كـلام إغـريـقـى عـن الـعـشـق

ما سبق أن تعلمته و أنا عاشق
أراك، حبيبتى، تتعلمينه غاضبة؛
ثم أصبح بالنسبة لك ماضيا بعيدا،
ويقف مصيرك الآن فى كل النجوم.

فوق نهديك سنتنافس معا:
إن كانا قد أينعا فى ألق وهاج،
فإن يديك تشتهيان لمسهما،
والتحكم فى لذتهما.

نجوم هاوية

هل تذكرين النجوم الهاوية

التى كانت تتسابق فى السماوات كخيول سريعة

ثم تثب بغتة فوق حواجز

أمانينا ـ هل تذكرين؟ وكانت أمانينا

كثيرة! فأعداد النجوم ثمة لا تحصى:

كلما نظرنا نحو الأعلى

اندهشنا لسرعة مناوراتها الجريئة،

و كنا نشعر بالأمن و الأمان

ونحن نراقب هذه الأجسام اللامعة تتحطم،

لعلمنا أننا نجونا من سقوطها.

انعكاس النار

لعله ليس أكثر من انعكاس النار
على قطعة من قطع الأثاث البراقة
ذلك الذى سيتذكره الطفل كثيرا فيما بعد
كأنه يتذكر الوحى.

فإنْ جرحه فى آخر عمره يومٌ ما
كما جرح كثيرين غيره،
فلأنه أخطأ فظن الرهان وعدا.

لا تنس أيضا تلك الأنغام
التى جذبته نحو غياب
عَقَّده فؤادٌ مترع.

إلى هانز كاروسا

الخسران أيضا يظل خسراننا، و حتى النسيان
يحتفظ بشكله في ملكوت التحول.
حين نتخلى عن شيء ما، فإنه يمضي في حركة دائرية،
ومع أننا نادرا ما نكون مركزا للدائرة،
فإنه يرسم حولنا منحناه المتواصل العجيب.

المستقبل

المستقبل: ذريعة يتخذها الزمان
كى يُخيفنا؛ مشروع
بالغ الضخامة؛ لقمة هائلة
لا يستوعبها فم الفؤاد.

أيها المستقبل، من ذا الذى يرفض انتظارك؟
الكل متوجه هناك،
حسبك أن تعمِّق الغياب
الذى هو نحن.

مزهرية دمع صغيرة

آنياتٌ غيرى تحضن النبيذ، و أخرى تحضن الزيت
داخل القبو المجوف يطوقها طينها،
و أنا ـ أصغرها حجما وأرشقها جميعا ـ
أُجوِّف نفسي بتواضع كي تملأني مجرد دمعات قليلة.

النبيذ يصبح أغنى و يصير الزيت فى آنيته أصفى،
فماذا عن الدمع؟ جعلنى الدمع فى زجاجى عمياء،
جعلنى ثقيلة، و جعل انحناءتى قزحية اللون،
جعلنى هشة، و تركنى فى النهاية فارغة.

العزلة

العزلة تشبه المطر؛
فالمطر يصعد من البحر ليلاقى المساء،
متموجا يتسلق نحو السماء ـ مقرِّه السابق ـ
قادما من السهل المعتم البعيد،
ثم يسقط على المدينة.

والعزلة تهطل فوقنا فى تلك الساعة الكئيبة المريبة
حين تتلفت كل الشوارع نحو الفجر
و تتقلب الأجساد اليائسة
التى خاب سعيها؛
حين يزحف أشخاص يتباغضون
رغما عنهم إلى سرير واحد ـ

حينئذ تواصل العزلةُ تدفقها مع الأنهار.

أغنية العشق

كيف أصون روحى بباطنى
حتى لا تلامس روحك؟ كيف أسمو بها
عاليا حتى تتجاوزك وتقصد أشياء أخرى؟
أشتهى أن أحميها فى مكان ما وسط أشياء
عتيقة مفقودة، فى مكان مظلم يعمه السكون
لا يُسمَع به صدى حين ترجِّع أعماقك الأصداء،
لكن كل شىء يلمسنا ـ أنا و أنت ـ
يجمعنا معا كما يفعل قوس الكمان
إذ يسحب نغما واحدا من وترين منفصلين،
هل مُدِّدنا معا على تلك الآلة؟
وأى عازف بيده يمسكنا؟
يا أيتها الأغنية العذبة.

موسيقى

خذ بيدى؛
فذلك عليك هين أيها الملاك،
فأنت الطريق
حتى وأنت جامد.

هاأنذا يفزعنى أن لا أحد
هنا يبحث عنى ثانية؛
لم أستخدم
كل ما وُهب لى،
فتخلوا عنى،

فى البدء سحرتنى
العزلة كأنها مقدمة موسيقية
ثم انهمرت الأنغام... فجرحتنى.

نرسيس

محاطة بذراعيها وكأنهما قوقعة،
تسمع همس كينونتها،
بينما يتحمل هو
فظاعة صورته المفرطة في الصفاء...

توّاقةً تحدو الطبيعةُ حدوهما،
فتعاود ولوج ذاتها،
و إذ تتأمل الوردةُ نسغَها،
تصير مفرطة في النعومة،
ويصلد الصخر...

إنها عودة الشهوة التي تغشى
كلَّ الحياة و تعانق ذاتها من بعيد ...

أين تهوى؟ أتأمل فى أن تُجدِّد

مركزا ما تحت السطح المتلاشى؟

النمر

نظرته التى أنهكتها قضبان لا تكف عن الدوران
صارت تحديقا أجوف لا يمسك بشىء،
تبدو له القضبان ألفًا
ووراء القضبان لا يرى أى عالم.

مشيتُه المطواع ـ نعومةُ الخطوات القوية
التى لا تنى تتوالى فى دوائر متصاغرة ـ
تؤدى رقصةَ القوة، رقصةً تتمركز بعمق
فى إرادة ذاهلة لكنها لا تُروَّض ولا تُقهَر.

لكن ستائر أجفانه تنفرج أحيانا،
ويتمدد فى عينيه البؤبؤان
إذ تقتحمهما صورة ما

فتهوى نحو الفناء عبر توتر أوصاله
ثم تغرق عميقا فى قرار قلبه.

الشاعر

آه يا ساعة إلهامى، لماذا تتخلين عنى،
وتجرحيننى بخفقان أجنحتك الطائرة؟
ماذا بوسع لسانى أن يقول، وأنا وحيد متفرد؟

كيف أمضى أيامى؟ وكيف أمضى ليالى؟

لا حبيب لى ولا وطن،
ليس ثمة مركز يسند حياتى.
تغتنى كل الأشياء التى أهبها نفسى،
وتتركنى منهكا، مملقا، وحيدا.

بورتريه شخصي

صمود أجيال من النبالة
يتجلى في هاته الخطوط المنحنية ـ خطوط الحاجبين،
أما العينان الزرقاوان فما تزالان تشيان بآثار مخاوف الطفولة
و بآثار تواضع هنا و هناك، تواضعٍ ليس من خادم،
بل من امرئ يخدم مطيعا، تواضعِ امرأة،
والفم يتشكل واسعا ودقيقا،
غيرَ شغوف بالعبارات الطويلة، بل بالتعبير
بإقناع بما هو حق؛ أما الجبين فبريء من النفاق
يؤثر الإطراق الهادئ.

هذا الكل المتسق الذي لم يُلمَح إلا صدفة،
هذا الذي لم يبتله بعد ألم أو فوز،
هذا الذي جُعِل متماسكا من أجل اكتمال دائم،

مع أنه يبدو أن أمرا خطيرا وخالدا يُحْـبَكُ

من هذه الأشياء المتناثرة

لأجل عصور آتية.

المراثى

المرثية الأولى

من يسمعنى من بين طبقات الملائكة إن أنا صرخت؟
وحتى إن حضننى فجأة ملاك
إلى قلبه، فإننى سأفنى
فى معانقة وجوده الجبار؛
فالبهاء ليس سوى بداية رهبة
نكاد لا نطيقها و نتهيب
لأنه يزدرينا بهدوء و يستنكف من أن يمحقنا،
كل ملك من الملائكة يبعث على الرهبة،
هكذا أغالب نفسى، و أبلع و أكبح
النداء الجياش، نداء نشيجى المظلم،
آه، بمن نستعين؟
لا بالملائكة، ولا بالبشر؛

حتى الحيوانات الحكيمة تدرك أننا

لا نحس إلا بقليل من الأمان والراحة فى عالمنا المؤوَّل.

ثمة شجرة ما

لا تزال على تل ما

وبوسعنا أن نراها كل يوم؛

ويظل شارعُ الأمس لدينا مقيما، غَـيَّر مقامَه كى يساكننا،

ويبدو أنه لا ينوى الرحيل،

آه، و الليل، الليل، حين تغـزو الريحُ مـترعـةً بالفضـاء الكونى وجوهَنا الوجلة،

من لا ينتظره ذلك الليل ـ ليلٌ طالما اشـتقنا إليـه، ليلٌ يحرر من الأوهام بلطف،

ليلٌ ينتظر مـتألما هناك كـى يبلغه القلبُ المتـوحد؟ أذلك أيسـر على العشاق؟

لكنهم يستعينون بعضهم ببعض كى يُخفْفُوا قدرهم،

ألست تعلم بعد؟

اقذف من ذراعيك الفراغَ نحو الفضاءات التى نتنفسها،

فلعل الطيورَ تحس الهواءَ الممتد فى طيرانها المتوهج.

أجل، فصلُ الربيع كان فى حاجة إليك، كثيرا ما
انتظرك نجمٌ كى تلمحه وتحسَّ ألقَه،
نحوك أقبلتْ موجةٌ قادمة من ماض سحيق،
أو وهب نفسَه لسمعك كمانٌ،
وأنت تسير تحت نافذة مفتوحة،
كل هذا كان ثقة، لكن هل كنتَ لها كفؤا؟
ألم يجعلك التوقعُ دائمَ الشرود
كأن كل هذا كان إيذانا بوصول حبيبة؟ (أى مكان
تخفيها فيه، وكل أفكارك العظيمة العجيبة
تأتى وترحل، وغالبا ما كانت تبيت).
غَنِّ عن النساء العاشقات حين يهزمك الشوق؛
فشهوتهن السامية لم تبلغ بعد الخلود،
تلك النساء اللواتى تكاد تغبطهن، تلك المهجورات
البئيسات، تلك اللواتى وجدتهن أكثرَ ودا
من النساء المشبعات. ابدأ دائما من جديد
ذلك المدحَ الذى لن تناله؛ تَذَكَّرْ:
البطل ينجو ويواصل العيش. حتى انهياره

لم يكن سوى ذريعة لتحقيق
ميلاده النهائي. لكن الطبيعة، إذ تُنهَك، تسترد إلى حضنها
العشاق، فكأن قواها الخلاقة عاجزة عن إعادة خلقهم،
هلا أخذتَ العبرة من **جاسبارا ستامبا**:
فلعل أي فتاة هجرها عشيقها تستلهم مثال ذاك السمو، لعلها تستلهم
ذلكَ العشقَ الذي لا غاية له فتقول لنفسها: " آه، ربما صرتُ مثلها"؟
أما ينبغي أن تصبح عندنا أقدمُ آلامهن في النهاية أخصب ؟
أما آن الأوان لنحرر أنفسنا من المحبوب بمودة، ونتحمل حين ننتفض:
كما يتحمل السهمُ توترَ القوس،
ويصير في هذا الانطلاق المتوتر أكبرَ من نفسه؛
فلا بقاء في أي مكان،
أصواتٌ، أصوات، أنصتْ يا فؤادي،
كما أنصت القديسون وحدهم: أنصتوا حتى رفعهم
و أبعدهم عن الأرض النداء الهائل؛ لكنهم واصلوا ركوعا
لا يطاق، غافلين تماما عن كل شيء: بهذا الإخلاص
كان إنصاتهم، أنصتْ لا لأنك قادر على تحمل صوت الرب، كلا!
لكن أنصتْ إلى صوت الريح و إلى الرسالة التي لا تنقطع،

تلك الرسالةِ التى تشكل من الصمت ذاتَـها. هاهم يندفعون
نحوكَ الآن، أولئك الذين قَضَوْا فى ريعان الشباب،
ألا يخاطبك قدَرهم بهدوء
كلما دخلتَ كنيسةً فى **روما** أو **نابولى** ؟
ألم يكلفك تأبين ما بمهمة
كما فعل يوما رقيم فى **سانتا ماريا فورموسا**؟
ماذا يريدون منى؟ أن أزيل بهدوء
مظهرَ الظلم الذى يكتنف موتَهم و الذى يعوق أحيانا
أرواحهم قليلا و يمنعها من المضى بحرية إلى الأمام.

غريبٌ طبعا أن يكف المرء عن الإقامة فى هذه الأرض،
أن يكف عن استخدام مهارات لم يكد يكتسبها،
ألاَّ ينتبه إلى الزهور وغيرها من أشياء تعد بالكثير
بمعايير مستقبل بشر فان، غريبٌ أن يكف المرء
عن أن يكون ما كانه فى أيدٍ لا نهاية لقلقها:
غريبٌ أن ينبذ المرء بسهولة حتى اسمه
كما يتخلى طفل عن لعبة مكسورة.

غريبٌ ألا يشتهى المرء أن يواصل تمنى أمانيه،
غريبٌ أن يرى المرء كل ما كان موصولا يرتعش
فى الفضاء مفككا. فأن يكون المرء مـيتا يعنى أن يواجه أشغالا شاقة،
و أن يكون المرء ميتـا يعنى أن يسترجع الكثير قـبل أن يستشف بالتدريج
لمح واحدة من لمحات الخلود.. أجل، لكن الأحياء يخطئون
فيقيمون الحدَّ فاصلا،
الملائكة ـ فيما يقولون ـ غالبا ما تعجز عن التمييز
بين تجولها وسط الأحياء أو تجولها وسط الأموات،
وسَيْلُ الأبدية يجرف فى دوامته كل العصور،
مع أن العالَمْين وكلَّ أصواتهما تضيع إلى الأبد
فى هديره الشبيه بالهزيم.

فى النهاية لم يعد أولئك الذين رحلوا مبكرا
فى حاجة إلينا؛ فالمرء يُفطَم بلطف عن
شؤون هذا العالم، كما يتجاوز الطفلُ حاجتَه

إلى ثدى أمه، لكن نحن الذين لا نستغنى
عن تلك الأسرار العظيمة، نحن الذين غالبا ما نجد
فى الحزن مصدرا للنمو الروحى، هل نستطيع أن نوجد بدونها؟
أعبثٌ هى الخرافة التى تحكى عن بدء الموسيقى
فى غمرة الحداد على لينوس؟ تلك الخرافة التى تحكي
عن الأصوات الجريئة الأولى. أصواتِ الأغنية المخترقة
الخَدَرَ العقيم، وكيف رحل فجأة و إلى الأبد -
فى ذلك الفضاء المبهوت - فتى يشبه الإله تقريبا،
فأحسَّ الفضاءُ لأول مرة
بتلك الاهتزازات المتناغمة التى تسحرنا

و تعيننا

و تواسينا.

المرثية الثانية

كلُّ ملاك من الملائكة يبعث على الرهبة.

لكن للأسف ـ و مع أننى مدرك لكل ذلك ـ

أستعين بك يا طيور الروح، أيتها الطيور التى تكاد تكون مُهْلِكة،

أين أيام **توبياس** حين وقف عند الباب واحدٌ منكم

شبه مُقَنَّع يخفى نورانيتَه مستعدا للسفر، فلم يعد يبعث على الرهبة؟!

(كان شبيها بذلك الفتى الذى كان ينظر إليه خلسة من النافذة)،

لكن لو أن الملاك الأعظم المُهلِك الذى هو الآن خلف النجوم يتنزل نحونا

و لو خطوة واحدة، لتصاعد وجيبُ قلوبنا حتى نهلِك،

من أنتم؟

أحبةُ الخليقة المدللون، من بين الأوائل الذين بلغوا الكمال،

سلسلةُ جبال، قممٌ و تلال تبدو أرجوانيةً فى نور الصباح،
من بين كل الخليقة، طَـلْــعُ الألوهية المزهر،
جماعُ النور الخالص،
دهاليزُ، سلالمُ، عروشٌ، فضاءات من الجوهر،
دروعٌ من النشوة، عواصفُ هوجاء من أحاسيس البهجة،
ثم مرايا منفصلةٌ تَـلـمُّ البهاءَ المتدفق منهم
و تُعيده ثانية إلى وجوههم،
لكننا ـ إذ تُثيرنا الأحاسيس العميقة ـ نتبخر؛
نلفظ فى الزفرات أنفـاسَنا و يتزايد وهن انفعـالنا كالعطر لحظة إثرَ لحظة.
صحـيح أن شخصـا ما قد يسـر إلينا قائلا: "أجل، لقـد صرتـم تَسْرون فى دمى،
الغرفة بكم مفعمة و كذا الربيع... "لكن ما جدوى ذلك؟
إنه لن يستطيع أن يسعنا، فنحن بداخله وحوله نتلاشى،
و ذَوُو البهاء، من يستطيع أن يكبَحهم؟
ما انفك التجلى يصَّعَّد إلى وجوههم ثم يرتحل -
كأنه الطل عن عشب الصباح يرتحل،

ما نملكه يصَّعَّد إلى الفضاء كأنه البخار من طبق ساخن،

آه. أيتها البسمة، أين ترحلين؟

و يا أيتهـا النظرة الشاخصة، يا مـوجة جديدة دافئة تنـحسر فى بحر الفؤاد...

نحن ـ واأسفاه ـ لسنا سوى ذلك؛

فهل يحتفظ الفضاء غير المتناهى الذى نذوب فيه بنَـكـهتـنا؟

أحقا أن الملائكة لا تتشرب ثانية سوى ذلك الإشعاع الذى ينبع منها،

أو أن ثمة أحيانا نفحةً من جـوهرنا تسربت ـ كأنما سهوا ـ إلى ما تـتشرب ؟

هل نمتـزج نحن ولو قليـلا بملامحـهـا كمـا تمتـزج تلك النظرة الغامضة

بوجوه أولات الأحمال؟

إنها لا تلحظها (أنى لها أن تفعل) أثناء عودتها الجياشة إلى ذواتها؟

قد يتفوه العشاق فى فضاء الليل ـ إن كانوا ضالعين ـ بكلمات عجيبة غريبة؛

إذ كلُّ الأشياء ـ فيما يبدو ـ تحاول أن تحجبنا،

انظروا إلى الأشجار: إنها موجودة حقا، وهاهى البيوت التى نسكنها ما تزال قائمة،

نحن وحدنا نحَلِّق و نتجاوز كلَّ الأشياء هاربين مثل الريح،

وكل الأشياء تتآمر كى تتجنب الحديث عنا، يحدوها ـ ربما ـ حياء مقترن

بأمل يستحيل الإفصاح عنه،

أيها العشاق، يا من يحقق بعضكم رغباتِ بعض، هاأنذا أسألكم أنتم عنا نحن،

يحضُن بعضكم بعضا؛ فأين برهانكم؟

انظروا: أحيانا تصير كل يد من يديَّ بالأخرى واعية،

وأحيانا يلجأ إليهما وجهى الذى أرهقه الزمان،

و فى ذلك إحساس رقيق،

لكن من يجرؤ على أن يحيا لمجرد ذاك الإحساس؟

أنتم ـ يا من تتضخمون مع ذلك ـ فى شهوة الغير حتى تغمرونه فيتوسل إليكم: "كفى..."،

أنتم يا من تنمون بغزارة مثل كروم الخريف؛ أنتم يا من قد تتلاشون باكتمالِ بزوغِ الغير: هاأنذا أسألكم أنتم عنا نحن؟

أعلم أنكم تتلامسون بمنتهى السعادة لأن اللمس يحفظ،

لأن المكان الذى تلمسونه برقة لا يتلاشى؛
فأنتم تحسون الديمومةَ الخالصة تحت ما تلمسون،
وهكذا تَعدون بأنكم فى العناق تكادون تبلغون الخلود،
لكن ألم تتغيروا
حين تجاوزتم رهبة النظراتِ الأولى، و تجاوزتم التشوقَ عند النوافذ،
و أولَ جولة لكم فى الحديقة صحبة الحبيب؟
آه، غريب أن كل شارب كان يرشُف من شرابه
حين تلمَّس كل واحد منكما طريقه إلى ثغر الآخر فتواصلت الشفاه:
رشفة رشفة.

ألم تندهشوا للحذر فى إيماءات البشر على شواهد قبور الإغريق؟
ألم يُوضع العشقُ و الفراق برفق على الأكتاف
حتى بدوا من جوهر مختلف عن جوهرهما فى عالمنا؟
تذكروا الأيدى وكيف تسترخى بخفة رغم الطاقة فى جذوع التماثيل،
هذه الهيئاتُ المتحكمة فى ذواتها تقول : "نستطيع أن نذهب إلى هذا الحد،

لنا أن يلمس بعضنا بعـضا بهذه الرقة؛ بوسع الآلهـة أن تضغط علينا بشدَة،

لكن ذلك.شأن الآلهة".

ليتنا نحن أيضا نكتشف مكانا بشريا ملموما طاهرا،

قطعةَ أرض خصبة نتملكها بين النهر و الصخر؛

فأفئدتنا تتجاوزنا باستمرار كما تجاوزتهم أفئدتهم؛

ولم يعد بوسعنا أن نتبعها

محملقين فى الصور التى تواسيها، أو فى الأجساد الشبيهة بالآلهة.

تلك الأجـسادِ البـالغة التناسق، تلك الأجـساد التى تـنال فيـها راحةً أعظم.

المرثية الثالثة

أن تتغنى بالحبيب شيء، لكنه شيء آخر ـ واحسرتاه ـ
أن تستحضر من مقاماته السرية ذلك الإلهَ النهرى الآثم، إلهَ الدم،
ماذا يعرف فتاها ـ ذاك الذى يتلاشى فى الأفق وجههُ ـ عن إله الشبق
الذى ينتصب من أعماق العزلة ـ رغم أنها تحاول تهدئته ـ
فتتقاطر الألوهيةُ عطورا غامضة؛ يتجاهل أحيانا وجودَها ذاتَه،
و يُهيِّج الليلَ فيستعر الليلُ شغبا متواصلا؟
فيا **نبتون** الدم، ويا رمحه الرهيب،
أيتها الريح السوداء، يا ريح صدره التى تنفخ فى البوق الحلزونى!
أنصت إلى الرنين الأجوف، رنين الليل!
أليس منكن أيتها النجمات تُقبِل مُترقرقةً
شهوةُ العاشق التواقةُ إلى وجه الحبيبة؟
أو ليس جوهرُ رؤياه السريةِ ـ رؤيا كينونتها الباطنية الخالصة ـ
مستوحى من أبراجكن العذراء؟

لم تمنحى أنتِ ـ واحسـرتـاه ـ و لا أمُّـه منحتْ جبـينَه قـوسَ التطلع ذاك،

ما كنت أنت ـ أيتها الفتاة المتلمسة ـ و لا قُبلتُك سببا فى انفراج شفتيه هَلالاً خصيبا،

هل تتـوقـعين ـ يا من تنسـابين كـأنك نسـمـة صـبح ـ أن تهـز خطوتُك الناعمة

الأرضَ من تحت قدميه؟ أنت حقا جعلت قلبَه يجفُل،

لكن لَمْستك هى التى أيقظتْ تلك الأهوالَ العتيقة التى رجَّته،

نادى ما شاء لكِ النداء، فلن تستطيعى تخليصه، مع أنه يرغب فىَ الخلاص،

من أولئك الرفاق العابسين. وإذ يفلح فى الخلاص،

يتخفف من عبئهم ويستقر فى أيكة فؤادكِ. وإذ يعثر فيكِ على بذرة ذاته،

يشرع فى إبراز كينونته هو،

لكن هل يشرع بالفعل فى ذلك أبدا؟

صغيرا أنجبتِه أيتها الأم، فيكِ كانت بدايته، غريرا وجدتِه

وفـوق عينيـه البـريئتين بسطـت العالم الودود، وصـددتِ كل غريب مزعج،

آه! إلى أين فـرتْ تلك السنون التى لم يكن فيـها مـحتـاجا إلا لطيفك الرقيق

ليمحق أمواج الفوضى المتوعدة؟

طالما صددت عنه الكثير، وجعلت غرفة نومه التى كانت تُثير

فيه المخاوف والظنون مضجعا مريحا آمنا،

ومن ملاذ قلبك الرحـيم أضفيتِ نفـحة ألفة على فـضاء الليل الموحش،

بمصباح حضوركِ أنرتِ ليله، لم يكن قنديلا أشهرتِه فى الظلام

بل كـان وهَجَ محـبة ودودا يبـدد وحشـته، كنت تشـرحين كل شىء ببسمة،

كانت فطنتك تتنبأ حتى بصرير لوح الأرضية قبل صدوره،

كان يصدقك فيستكين، حضورُكِ اللطيف كان يتكفل بكلِّ شىء

وكـان شـبح قـدره المتـغطرسُ فى العـبـاءة ـ ذلك الذى يهـدد مستقبله القلق ـ

ينسل ـ وقـد هزم مـؤقـتـا ـ عـائدا إلى خَلوته فى الصـوان، أو يندس فى تموجات الستائر،

وكان الفرج يبدو عليه وهو يرقد هناك، فى رعاية جفنى طيفك اللطيف،

مستلذا رقة الإغفاء وهو يذوب نوما أمام جفنيك الوسنيْن:
كان يبدو آمنا... لكن، فى قرارة النفس،
من يستطيع حقا أن يكبَح سيول الباطن، سيولَ أصله المهيب؟
لم يكن هذا النائم حذرا. نائما كان، لكنه يحلم ...
لكن كيف يستطيع فى غمرة الحمى أن يستسلم للأحلام؟!

عجبى لهذا البرعم الوليد الذى نما فى شَرَكِ جذور أشياءَ تليدة!
برعم نما مع كروم خانقات وسط جوارح حوامة عتيقة!
بالفطرة كان عاشقَ هذا القفر الباطنى البدائى،
وسط الجذوع المتفسخة، جذوع العمالقة المخلوعين، نما قلبه
ودودا أخضرَ كأنه الربيع، ودودا رحل هابطا على غصينات جذوره،
مواصلا بروزه نحو العراء... حيث كان الأصل الأعظم،
أصلُ ميلاده البسيط، على الأرض منطرحا و قد تجاوزه الزمن،
ودودا ظل وهو يخوض جاهدا أعماق الغدران المتدفقة بدماء آبائه؛
أعماقَ غدران بها يكمُن الرعب.وكان كل هول يعرفه ويغمز إليه كأنه شريك متواطئ،

أجل، كـان مـحـيا الرعـب له يـبـتـسم. نادرا مـا كـانت بتلك العذوبة بسمتك، يا أم!

أكان بوسعه سوى أن يحب من إليـه يتبسم ؟ كان يحب ذلك المحيا قبل أن يعرفك،

كيف لا وقد كان في مياه رحمك التى كان فيها يعوم؟

انظرى: موسم واحد لا يسع كلَّ عشقنا كما يسع عمر زهرةَ ليلَك.

حين نعشق يسرى فى سواعدنا إذ نعانق نُسْغ عتيق،

تأملى أيتها الحبيبة هذا الطفل الذى يسرنا أن ننجبه،

إنه لم يكن قط فردا بل كان حشدا:

تجليا للآباء الكامنين فى أعماقنا كأنهم جبال مهدودة؛

تجليا لقيعان أنهار جفتْ، أنهارِ أمهات ولَّيْن،

تجليا للمنظر الشامل الساكن، منظرِ المصير المشترك، غائما كان أو صحوا،

أمامك، أيتها الحبيبة الغالية،

كان هذا...

وأنتِ نفسك، هل تستطيعين أن تعرفي شيئا

عن الظلام الأبدى الذى أثَرْتِه فى عشيقك؟

عن شـهـوات تفجـرت فى قـراره، شـهوات تحـدرتْ إليـه من أسلاف رحلوا؟

وهل تستطيعين أن تعرفى أيَّ نساء اشتهينه فاحتقرنكِ؟

وأيَّ غيرة من عشاق مجهولين أيقظتِ فى عروقه؟

الأطفال الهالكون، بكِ يستجيرون...

برفق، برفق دلليه، قوديه إلى حافة البستان،

أريه القوةَ المقابلة للظلام...

أوقفيه...

المرثية الرابعة

آه يا أشجار الحياة، متى يأتيك موسم الشتاء؟
لسنا نستقر على قرار.لسنا نشبه طيورا
تهاجر في انسجام. وإذ نتخلف
ونُتَجاوز نلقى بأنفسنا إلى الريح
فنقع على الأرض و نسقط في برك آسنة،
لم يك ثمة فرق بين الإزهار و الذبول،
و في مكان ما تصول الأسود غافلة ـ
في عز عظمتها ـ عن أي ضعف.

لكننا -إذ نركز عل شئ واحد -
نحس ضغط شيء آخر،
العداوة أول ما نستجيب له،
والعشاق، ألا يغزو بعضهم على الدوام حدود بعض؟

رغم أنهم تواعدوا رحابا وأوطانا ومرابع صيد؟
ولكى نتمكن من الرؤية
تُهيأ بالكد على قماش اللوحة خلفية
يُرسَم عليها تخطيط عفوى أملته اللحظة؛
فالتعامل معنا يتم بمنتهى الوضوح.
ونحن لا نعرف حدود أحاسيسنا،
لا نعرف سوى ما يشكل تخومها الخارجية.

من منا لم يجلس وجلا فى مواجهة ستار الفؤاد؟
وحين يُرفع الستار تُشاهَد مراسيم الفراق،
من السهل أن تفهم، كانت الحديقة المألوفة
تميس قليلا، ثم جاء الراقص،
كفى! ليس هو! مهما تظاهر بالخفة:
لم يكن سوى شخص عادى ذى قناع وأزياء،
شخص يدخل من المطبخ حين يأتى إلى البيت،
لن أقبَلَ هذه الأقنعة البشرية شبه الجوفاء؛
الدمية أفضل فهى على الأقل محشوة،

سأتحمل هذه الدمية المحشوة بعناية،
و أتحمل السلك والوجهَ الذى هو مجرد طيف،
هاأنذا فى الصف الأمامى أنتظر،
فلن أغادر حتى إن انطفأت الأنوار وأخبرتُ:
"لقد انتهى العرض"، ولو هبت من الخشبة المهجورة
نفحات الفراغ الرمادية، ولو لم يعد
أى من أسلافى الصامتين الآن يجلس بجانبى،
و لم تعد معى امرأة أو حتى طفل ذو عينين بنيتين،
عينين بهما حول. فبوسع المرء دائما أن يتفرج،
أو لستُ محقا، يا أبت؟ يا من عانيتَ
مرارة الحياة، بعد أن رشفت ـ لأجلى ـ
من حياتى، من ذلك الشراب الموحل الذى مزجتْه إرادتى،
تواصلتْ معاناتك، يا أبت، وأنا أنمو، يضايقنى المذاق المتخلف،
مذاقُ مستقبلى الغريب بينما واصلتَ أنت تفحص
نظرتى الشاردة ـ يا من ظللتَ مذ توفيتَ،
داخل أعمق آمالى،
منشغلا على راحتى، نابذا ذلك الهدوء،

متخليا ـ من أجل مصيرى التافه ـ عن عوالم السكينة
التى ينعم فيها الأموات. أو لستُ محقا؟

وأنتما يا والدى، ألا تريان أننى محق؟ يا من أحببتما في
بدايةَ محبتى لكما، تلك البداية الشحيحة التى كنت دائما
أعرض عنها جافلا، أعرض عنها لأن البعد فى ملامحكما
ازداد و صار ـ حتى مع محبتى لها ـ فضاء كونيا
لم يعد لكما فيه وجود... وحينما أحسُّ ميلا
إلى الانتظار أمام خشبة مسرح العرائس،
بل إلى التحديق فيها بانفعال تدفع شدته ملاكا
إلى أن يتجلى أخيرا فى صورة ممثل
و يشرعَ فى تحريك أجساد الدمى التى لا حياة بها
كى يواجه نظرتى المتفحصة،
ملاكٌ ودمية! هاهى المسرحية أخيرا!
بوسع ما نفصله أن يُوصَل الآن
بحضورنا، فى هذه اللحظة فقط
تتجلى لنا حلقة مواسم العمر وتبدأ حركتها،

فوقنا، وخلفنا، يلعب الملاك، انظر:
أما ينبغى للموتى أن يدركوا مدى بطلان
وزيف كل ما ننجزه هنا
حيث يتحكم الزيف فى كل شىء؛ فآه يا سويعات الطفولة!
آه من سويعات لم يكن فيها الماضى وحده يكمُن خلف كل الأشكال،
سويعات لم يكن فيها المستقبل وحده ممتدا أمامنا.

وكبِرنا طبعا ـ وكنا أحيانا
بَـرِمين من كبرنا ـ وأحيانا كنا نكبَر حتى نُرضى
أولئك الذين لم يعد لهم شيء غيرُ كبرهم،
لكن ـ حين نكون وحدنا ـ كنا نـمتع أنفسنا
بما هو دون غيره دائم، كنا نقف هناك
فى الفضاء الذى لا نهاية له، فى الفضاء الذى يمتد
أبْـعدَ من اللُّعب وأبعدَ من الكون، فوق مكان
أُعدَّ منذ البدء ليكون فى خدمة حدث محض،
منَ يكشف الطفل كما هو؟ من يبوئه مكانه

فى كوكبته بين النجوم، ويضع فى يده عصًا
لقياس الأبعاد؟ من يعجن هلاكَ الطفل
خبزا رماديا يدعُه ييبس - أو يتركُه هناك
فى فمه المستدير مسننا كأنه
قلب تفاحة لذيذة؟ ... عقولُ القتلة، من السهل أن تفهمها،
لكن أن تفهم هذا: أن تحيط بالموت،
كلِّ الموت، حتى قبل بدء الحياة،
أن تحضِنه برفق فى باطنك،
دون أن تغضب: ذلك ما يفوق الفهم والوصف.

المرثية الخامسة

مهداة إلى Frau Hertha Koenig

لكن أخبرنى من هم، هؤلاء الهائمون، هؤلاء الذين
يفوقوننا فَناءً، هؤلاء الذين عصرتْهم إرادةٌ لا تُرضى أبدا،
عصرتْهم بوحشية، منذ أيامهم الأولى،
(لأجل من؟) لكنها تعصرهم،
تُوتِّرهم، تلويهم، تؤرجحهم، تقذف بهم فى الفضاء
ثم تتلقاهم؛ وإذ يهوون فى فضاء
يحسُّونه مُزيَّتا زَلِقًا، يقعون
فوق سجادة مهترئة تتآكل باستمرار تحت
وقع أقدامهم، فوق هذه السجادة الضائعة
فى فضاء لا قرار له،
ملتصقة مثل ضمادة ملفوفة حول أرض

جرحتها سماء الضواحى؛

فما إن بدتْ

حتى انتصبت بارزةً هناك

دالُ الديمومة... فتعصف بهم، مرة أخرى،

تلك الكفُّ التى لا مفر منها، تلك الكفُّ التى نعصف

بأقوى الرجال وتتسلى بسحقهم، كما يتسلى

الملك **أغسطس الجبار** بسحق الصحون المعدنية.

آه، وحول هذا

المركز: تزهر وتُشع

زهرة الفُرجة. حول هذا

المدق الذى يسحق السجادة،

حول هذه الوزيمة التى يُخصبها الطَّلعُ

الناشئ عن غبارها، والتى تُـثمر بدورها

الفاكهةَ الغاوية، فاكهةَ الاستياء:

الوجوهَ الفاغرة الغافلة، وجوها صقلها السأم

حتى تألقتْ منها بسماتُ الامتعاض،

ثمة ترى حمَّالَ الأثقال المتغضنَ الذابل،
ذاك الذى صار فى أرذل العمر طبالًا،
انكمش جلده الهائل الذى بدا كأنه
كان يضم رَجُلين، أحدهما كان
راقدا فى المقبرة، أما الآخر فقد ظل حيا،
يعانى الصمم و أحيانا يعانى الارتباك
داخل هذا الجلد الأرمل.

و ثمة ترى الفتى، ذاك الذى قد يكون
ابن قس وراهبة: متين البنيان صاغته
العافية عضلاتٍ وصفاء.

أيها الأطفال،
يا من أُهدُوا لُعَبًا للحزن
أثناء إحدى فترات نقاهته الطويلة
وهو بعد رضيع...

أنت، أيها الولد الصغير، يا من كنت
تقع فى اليوم مئات المرات كنت فيها
ضحيةَ ارتطام لا تدرك عنفَه إلا الفواكهُ الفجة،
وكنت تقع من الشجرة التى أنبتتْها الصيرورة
(تلك التى تَعْبُر المواسمَ أسرع من الماء، فتنتقل
فى لحظات وجيزة من الربيع إلى الصيف إلى الخريف) ـ
ثم ترتطم عنيفا بالقبر:
أحيانا تحاول، أثناء توقف قصير، أن تغالب
نظرةً ودودة نحو أمك التى نادرا ما كانت حنونا؛
لكن النظرة تضل الطريق، يستنفدها جسدُك،
ويستنفدها وجهُك اللامبالى ... ومرة أخرى
يصفق الرَّجلُ لوثبتك، وقبل أن تتميز ألما قرب
قلبك الذى لا يكف نبضه عن التسارع،
يندفع الألمُ بباطن قدميك ليتجاوز الألمَ الآخر،
فيطرد دمعات تتسارع من عينيك.
والبسمة العنيدة رغم كل ذلك...

اقطفها، آه، أيها الملاك، اقطف عُشبة الشفاء، تلك العُشبة ذات الزهيرات. صُغْ مزهرية واحفظها فيها. ضَعْها بين تلك المباهج التى لم تتفتح لنا بعد؛ على تلك المزهرية الخزفية البديعة، مَجِّدها بهذا النقش المتدفق المنمق: "Subrisio Saltat"[١].

وأنت، أيتها الحبيبة الجميلة،
يا من وثبتْ فوقَك بصمْت
أشدُّ المباهج إغراءً، لعل حواشى
ردائك سعيدةٌ لأجلك ـ
أو لعل الحريرَ الفضى على نهديك الفتيين
يحس بنفسه مدللا أبدا، لا ينقصه شىء،
أنت
ثمرةُ الاتزان أنت،
تُعرَضين على الجمهور، فى تنويعات
دائمة على الأراجيح المتمايلة،
أراجيح التوازن فوق كتفيك؛

[١] بسمة البهلوان.

فأين المكان ـ أحمله فى قلبى ـ
المكانُ الذى ما يزالون فيه بعيدين عن الإتقان،
حيث ما يزالون منفصلين، كأنهم مواشٍ مشمئزة
أجبرتْ على التـزاوج؛
حيث الأوزان ما تزال ثقيلة، حيث
الصحون، على أعوادها الملونة الدوارة،
ما تزال تَـتمايل
ثم تسقط...

وفجأة فى هذا اللامكان العسير،
فجأة فى هذا المكان الذى لا يجوز ذكره،
تحيل التحولاتُ اللانهائية التى لا تُدرَك
كلَّ شىء إلى الفراغ المطلق
حيث تفلت الأعدادُ اللامتناهية من الحساب.

أيتها الميادين، يا ميادين باريس، يا فضاء رائعا
فيه تجدل وتلف، مصممةُ القبعات، **مدام لامور**[1]،

[1] Madame Lamort.

الدروبَ القلقة، دروبَ الحياة، تصمم تلك الأشرطةَ
اللانهائية، وتصمم منها عُقَدا وأهدابا جديدة، زهورا
وأطواقا جديدة، وثمارا زائفة جديدة ـ ثمارا ذات ألوان
زائفة ـ تزين بها تلك القبعات الشتوية الرخيصة،
قبعاتِ القَدَر.

....

أيها الملاك! إن يكن ثمة مكان لا نعرفه،
وإن يعرض العشاقُ هناك ـ فوق سجادة
لا يجوز ذكرها ـ ما لم يستطيعوا أبدا إتقانه هنا:
الغنائمَ الجسورة، غنائمَ أفئدتهم المحلقةِ فى الأعالى،
أبراجَ لذاتهم، سلالمَهم المُقامةَ منذ أمد طويل حيث
لا توجد أرضية، تلك السلالمَ المرتجفة التى يسند
بعضها بعضا ـ إن يعرض العشاق كلَّ هذا و يتحكموا فيه
أمام جمهور المتفرجين المحيطين بهم، أمام هؤلاء الموتى
الصامتين الذين لا سبيل إلى إحصائهم،
فهل يلقى هؤلاء الموتى حينئذ قطعَهم النقدية الأخيرة،

تلك القطعَ التى طالما ادخروها، تلك القطعَ التى طالما أخفوها،
والتى لا نعرفها، تلك القطعَ النقدية التى لا تتقادم أبدا،
قطعَ سعادتهم، هل يلقونها على السجادة المَرْضِيَّة،
أمام الزوجين الباسمين من صميم القلب، أخيرا؟

المرثية السادسة

يا شجرة التين، طالما تفهمتُ امتناعَك
الذى يكاد يكون مطلقا عن الإزهار،
لكنك، أيتها الكتوم، تُودِعين،
فى أوائل الموسم، سرا خالصا فى يانع ثمارك.
فعبر أغصانك المتقوسة، يندفع النسغُ
نحو الأسفل، ثم يُجبَر على الصعود، كالنبع،
حيث يتفجر ويؤول إلى نعيمِ الاكتمال الأعذب،
وهو لم يستيقظ بعد،
انظرى كيف يصير **زيوس** طائرَ التَّم.

لكننا للأسف نتمادى،
أجل، بإزهارنا نتباهى،
وننخدع فى الباطن المتفسخ،

باطنِ ثمارنا المتواصلة الناضجة،
قليل هم أولئك الذين يستحث دافعُ الفعل
جرأتَهم فينتصبون متوهجين فى امتلاء القلب
وبرفق يمس إغراءُ الإزهار شفاهَهم الفتيةَ
ويداعب كنسيم الليل عيونهم،
تلك شيم الأبطال،
أولئك الذين قُدِّر لهم أن يهلكوا فى ريعان الشباب،
شذبَ الموتُ، ذلك البستانى، أمزجتَهم فاندفعوا أمام بسماتهم
كأنهم أسراب خيل فرعون الغازى نُقِشتْ برفق على أفاريز الكرنك.

عجيبةٌ تلك القرابة التى تربط البطل بمن يموتون فى شرخ الشباب،
لا يشوب أيُّ تردد اندفاعَ البطل، نهايتُه فى كينونته،
يظل لها معانقا، إذ يخطو على هلاكه الأبدى وسط كوكبات
مجهولة من نجوم،
لا يعثر عليه هناك إلا القليلون، لكن ربة القدر التى تظل علينا
بالبوح بخيلة،
تنعطف فجأة نحو البطل ملهَمة، وتحثه بشدوها على أن يُبارِز
فى عالمه الطوفانى

عاصفتَها الهادرة. ما سمعتُ بأحد مثله، في الفضاء المرتَجِّ
تسري فيَّ بغتة أنغامه القاتمة؛
فأخفي عن نفسي الحنينَ إلى أيام الشباب مسرورا، آه ليتني
كنت...
ليتني كنتُ طفلا، وليتني أظل طفلا فأجلس
في حضن الصيرورة وأقرأ عن **شمسون**،
وكيف لم تكن أمه في البدء حبلى بأي شيء، ثم صارت حبلى
بكل شيء.

ألم يكن، أيتها الأم، بطلا وهو ما يزال في بطنك؟
ألم يبتدأ عزمُه البطولي الحاسمُ وهو لما يبرح رحمك؟
كانت الآلافُ في ذلك الرحم تتخمر متمنيةً أن تصير ذلك البطل،
لكن أنصتي: اختار أمرا وازدرى آخرَ فاستتب له الأمرُ بفضل
سلطان العزم.
ولئن حطم الأعمدةَ العظيمة، فإنه غادر عالَمَ جسدك ليواجه
عالما أضيق،
حيث مازال بوسعه أن يواصل الفعل ويواصل اتخاذ القرار؛

فيا أمهات الأبطال، يا منبع الأنـهار التى ترجُّها العواصف! ويا مهاويَ شاهقةً فى أعالى

تخـوم الفؤاد ألقت منهـا العذارى الـنائحات أنفـسهن: قـربانا للابن.

فكلما حاصر البطلُ مواطنَ العشق، دفعته كلُّ خفقة قلب دق لأجله نحو ما هو أبعد منها إلى أن وقف فى النهاية وحيدا، ملتفتا عند حد البسمة ـ وقد تسامى فتغيرتْ هيئته.

المرثية السابعة

لن يظل التودد، ولا ذلك الصوت الذى تعالى فوقه،
من طبع صيحتك، لكن صيحتك ستكون فى صفاء
صيحة طائر يبهجه الموسم المقبل، صيحةِ طائر يكاد ينسى
أنه مخلوق متألم، وليس مجرد قلب متوحد يُقذف به،
نحو الصفاء، إلى سماوات حميمة،
ستتودد مثله، ولن يكون توددك أقلَّ صفاء،
كى تستشعرك، دون أن تلمحك، عاشقةٌ صامتة
يتيقظ فيها ببطء جواب ما، ويسرى الدفء فيها إذ تسمعك،
ستتودد إلى الرفيقة المتقدة وجدا، رفيقةِ أشد أحاسيسك جرأة.

وسيدرك الربيع ـ آه ـ صيحتك،
ستتردد فى كل مكان أنشودةَ بشارة،
ستتردد بدءا تلك النغماتُ الخافتة المتسائلة،

ثم تتعالى فى كل مكان يحدوها الصمت الواقى،
صمتُ نهار صاف مذعن، ثم ترتقى الدرج
فى سلم النداء نحو معبد المستقبل المنشود.
ثم تتقاطر مزقزقة كأنها نافورة تستبق - فى لعبة من وعود -
كلٍّ تساقط فى تعالى دفقها... وأمامَك الصيفُ فى الأفق،
ليس مجرد أسحار الصيف،
ولا تحولها إلى النهار المتوهج بالبدء.
ليس مجرد النهارات التى تحضن الزهور بحنانها،
النهارات القوية المتسلطة فوق وحوْل الأشجار المشذبة المتسقة،
ليس مجرد تبجيل كل هذه القوى الـمُتَكشِّفة،
ليس مجرد المسالك، ليس مجرد المروج عند الغروب،
ليس مجرد الانتعاش العميق الذى نستنشقه إثر عاصفة متأخرة،
ليس مجرد النعاس الذى يدنو منا، ولا مجرد هاجس...
لكنها الليالى أيضا! ليالى الصيف المزهوة،
وكذا النجوم، نجوم الأرض،
آه، أن تموت أخيرا فتعرفَها إلى الأبد،
تعرفَ كلَّ النجوم: أنى لنا أبدا أن ننساها!؟

انظر: كنت أنادى حبيبتى، لكن لم تكن وحدها
تلبى ندائى... فمن قبورهن الهشة كانت الفتيات
ينهضن ويحتشدن... فكيف لى أن أخصصها ـ
حين ناديت ـ بندائى؟ الأرواح الفجة ما برحت
تقصد الأرض، المعاناة الدنيوية الفريدة، وإن كانت مرة
واحدة، تكفيكم حقا، أيها الأطفال، طوال العمر.
لا تحسبوا القدر شيئا آخر غير مصير الطفولة
لكم تجاوزتم من تحبون، وتنفستم، تنفستم الصعداء
إذ انطلقتم نحو الرحاب إثر مطاردة هنيئة.

الوجود هنا مجيد حقا، حتى أنتن كنتن تعرفن ذلك،
أيتها الفتيات اللواتى بَدوْنَ ضائعات، غارقات...
فى أقذر شوارع المدينة، تتقيحن هناك، وأنتن مهيآت لتَلَقِّى القاذورات؛
فكل واحدة منكن كانت لديها ساعة، أو ربما أقل من ساعة،
زمن لا يكاد يقاس بين لحظتين... حين كنتن توهبن
إحساسا بالوجود، كنتن توهبن كل شىء، وكانت

عروقكن تتدفق وجودا، لكننا ننسى بسهولة
ما ليس يؤكده ولا يغبطنا عليه جارنا الضاحك،
نريد أن نعرضه، أن نجعله مرئيا، مع أن أبرز تجل للسعادة
لن يكشف لنا عن نفسه قبل أن نحوله، قبل أن نحوله فى الباطن.

لا مكان ـ أيتها الحبيبة ـ يمكن أن يقوم العالم فيه إلا فى باطننا،
حياتنا تمضى ممعنة فى التحول. أما الظاهر فيمعن فى الانكماش،
وحيث كان، فيما مضى، بيت راسخ، يعترض طريقنا الآن
بنيان ذهنى ينتمى كليا إلى عالم المفاهيم، كأنه مازال قائما فى الذهن،
عصرنا شيد لنفسه خزانات للطاقة شاسعة،
خزانات عديمة الشكل مثل الطاقة المنهكة التى ينتزعها من الأرض،
المعابد لم تعد معروفة. إننا نحن الذين نخزِّن سرا إسراف الفؤاد،
وحيث ما يزال أحد المعابد قائما، ثمة شيء كان فيما مضى معبودا ـ
له يصلى الناس وأمامه يركعون ـ شيء يعبر، دون أن يتبدل،
إلى العالم الخفى،
لم يعد كثير من الناس يدركونه، لكنهم يضيِّعون الآن فرصة بنائه
فى صميم الأفئدة بالأعمدة والتماثيل كى يكون أعظم مما كان.

كل دورة بطئيه من دورات العالم تخلف مثل هؤلاء المحرومين،
هؤلاء الذين لا يملكون الماضى ولا يملكون الآتى؛
فاللحظةُ الأدنى ذاتها بعيدة عن منال البشر، لكن هذا
لا ينبغى أن يربكنا، بل ينبغى أن يجعلنا أقوياء فى أداء مهمتنا،
مهمة الحفاظ على الشكل الذى ما يزال بوسعنا التعرف عليه،
كان هذا الشكل فيما مضى قائما بين البشر، قائما رغم
القدر الماحق، رغم جهل المصير؛ خالدا كان يبدو،
وكان يجعل النجوم من سماواتها المحروسة تهفو إليه، لكَ، لا
لغيرك،
أيها الملاك، سأريه، إنه هناك فانظر إليه! سيكون قائما فى
مجال رؤيتك
الذى لا يُحد، هاهو الآن منتصب، أخيرا، وقد تم إنقاذه:
الأعمدة، الأبراج، أبو الهول، العلو المنافس، علو الكاتدرائية
الكالحة، الكاتدرائيةِ البادية من مدينة أجنبية أو مدينة متوارية.

ألم يكن كل هذا معجزا؟ اندهشْ، أيها الملاك! فنحن كل هذا،
يا أيها العظيم، اشهدْ أننا استطعنا أن ننجز هذا، فنفَسى عن مثل

هذا المديح قاصر، نحن لم نختنق إذن فى امتلاك هذه الفضاءات
المترامية (لا ريب فى أن عظمتها تبعث على الرهبة،
فآلاف السنين لم تجعلها مغمورة بأحاسيسنا).
لكن كان ثمة برج عظيم، ألم يكن كذلك؟ بلى، أيها الملاك ـ
حتى حين يُقارَن بك؟ عظيمةً كانت كاتدرائية شارتر ـ وكان النغم
يتعالى فيتجاوزنا، لكن المرأة العاشقة نفسها ـ
تلك المتوحدة المطلة ليلا من نافذتها ...
ألم تبلغ ركبتَك ـ؟

لا تحسبن أننى أتودد،

وحتى إن فعلتُ، فإنك لن تأتى، أيها الملاك؛
فندائى مفعم أبدا بالرحيل؛ وأنت لن تستطيع أن تغالب
مثل هذا التيار الجارف، شبيه بذراع ممدودة هو ندائى،
راحتُها تظل أمامك مفتوحة وممدودة نحو الأعلى،
كأنها تنذر وتحمى،
يا من لا سبيل إلى بلوغه، أيها الممعن فى الأعالى.

المرثية الثامنة

مهداة إلى Rudolf Kassner

بكل عيونها تنظر المخلوقات إلى الخلاء،
وحدها عيوننا تُوجَّه إلى الخلف، وتُنصَب
شِراكا صبيانيةً للحيوانات والنباتات
المنطلقة أبدا نحو انعتاقها،
من نظرة الحيوان وحدها نعرف ما هو موجود هناك
فى العراء؛ فنحن نرغم الطفل على الالتفات
كى يرى الأشياء ـ لا الفضاءَ الذى يشملها،
ذلك العراءَ المتجلىَّ عميقا عميقا
فى وجوه الحيوانات، خالٍ من الموت هو العراء،
ونحن لا نرى إلا الموت؛ أما الحيوان
فيدبر مُعرضا أبدا عن هلاكه، ويضع الربَّ
أبدا نصب عينيه، وإذا تحرك تحرك منطلقا

كأنه الينبوع يمضى متدفقا فى غمرة الخلود.

ما تطلعنا قط ـ ولو مرة واحدة ـ

إلى ذلك الفضاء المحض الذى ما فتئت الزهور

فيه تتفتح، ثمة نرى العالم دوما ولا نرى اللامكان أبدا

إلا منفيا: ذلك العنصر المحض المتصل

الذى يعرفه المرء ويتنفسه أبدا دون أن يرغب فيه،

قد يشرد الطفل هناك لساعات، عبر السكينة الأبدية،

قد يتوه فيها قبل أن يُرَجَّ فيعودَ مفزوعا إلى رشده،

أوقد يموت المرء فيصير تلكَ السكينةَ الأبدية؛

فالمرء إذ يدنو من الموت لا يراه، بل يحدق فى ما وراء الموت،

ولعله يحدق فيه بنظرة الحيوان التى لا تعرف الحدود،

العشاق ـ إن لم يحجب حضورُ الحبيب رؤيتَهم ـ

يقتربون من الموت مستغربين هيابين...

وكأن فى الأمر خطأً ما، يتجلى الموت لكل عاشق

خلف حبيبته... لكن لا أحد منهما يستطيع أن

يتجاوز الآخر، وهكذا يعود العالَم ثانية إلى الظهور،

نلتفت أبدا إلى الأشياء فنرى فيها

مجرد انعكاس لعالم الحرية، ذلك العالم
الذى جعلناه معتما، وأحيانا يتفرس فينا
فى صمت حيوان هادئ،
ذلك ما يقصده القدر: أن نكون على طرفى نقيض،
ألا نكون أبدا إلا متواجهين متعارضين.

لو أن الحيوان القادم من وجهة مختلفة،
والمتحرك بوثوق فى اتجاهنا، يمتلك وعيا شبيهها بوعينا نحن،
لاجتَثَّنا وسحلنا وهو ماض فى طريقه، لكنه يحس
حياتَه رحبةً بلا حدود، عميقةً بلا قرار، ولا يكترث
أبدا لحاله: إنه ينعم بصفاء يضاهى صفاء نظرته إلى الفضاء،
وحيث لا نرى نحن إلا المستقبل، يرى هو الزمن
برمته ويرى نفسه فيه، فيغنم الشفاء الأبدى.

لكن، الحيوان الدافئ المتحفز يرزح
تحت عبء الألم والحزن الهائل الدفين؛
فهو أيضا يقاسى الذكرى، ذلك العبء

الذى يرهق نفوسنا: فكأن ذلك العنصر
الذى لا نكفُّ عن السعى حثيثا وراءه
يصير مرة أخرى أحقَّ، يصير أقرب إلينا،
ويصير وصالنا أرق مما يحتمل، كل شىء هنا بعيد؛
كل شىء هناك أقرب من نَفَس، بعد المنـزل الأول،
يبدو المنـزل الثانى منـزلا غامضا تذروه الريـاح؛
فيا لنعيم المخلوق الضئيل الذى يظل أبدا
فى الرحم الذى يقيه؛
وطوبى للبعوضة، وهى بعد بالداخل، تـثب
نحو حتفها حتى أثناء عرسها: فكل شىء رحم،
وهاهو الطائر شبه واثق، من النبع يعرف
الظاهر والباطن، فكأنه روح شخص **تروسكانى**
طارت من ميت ثم تلقاها الفضاء،
فآوتْ إلى مكان تغطيه هيئة منحنية.
ويا لحيرة أى مخلوق مولود من رحم
حَتْمٌ عليه أن يطـير، يحلق فى الفضاء مراوغا
كأنه مفزوع يفر من ذاته،

وكأنه الشق يسرى فى خزف الفنجان، هكذا
يرتعش الخفاش عبر خزف المساء.

أما نحن، المتفرجين، فلم ننظر قط إلى الخارج،
كنا، حيثما وُجِدنا، ننظر دوما إلى عالم الأشياء،
يغمرنا، نرتبه، ينهار،
نعيد ترتيبه، ثم ننهار نحن.

من ذا الذى جعلنا ندور هكذا،
ونظل ـ مهما فعلنا ـ فى وضع
شخص راحل؟ فكما يفعل شخص راحل
حين يتوقف، لآخر مرة، ويلتفت ويتلكأ
على أبعد تل يرى منه الوادى بأكمله،
نعيش نحن هناك، فى وداع أبدى.

المرثية التاسعة

لماذا ـ وهذا العمر قد يسرع نحو الفناء، كأنه إكليل من أكاليل الغار،
كأنه إكليل أشدُّ دكنةً من كل ما يحيط به من خضرة، إكليلٌ تكتنف حواشى
الأوراق به مويجاتٌ تشبه بسمات النسيم ـ آه، لماذا ينبغى
أن نظل بشرا فَنَتوقَ ـ إذ نتجنبُ القَدر ـ إلى قدر آخر غيره؟ ...

لا لأن السعادةَ ـ ذلك الربحَ السريع
الذى ينذر بخسارة وشيكة ـ موجودةٌ حقا،
ولا بدافع حب الاستطلاع، ولا لمجرد تمرين لقلب شبيه
بذلك الذى قد يكون ما يزال نابضا فى إكليل الغار...
لكن لأن الوجود هنا يعنى الكثير، ولأن كل ما هو
موجود هنا يبدو، لكونه فانيا، فى حاجة إلينا
ويبدو أنه يظل ينادينا نداءً غريبا، يستنجدُ بنا نحن الأشدَّ فناءً، مرةٌ واحدة فقط

لكل شيء، مجردُ مرة واحدة، مرةٌ واحدة لا أكثر، ولنا نحن،
أيضا، مرة واحدة،

ولا مرةَ بعدها إلى الأبد، لكن وجودنا هذا ـ

وجودَنا لمرة واحدة، ورغم أنه لمرة واحدة فقط،

وجودَنا على هذه الأرض لمرة واحدة ـ هل يمكن أن يُلغى؟

وهكذا نُثابر سعيا إلى تحقيق وجودنا،

ونحاول أن نُحكِم عليه قبضتَنا،

أن نحصره في النظرة المكتظة وفي القلب الأخرس،

نحاول أن نصير نحن وجودَنا، لمن نَهبُ وجودنا؟

أوْلى بنا أن نتشبث به إلى الأبد... لكن يا أسفاه، ماذا نحمل

حين نعبر إلى الناحية الأخرى؟ لا نحمل النظرَ الذي

اكتسبناه هنا ببطء، ولا أيَّ حادث مما حدث هنا.

لن نحمل إلا المكابدة: قسوةَ العيش وفداحةَ مصيرنا وجراحَ
العشق المستديمة؛

لا نحمل حقا سوى ما لا يقال، لكن أي جدوى بعدئذ تحت
هذه النجومِ،

هذه النجوم التى تتوغل عميقـا فى صمتها؟ أليس حَـرِيا بنا أن نظل نحن أيضا صامتين؟

لكن النبات المتعرش، إذ يعود من الجبل،

لا يحمل إلى الوادى حفنةً سريّة من تراب، بل كلمةً ما، مجردَ كلمة،

كلمـةً نالها بجـهد: زهرةً مـن زهور الجنطانيا، زهرةً يصـاحب فيها الأصفر الأزرق.

ولعلنا وُجِدنا هاهنا لا لشيء إلا لأن نقول:

بيت، جسر، نبع، بوابة، إبريق، شجرة مثمرة، نافذة ـ

أو ربما: عـمـود، برج؟ ... لكن مـجـردَ النطق بهـذه الأشـيـاء يضفى عليها

من الصـفات مـا لم تكن قط لتـدرك أنها يمكن أن تـتـصف به، أليس الهدف

الذى تُـخفيه الأرضُ الماكرة إذ تستحث عاشقَـيْن

هو أن تجعل كلَّ الأشياء تَـتواثبُ نشوى على إيقاعها الباطنى؟

عتبة: ماذا يهم العشاق

أن يمزقوا عتبات أبوابهم إربا إربا؟

سبقتهم حشودٌ وبعدهم ستأتى حشود... سُـنَّـةٌ لا تبديل لها!

هو ذا زمنُ ما يمكن أن يقال، وهنا موطنه،
تكلمْ واعترفْ، هذا زمنٌ تموت فيه الأشياءُ
التى نحبها وتندفع الأشياءُ التى لا نحبها
لتحل محلها: ظلالٌ تلقيها ظلال:
تحفظ البيضةُ ما فيها زمنا، لكنها تنشق عنه طوعا حالَما
تضيق بنموه فيتجاوز حدودها منطلقا نحو آفاق جديدة،
وبين المطارق يواصل القلبُ حياته، كما يظل حيا
بين الأسنان اللسانُ : يظل، رغم كل شيء، منبعا للمديح.

مَجِّدْ للملاكِ هذا العالَمَ، لا ذلك الذى لا يوصف:
ماذا تعنى له أمجادك؟
لستَ سوى راهبٍ مبتدئٍ فى عالم رهفتْ فيه أحاسيس الملاك؛
فلْتُرِه شيئا مألوفاً، شيئا توارثتْ صياغتَه أجيالٌ بعد أجيال
حتى استقر بأيدينا وأمام عيوننا وصار جزءا من نفوسنا،
حَدِّثْهُ عن الأشياء! وسيقف منبهرا، كما وقفتَ أنت
أمام صانع الحبال فى روما أو أمام ذلك الْخَزَّاف على ضفة النيل،
أرِهِ مقدارَ سعادة الأشياء التى نملكها، والتى لا تعرف اللوم،

أره كيف يستطيع نواح الحِداد الـمُـرّ
أن يكون أبلغَ من شجو كمان حزين،
هذه الأشياء التي تـقتاتُ على الفراق تفهمُ حين تُمَجِّـدُها
ما تقوله: ولأنها إلى زوال، فإنها تسعى إلى النجاة
عن طريق شيء ما يكمن فينا. نحن أشد الخلائق فناء،
تريد منا أن نُـغَـيِّـرها تماما، داخل قلوبنا الخفية، تريد منا أن...
أن نحيلها أبدا، نحيلها ـ آه ـ إلى أنفسنا، كائنين من نكون!

أيتها الأرض، أليس هذا بالضبط ما تريدين: أن تَنشئي
فينا خَـفِـيَّـةً؟ أليس حلمُك أن تكوني
يوما ما غير مرئية؟ يا أرض! يا أيتها الخفية!
ما هو طلبُكِ الـمُلِحّ إن لم يكن هو التحول؟
يا أرض، يا أيتها الحبيبة، هاأنذا أَقبَـل! صدقيني، آه،
لم تعودى فى حاجة إلى مواسم الربيع كى تستميليننى:
موسمٌ واحد، آه، موسمٌ واحدٌ يفوق ما يمكن أن يطيقه دمى،
فوق كل الأسماء كنتُ دائما وما أزال مِـلْـكَـكِ.
كنتِ دائما محققة، وكان الموتُ ـ

رفيقُنا الحميم ـ إلهامَـكِ الأقدس،
انظري: هاأنا أحـيـا. فـمـا الذى يجـعلنى أحـيـا؟ لا الطفـولة تتناقص،
ولا المستقبل... فيضُ الوجود ينبع فى قلبى.

المرثية العاشرة

لأُنشد يوما ـ بعد خلاصى أخيرا من هذه الرؤيا الرهيبة ـ
مدحا وأهلِّلْ إجلالا للملائكة الرضية؛ دعواتى ألا تُخفق
نغمة تصدر عن وتَر من أوتار قلبى، ألا تُخفق
لأن ذلك الوتر واهن أو متردد أو مقطوع؛
وليـنبجسْ التألق من وجهى المبتهج فتتفتق أخيرا
هذه الدموع الخفية أزهارا فى أوج التفتح،
آه كم سأكون آنئذ معتزا بكِ أيتها الليالى الأليمة!
آه يا شقيقات العويل، لماذا لم يكن ركوعى أبطأ
كى أرحب بكن ـ لماذا لم أكن أكثر خنوعا
كى أغرق فى شعوركن المحلولة المنسكبة؟
إنا نحن أهدرنا آلامنا بالتحديق فى ما وراءها
نحو التخوم البائسة، تخومِ الجَلَد التى سعينا إلى معرفة نهاياتها؛

فآلامنا ليست إلا أوراق شتائنا، ليستْ إلا خضرتنا الدائمة الكئيبة
ليستْ إلا موسما واحدا في سَنتنا الباطنية؛
و آلامنا لم تكن مجرد موسم، بل كانت
بلادا، وطنا، ملاذا، تربة ومقاما.

يقين ـ واأسفاه ـ أننا غرباء في دروب مدينة الأحزان حيث يطرح
قالبُ الفراغ ـ في الصمت المزيف الصادر عن صلصلة لا تنقطع ـ
يطرح هيئةً تتبختر: ضجيجا مُموَّها، نصبا تذكاريا مُسفِّها،
آه، ليت الملاك يدوس بعزم سوق عزائهم ويسحقها غبارا،
تلك السوق التي تعرض فيها الكنيسة صكوكها المنحرفة:
سوق نظيفة، معتمة، ومحكمة الإغلاق كأنها مكتب البريد
في يوم الأحد. وفي الخارج لا تكف عن التموج أطراف الكرنفال،
أراجيح الحرية! غواصون مهرة وبهلوانات متحمسون!
والأهداف المزينة
بالسعادة في رواق الرماية: أهداف تتلوى متساقطة كلما أصابها
قناص ماهر ـ قناص، أصابه التصفيق بالدوار فانبرى يبحث عن
حظوظ أخرى، فزلَّ وسط الطريق حيث تغوى فتن شتى عارضة

بالطبل والنداء بضائعها، للبالغين فقط ـ إغراء خاص:
صور للعملات! يا للدغدعة! حياة النقود الجنسيةُ،
عارية أمام عينيك، الأعضاء التناسلية وكل شيء ـ إنها صور تربوية
وهى تضمن أن تُعزز فحولتك...
ووراء آخر لوحة للإعلانات ـ ملصقات عن "الخالدة"،
الجعة المرة التى يستلذها شاربوها(لو تناولوا معها مزة طازجة) ـ
ويَلى اللوحةَ، خلفها تحديدا، العالمُ الواقعى، الأطفال يلعبون،
العشاق يتعانقون، وفوق العشب على الجانب، يلبى الكلاب بكل
عزم أوامر الفطرة، يُستدرَج إلى الحقول فتى يعشق مناحة يافعة،
يتبعها، تقول له: "هناك، بعيدا هناك نقيم!" يسألها وقد أغواه قوامها:
"أين؟" كتفاها وجيدها يشيان بأصل نبيل، وفجأة يتركها؛ يستدير
يلوح مودعا، أى جدوى؟ أليستْ مناحة؟
وحدهم أولئك الذين ماتوا صغارا، فى السكينة
المبكرة المقترنة بفطامهم، يتبعونها بشغف،
تنتظر العذارى وتصادقهن، وبرقة تريهن زينتها:
لآلئ الأسى وحجبا نُسجتْ بإتقان من الصبر الجميل،
وتسير صامتة بجانب الشبان.

وبعيدا هناك فى الوادى الذى يسكنونه
تُدلل بالحنان مناحةٌ عجوز فتى يسائلها،
تحكى له: "كنا، نحن المناحات، فيما مضى عائلة كبيرة،
آباؤنا كانوا يعملون بالمناجم فى تلك الجبال،
مازال بوسعك أن تعثر وسط الرجال على كتلة حزن مصقولة،
أو على شذرة غضب متحجر تشكلت من رماد بركان عتيق،
أجل، من تلك الجبال انفجر، كنا فى ما مضى أثرياء".

وبرفق تقوده عبر بوادى النواح الرحبة،
تريه أعمدة المعابد وتريه الأبراج المتهدمة التى كان أرباب النواح
يحكمون منها البلاد بحكمة فى سالف العصور... تريه الأشجار الباسقات ـ
أشجارَ الدموع، وتريه حقول الويل فى أوج الإزهار (ويل يعرفه الأحياء مجرد نبتة لما تتبرعم)؛ وتريه قطعان الحزن وهى ترعى،
ومن حين لآخر يمرق عبر نظرتهما نحو السماء طائر جافل ينقش على الغيم
مناحته الموحشة، وتقوده فى الغسق إلى قبور العرافات والأنبياء المنذرين ـ

إلى قبور أرباب النواح الذين عُمِّروا طويلا، وإذ يُرخى الليلُ سدولَه
يخففان الوطء، فيتجلى الضريح سابحا فى نور القمر، يتجلى ذلك
السادن الأبدى الذى يحرس كل شيء، توأم السادن القابع قرب النيل،
أبى الهول النبيل: طلعةِ الغرفة السرية، يعجبان للهامة الملكية التى
حددت بصمت، وإلى الأبد، ملامحَ البشر بمقاييس النجوم.

بصرُه الذى جعله الموت المبكر أعشى مازال عاجزا عن الإدراك،
لكن نظرة المناحة تجعل البومة تجفل خلف حافة التاج، برفق يمس الطائر
الوجنة المكتنزة، وبلمسات خافتة بطئية يوقع على سمع الميت الجديد،
كأنه يرسم تخطيطا لا يوصف على صفحتى كتاب مفتوح.

وفى الأعالى تبدو النجوم، جديدة، نجوم بلاد النواح،
ببطء تتلو العجوز الأسماء: "انظر هناك: "الراكب" فـ"العكاز".
أما المجموعة الأكبر فيسمونها "إكليلَ الفواكه"،
وفوقها، من جهة القطب، 'المهدُ' فـ'الطريق' ثم 'الكتاب المتوهج'،

ثم "الدمية" ثم "النافذة"، وفى السماء الجنوبية تتألق الميم الوضاءة
واضحة كما تلوح الخطوط بباطن الراحة ـ والميم ترمز إلى الأمهات"،

لكن الموتى لابد أن يواصلوا رحلتهم دون رفيق، تقوده المناحة العجوز

بصمت حتى يبلغا الغدير، غديرا منه ينبثق نبع البهجة وامضا فى ضوء القمر،

تصف الغدير بإجلال قائلة: "أبدا يتدفق، نحو عالم الإنسان".

.

يتوقفان عند سفح الجبل فتعانقه وهما يبكيان.

وحيدا يبدأ التسلق نحو قمة الألم العتيق، وليس يُسمع
لخطواته صدى على الدرب الموحش، درب القدر.

لو قُدِّر للموتى أن يُرونا صورةً لأشاروا إلى عناقيد الأزهار المتدلية

من أغصان أشجار البندق العارية، وربما تكلموا فكان كلامهم
قطرات مطر تتساقط على الأرض العابسة فى أوائل الربيع،

أما نحن ـ نحن الذين ما فتئنا نعتبر السعادة
ارتقاءً ـ فنحس إحساسا ماحقا
يغمرنا كلما انهار كائن سعيد.

السونيتـــات

الجزء الأول

I

شجرة تسامت هناك! آه أيها التعالى الخالص!
آه أورفيوس يغنى! آه يا شجرة فى السمع سامقة!
صار كل شىء صامتا، لكن فى ذلك الصمت،
برزت إشارةٌ، تحولٌ، بدايةٌ جديدة.

احتشدتْ مخلوقات مقبلة من سكون الغابة الساطعة،
من غابة لا حدود لها، هبَّتْ من عُرُنها وأوجارها وأعشاشها؛
ولم يكن هدوؤها المتوجس،
لخمول أو خوف أو مكر،

بل لمجرد الإنصات، وبدا واهنا فى قلوبها كل ذلك الخُوَار،
والصياح
والزئير، وحيث لم تكن الحشود لتجد حتى كوخا يؤويها،

برز ملجأٌ شيد من أحلك تَوْق، من توق تلك المخلوقات،
شيد ملجأٌ تهتز أعمدة مدخله:
في أعماق سمعها، أنشأتَ للعبادة هيكلا.

II

كانت عذراء تقريبا، تجلتْ هنا
من هذا الفرح الذى اقترن فيه الغناء بالقيثار
ومن وراء حجب الربيع النضرة أشرقتْ ساطعةً كأنها النار
واتخذتْ لنفسها فى سمعى مضجعا

و نامتْ فىّ،. وَسِعَ نومُها كلَّ شىء:
الأشجارَ التى كنتُ دائما بها مفتتنا،
وتلك المسافاتِ المُدرَكةَ، والمروجَ المحسوسة،
وكلَّ العجائبَ التى أثرتْ فىّ.

وسعتْ نومَ العالم. أيها الإله المنشد، كيف أحسنتَ
فى البدء خلقَها حتى إنها لم تشأ أن تستيقظ؟
انظر! إنها كانت تحلم وهى واقفة.

أين موتها إذن؟ هل تبتدعه
قبل أن تبدد أغنيتُك ذاتَها؟
أين غابتْ عنى، أين؟... عذراء تقريبا...

III

الإله على ذلك قدير، لكن هل يقدر فانٍ
على أن يخترق القيثارة الرقيقة ويواصل؟
فكرُ الفانى مضطرب، ولن تجد **لأبولو** معبدا
حيث تتقاطع طرق القلب.

فالغناء كما علَّمتَه ليس شهوة،
ولا مغازلة لما يمكن أن يُنال؛
الغناء هو الوجود، ليس عسيرا على الإله،
لكن متى يأتى بنا الإله إلى الوجود؟ و متى يجعل

الأرضَ و النجوم حاضرة فى وجودنا ؟
ليس العشق ـ أيها الفتى ـ مُلهِمَ
لسانك المتدفق شجونا.

تَعلَّمْ أن تنسى الغناء: فالنبع حتما سينضُب،
الغناء الحق زفرة غير مألوفة،
نفخةٌ فى العدم، هَبَّةٌ فى الرب، عاصفة.

IV

أيتها الرقيقات، تجولن من حين لآخر
فى النسمة التى تهب باردة،
ولْترتعشْ على خدودكن وتنشطرْ؛
فسوف تلتئم وترتعش ثانية خلفكن.

آه أيتها المباركات، يا من أنتن مكتملات،
يا من تظهر فيكن بداية القلوب،
يا أقواس السهام وأهدافَها،
افرجن شفاهكن عن بسمة تظل أبدا فى صفاء الدمعة.

لا تَـهَـبْنَ الألـم؛
أعدن تلك الوطأة إلى ثِقَل الأرض:
فالجبال ثقيلة والبحار ثقيلة،

حتى الأشجار الصغيرة التى غرستنها وأنتن صغيراتٌ
صارتْ منذ أمد بعيد ثقيلة؛ لن تستطعن الآن حملها،
لكن الريح... لكن الفضاء...

V

لا تشيدوا الأنصاب، فقط دعوا الورود
تتفتح من أجله كل سنة؛
فذلك **أورفيوس**، تجلياته شتى،
عبث أن نجهد أنفسنا

سعيا وراء الأسماء، ذلك **أورفيوس**،
موجود أنى وُجِد الغناء، الآن وإلى الأبد.
يحضر ويغيب، أما يكفى بقاء سعيه
بضعة أيام بعد فناء الزهرة والمزهرية؟

حتم عليه أن يتلاشى هو لتفهموا أنتم،
مع أنه يقلق لفنائه!
فحين تمتد كلمته وتتجاوز الوجود،

تجده سابقَك إلى حيث لا تستطيع أن تجاريَه،
شبكةُ القيثارة لا تقيد أناملَه،
وهو مطيع وإن كان معتديا.

VI

أهو من هنا؟ كلا، بل نما
من عالمي طبيعته الرحبة،
لا يثني غصيناتِ الصفصاف ببراعة
إلا من كان بجذور الصفصاف عليما.

حين تذهب لتنام، لا تدع الخبزَ والحليب
على المائدة: فهما يجذبان الموتى،
سيستحضرهم ذلك القادر على أن يمزج

تحت جفنيه الرقيقين وجوهَهم بكل الأشياء؛
ذلك القادرُ على أن يرى سِحرَ السَّذاب
وسحر الشَّوْكَران يسريان في كل الأشياء.

لا شئ يبخس رؤياه الصادقة،

من قبر جاءتْ أو من منزل،

فليمجِّد الإبريقَ والسوارَ والخاتمَ.

VII

المديح... أجل هو بالضبط ذاك!
مادحا ومبارِكا جاء، كالمعدن من منجم كتوم،
آه بقلبه جاء، بذلك العاصرِ الفانى،
بقلبِه الواهبِ الناسَ خمرا خالدة.

حتى الغبار لا يستطيع أن يكتم صوته
حين يتملكه ذلك الرمز الشبيه بالإله،
يصير كل شىء كروما، يصير كل شئ
عناقيد معتقة فى سحر جنوبه الدافئ.

لا العطن هناك فى أقباء الملوك،
ولا الظل تُسدله الآلهة فوق أيامنا،
بمستطيعيْن أن يُكذِّبا مديحَه.

إنه أحد الرسل الخالدة، يظل يقدم للموتى،
من خلال بواباتهم المتألقة،
أطباق الفواكه ليمدحوها.

VIII

فى فضاء المديح فقط
تمضى المناحة ـ تلك الحوريةُ، حوريةُ النبع الدامع ـ
تمضى حرةً وتحرس وابل سيلنا الجارف
الذى أجرته أمطارُنا صافيا فوق تلك الصخور،

تلك الصخورِ التى تحملِ البوابة والمُصلَّى ـ
انظر! على كتفيها الهادئتين يثمر الإحساس
بأنها الشقيقة الصغرى
فى أُخوَّة الطبائع والميول.

البهجةُ تَعرفُ، التوق يُجيز ـ
وحدها المناحة ما تزال تتعلم، تراها طوال الليل
تُحصى الجراح القديمة بيديها الطفلتين.

لكنها ـ على خُرْقها ـ ترفع فجأة غناءنا،
و تُودِعه كوكبةَ نجوم فى السماء،
فى سماء صافية لا تشوبها غيوم أنفاسها.

IX

لا يحق إلا لذلك الذى
رفع القيثارة
وسط الأشباح
أن يتغنى بمديح خالد حكيم.

وحده، ذلك الذى
أكل الخشخاش مع الأموات،
سيتذكر إلى الأبد
أخفتَ نغمة.

مع أن الصورة فى البركة
قد تهتز فى أغلب الأحيان،
فاعرفِ الصورة.

لن تصفو الأصوات وتصير خالدة
إلا حين يقترن هذا العالم
بذلك العالم.

X

أنت التى لم تبرحى طويلا قلبى،
أُحبِّكِ، أيتها الأضرحة العتيقة،
يا من يتدفق فيك الماء الهنىء ـ
ماء العصور الرومانية ـ كأنه أغنية شاردة.

وأحبكِ، يا أيتها النـزيهة كعينى راع،
يقظتين مبتهجتين، تسودكِ السكينة
ونبات القُرَّاص، وأزيز فراشات نشوى؛

أحبك يا كل الأشياء التى نجت من شراك الشك،
وأحبى أفواها انفتحتْ ثانية،
تلك الأفواه التى أدركتْ معنى الصمت.

هل نعرفها أو نجهلها أيها الأصدقاء؟
تلك الساعةَ الغامضة المترددة، تلك التى
يتوازى فيها العلم والجهل على وجه الإنسان.

XI

انظر إلى السماء، أليس ثمة كوكبة نجوم
تسمى "الفارس"؟ غريب أن نراها كذلك:
نراها مفخرةَ الأرض، وثمة صورة لفارس آخر:
يحث الأولَ ويشكُمه ويتحمله.

أوليس مسارنا بطبعه عنيدا:
طريدا وفى النهاية مقهورا؟
مطاردة وانعطاف، ضغط وصمت،
آفاق جديدة، ثم يتوحد الاثنان.

لكن هل حقا يتوحدان؟ ألا يواصلان
الطريق الذى اختاراه معا منفصلين؟
لابد أن يفترقا عند المربط والعلَف.

قد تَخدع فى كوكبتها النجومُ،

لكن لنبتهج بتصديق

الصورة، ولو إلى حين، هذا يكفينا.

XII

المجد للروح القادرة على أن تُوَحِّد!
فحياتنا ليست فى الحقيقة سوى صور،
وعقارب الساعات فيها تتئد
مصاحبةً يومنا المعيش.

لا نعرف حقا أين نحن،
لكننا نتصرف كأننا نتواصل حقا،
يحس الهوائى بوجود هوائى بعيد
فينقل الفضاءُ الفارغ...

التوترَ المحض. آه يا نغم الطاقات الخلاقة!
أليست همومنا التافهة تحميك
من نشاز كل المناوشات؟

حتى الفلاح الذى يعيش ويكدح حيث
تُحوِّل البذورُ نفسها فى موسم الصيف
لا يفعل كل شيء: الأرض تُجزل العطاء.

XIII

التفاح الناضج، الكُمَّثرى،التوت البرى،
الموز الصقيل... كلها تنطِق
بالموت وبالحياة... هذا حدسى...
اقرأه فى محيا الطفل وهو يذوق

هذه الفواكه، هذا حدس مصدره بعيد،
هل تفقد الفواكه ببطء أسماءها فى فمك؟
من الفواكه تتدفق الاكتشافات
فى فمك فجأة وتُعوِّض الكلمات،

هل تجرؤ إذن أن تقول ما التفاح؟
مذاق حلو يستسلم لمداعبة اللسان،
تحس حلاوته فى البداية مُرَكَّزَة،

ثم تصير صافية، يقظة، شفافة،
موحية، مشمسة، ترابية، حاضرة:
وتنفجر فى النهاية نشوة غلابة.

XIV

نشاطر الزهر والأوراق والكروم والفواكه مواسمها؛
إنها لا تتكلم فقط لغة المواسم،
لعل هذا الوحى الباذخ الصاعد من الظلام
لَمَحَ ومضةً من الغبطة الصماء ـ

غبطةِ الأموات، غبطة أولئك الذين يعززون التربة،
هل بوسعنا أن نتصور كيف يرون دورهم فى هذا؟
أولئك الراقدون تعودوا منذ غابر العهود
أن يمزجوا التربة المخصبة بنخاع عظامهم.

فهل يفعلون هذا بمحض إرادتهم،
وهل يثمر هذا الكدح ـ كدح هؤلاء الأقنان ـ
غلالا نجنيها، نحن السادة؟

أم هل هم السادة: يرقدون جنب الجذور،
ومن قبورهم الفياضة يتفضلون علينا
بهذه الغلة الوسط بين القوة الصماء والقُبلات؟

XV

انتظروا لحظة... الطَّعم لذيذ... لكنه زال،
نغم زائل، قرع، دندنة ...
أيتها الفتيات، و أنتن الصامتات الدافئات،
ارقصن نكهةَ ما اشتهيتن من فاكهة الخريف!

ارقصن البرتقالةَ، من يستطيع أن ينسى البرتقالة،
وينسى كيف تُغرق نفسها وهى تصارع حلاوتها؟
كانت البرتقالة برتقالتكن،
وبلذة حولتْ نفسها فصارت فتيات.

ارقصن البرتقالةَ، اطرحن عنكن البلاد الأدفأ
لتشرق فى فضائها
البرتقالةُ الساطعة! البرتقالةُ المنيرة كشفتْ

طبقة عاطرة عن طبقة عاطرة! اجعلن من أنفسكن
أخواتِ الصفاء، وارفعن كأس اللحاء الممانع،
وكن شقيقات للعصارة التى تملأ ذلك اللحاء السعيد.

XVI

أنت تشعر بالوحدة ـ يا صديقى ـ لأنه ...
بكلمات منا وإشارات من أصابعنا نؤكد
بالتدريج ملكيتنا للعالم، نؤكد ملكيتنا
حتى لأخطر مناطقه وأشدها اهتزازا.

من يستطيع أن يشير بإصبعه إلى رائحة ما؟
ولكنك قد تدرك الكثير من القوى
التى ترعبنا... فأنت تعرف خطورة الموتى،
وتهاب سحر الساحر.

انظر! علينا أن نقبل الأجزاء،
ونتظاهر بأننا ندركها كلا،
صعبٌ عليْ أن أساعدك. لا تغرسنى

أبدا فى قلبك؛ فأنا أنمو بسرعة،
لكننى سأوجِّه يدَ مولاى وأقول:
انظر هنا، ها هو **"إساو"** مرتديا فروه.

XVII

عميقٌ ذلك الجذر المجهول العتيق،
جذرُ كل الأشياء التى تنمو،
عميقةٌ تلك الينابيع الخفية،
الينابيع التى لم تُر قط.

بوق الصيد وخُوذة الحرب،
النـزاعات والدعاوى،
أشقاءُ يتميزون من الغيظ،
نساء كالعيدان...

أغصان الشجرة مكتظة،
ليس بينها غصن خال...
ها هو غصن خال! تسلق... تسلق...

أغلب الأغصان ينكسر ويهوى،
لكن هذا الغصن العلوي
يتحمل وينثني قيثارة.

XVIII

مولای، هل تسمع
الدمدمة المستجدة والرنين؟
إنها الرسل
تُنشد أمداحها.

فوضى الحشود الفارّة
ترهق الأسماع،
لكن كل سِن فى العجلة
تتلو صلاتها.

إنظر إلى الآلة:
تقعقع وتتمايل،
تنهكنا وتشوهنا.

منا تستمد طاقتها؛
فَلْتَدُرْ إذن ولتخدمنا
بدون ضجيج.

XIX

مع أن الكون يتغير سريعا
مثلما يتبدل السحاب،
فإن الأمور تكتمل
بالعودة إلى أصلها القديم.

فوق الصَّخَب و التغير،
تحلق عاليا
أغنيتُك الخالدة،
يا إلها يعزف القيثارة.

الألم لا نفهمه
والحب لا نقدره
وما يحجبه عنا الموت

لا يُكشَف أبدا،

وحدها الأغانى تجوب البلاد

تُقدِّس و تُمجِّد.

XX

لكن بماذا أتقرب إليك، يا مولاى، مُرنى،
يا من أنعمت بالسمع على الخلائق؟
أستحضر ذكرى يوم ربيعى فى روسيا،
عند الغسق، فرس...

من القرية أقبل، ناصعَ البياض،
قدمه الأمامية مقيدة، أقبل يعرَج،
ليقضى الليلة على المرج؛
الخُصُلات فى عُرفه

تصفع عنقَه على إيقاع
عدوه المقيد المتخبط،
لكم كانت ينابيع دم الفرس تتواثب!

كان يتنشق رحابة الفضاء،

وإن غنى وسمع، فإن أناشيد

أسطورتك اكتملتْ فيه. لكَ أُقدِّم صورتَه قربانا.

XXI

هاهو الربيع قد عاد. والأرض
طفلة تتلو وتترنم بقصائد
كثيرة، كثيرة! ... جِدُّها
وتحصيلها الدؤوب لم يذهبا سدى.

كان معلمها صارما، وكنا نحب
حبات الثلج على لحية العجوز،
بوسعنا الآن أن نمتحنها فنسألها
ما الأزرق؟ وما الأخضر؟
إنها تعرف، تعرف الجواب!

العبى أيتها الأرض السعيدة، فأنت الآن
فى عطلة، امرحى مع الأطفال، نريد أن نطاردك

أيتها المحظوظة. والفوز للمحظوظ.

كل ما لقنها إياه المعلم،
وكل ما كُتب على الجذور
والجذوع: تُغنِّيه، تغنيه!

XXII

نحن فى المقدمة.
لكن خطو الزمان
فى مسيرة الأبدية
وهمٌ تافه.

كل مستعجل
سيبلغ النهاية عاجلا
إن لم يباركنا
ما هو متمهل.

أيها الفتى لا تبدد
طاقتك فى محاولة الفرار
فتلقى بنفسك فى الظلام.

تأمل هدوء الأشياء:

النورَ والظلام،

الكتابَ والزَّهرة.

XXIII

قبل أن يتخلى الطيران
عن وجهته ويرتقى لا لهدف
سوى أن يجد فى الغيوم
المهجورة ذلك الجذل الأعمق

الذى فقدته تلك الأداة البارعة
التى تحلق على أجنحة النور،
وترحب بخداع الرياح،
رشيقةً، هادئة، غير مكترثة؛

وقبل أن يتخلص الاتجاهُ المحض
من ذلك الانبهار الصبيانى
بجبروت الآلة،

لن يتماهى ذلك الذى بهره الإنجاز
فوجد البعد قربا،
لن يتماهى مع مسار رحلته.

XXIV

أُنْكر أصدقاءنا القدامى، أولئك الآلهةَ العظام
الذين لا يسألوننا شيئا، أنكرهم
لأن كتلة الفولاذ التى أنشأناها لا تقبلهم،
أم نبحث عنهم فى أطلس من الأطالس؟

هؤلاء الأصدقاء الخالدون، الذين يأخذون منا الأموات،
لم يعادونا قط، لم يعوقوا عجلاتنا قط،
كنا أسرع من أن يلحقوا بنا، حماماتنا ووجباتنا الجاهزة
الآن فى منأى عنهم، ولوقت طويل.

ظلت رسلهم بطيئةً فتجاوزناها باستمرار، ولأننا الآن
أشد عزلة، وأكثر اعتمادا، ولا يعرف بعضنا بعضا،
فإننالم نعد ننشئ طرقنا متعرجةً جميلة،

بل نمدها خطوطا مستقيمة. نيراننا العتيقة
لا تشتعل إلا فى مراجل، ولا تَكِلُّ من رفع
المطارق. لكننا نتعب كأننا سباحون منهكون.

XXV

والآن دعينى أتذكرْكِ، أنت التى لم أعرفك قط
إلا زهرةً ليس لها اسم، دعينى أحاولْ أن أريهم جميعا
إياك مرة واحدة فقط، أيتها المخطوفة إلى الأبد،
أيتها الحسناء، يا دمية الصرخة التى لا تُقهَر.

أتذكرك فى البدء راقصةً، جسدا مترددا يتوقف
فى منتصف الخطوة، تمثالَ نحاسٍ صِيغَ من عذريتك،
ينصت حزينا، ولا يجرؤ على الانطلاق... وفجأة
يسكب العازفون المهرة أنغامهم فى قلبك المُتحوِّل.

كان الغثيان وشيكا. كانت الظلال قد اعتقلت
الدمَ فصار قاتما، نابضا. وكما يندفع متهم فارٌّ،
اندفع الدم فى يَنبوعه متفجرا؛

وتدفقت تباعا كتل سوداء، تدفقت
قاتمةً كالطين، وإثر دقة رهيبة
دخل الدم البَوابة المشرعة، بَوابةَ اليأس.

XXVI

لكنك، أيها الإله الشادى، ظللْت تتغنى حتى النهاية،
وحين عزمتْ حشودُ الميناداتَ الغُيُرِ على قتلك،
أغرقتَ صراخهن المسعور بنغمك الرخيم، أيها الإله الجميل،
حولتَ نشازَ صياحهن ألحانا شبيهة بألحانك.

ولم يستطعن ـ على شراستهن ـ
أن يحطمن رأسَك أو قيثارتك؛
صارت كلُّ الحجارة التى قذفن بها قلبك
عند لمسك سميعة ناعمةً.

وفى النهاية قطعن أوصالَك يحدوهن الانتقام،
لكن صوتك ظل خالدا فى الأُسُود وفى الصخور،
فى الغابات وفى الطيور، وإلى الآن، ما زلت تغنى هناك.

آه أيها الإله المفقود! أيها الأثر الأبدى!
ما كنا لنسمع الطبيعةَ ونغنى باسمها
لو لم تُمزِّقْ وتَـنْـشُـرْ أشلاءَك الكراهيةُ العمياء.

الجزء الثانى

I

أيها النفَس، النفَس، يا قصيدة خفية!
أيها الاستبدال التام
لوجودنا بالعالم الممتد!
يا قوة مقابلة أتحقق فيها بالإيقاع!

يا حركة موجة وحيدة
أنا بحرها الدائم:
أنت المحيط بكل بحارنا الممكنة ـ
هاقد صار الفضاء دافئا.

كم إقليمٍ من أقاليم
الفضاء صار بباطنى،
ثمة رياح تبدو

شبيهة بابنى الشارد.

أتعرفنى أيها الفضاء المليء بأماكنى السابقة؟
أنت يا من كنتَ لكلماتى
أوراقا وقوسا ولحاء ناعما.

II

كما تتلقى أيٌّ ورقة قريبة
حركات فرشاة الفنان المتقنة،
تستقبل المرايا
الصورة الخالصة المبتسمة،

صورةَ العذارى يختبرن الصباح وحيدات،
أو وسط هالات شموع خافقة الألسن،
ولا يعود إلى وجوههن الحية بعد ذلك
إلا انعكاس يشبه ابتسامات صدرت عنهن.

كم رأت العيونُ فى اللهب الخافق،
لهبِ النيران التى تخبو فى المواقد،
من ومضات حياة ولَّتْ ولن تعود.

أيتها الأرض المفجوعة، من يستطيع أن يحصى خسائرك؟
لا أحد غيرَ ذاك الذى يواصل نشيده
مادحا ذلك القلبَ الذى وُلِدَ كاملا.

III

أيتها المرآة: ما أحسن أحدٌ قط
وصفَ كنه كينونتك.
أنتِ المليئة ثقوبا كالغربال،
ثقوبا تتراءى فجوات فى الزمان.

ما زلتِ تبددين ذاتك فى الدهاليز الفارغة ـ
تلك الدهاليز التى تبدو فى الغسق رحبة كالغابات.
يصعب اختراقك، لكن الشمعدانات
تخترق عذرية عزلتك كأنها قرون أوعال.

أحيانا تكونين بالتصاوير مليئة:
ببعضها فى أعماق أعماقك ترحبين،
ويصد خَفَرُكِ غيرَها ملوما نادما.

آه، لكن أجمل الحسان تتباطأ فيك

حتى يتجلى مسترخيا ثَم **نرسيسُ**

مشرقا فى نضارة وجنتها الأسيرة.

IV

آه هو ذا الحيوان الذى لم يوجد قط
لم يكونوا يعرفونه لكنهم أحبوا عاداته ـ
أحبوا عنقه، أحبوا وثباته ووقفاته،
وأحبوا الألق فى نظرته الهادئة.

لم يكن موجودا حقا. لكنه صار
حقيقة لأنهم أحبوه. كانوا دائما
يخصصون له مكانا يرفع منه رأسه
قليلا فلا يحس بأى أثر يشير إلى أنه

غير موجود حقا، لم يكونوا يطعمونه قمحا،
ولكنهم كانوا يطعمونه بإحساسهم بأنه قد
يكون موجودا فى مكان ما، وهذا ما منح

الحيوان قوة جعلت قرنا ينمو فوق جبينه،
كان قرنا واحدا، ناصع البياض. تجلى ذات مرة
لفتاة عذراء فاستقر فى المرآة الفضية، واستقر فيها.

V

شبقَ الزهر، يا شبقا يظل يُفَتِّح ببطء
شقائقَ النعمان فى صبح المروج
إلى أن تُودِعَ السماءُ الصارخُ نورَها
فى بتلات رَحِمِك نغمَها الغنى الرنان،

تُودِعُه فى عضو الزهرة الشبيه بنجمة،
ذلك العضوِ المتوتر بالتلقى الأبدى،
الضيقِ بالانتظار، الذى تشنجت قوته
حتى كاد غروب الشمس المؤذن بالسبات

يعجز عن تقليص لَفَّاتِ بتلاتك،
بتلاتك التى انبسطتْ حتى ابتعدت عنك:
يا إرادة القوة المتحكمةَ فى الأكوان!

نحن ـ أهلَ القسوة ـ سنظل أحياء،
لكن كم حياة سنعبر قبل أن نبلغ
أخيرا حياة نتفتح فيها ونتلقى.

VI

أيتها الوردة المتوجة، كان القدماء فى غابر
العصور يرونك مجرد كأس ذات طوق بسيط،
لكننا نراك زهرة يانعة: على محياك
تتفتح البتلات قوافى لا حصر لها.

باذخةً ترتدين رداءً فوق رداء
وجسدك ناحل، مجرد ضياء؛
لكن كل بتلة من بتلاتك نَفْيٌ
قاطع ورفض حاسم لكل رداء.

مضت آلاف السنين وعطرك لا يُضاهَى،
يظل ينادينا بأعذب الأسماء؛
ثم يتدلى بَغتة كالمجد فى الفضاء،

لكننا لا نعرف له اسما، إنما نخمن...
وتمضى الذكرى فى صمت فتمر
بكل ما رجوناه فى ساعة الشجن.

VII

أيتها الزهور، أنتن أخيرا فى كنف أيد ناعمة،
(أيدى عذارى من الماضى ومن الحاضر)،
ها أنتن الآن على المائدة فى الحديقة،
جريحات، ضحايا عنف عطوف،

تنتظرن الماء، حتى تنتعشن قليلا
وتنجون من موت كان قد بدأ،
هاهى الأنامل الرقيقة ترفعكن الآن،
أناملُ قد تمنحكن من العافية

أكثر مما توقعتن، حين استعدتن فى
المزهرية وعيكن ببطء وأنتن نشاوى،
وكنتن منتعشات تبثن دفء العذارى،

كأنه اعتراف بالخطايا، اعترافٌ نعسان مرهَقٌ
بخطايا اقترفتنها بكونكن اقتطفتن، كأنه عهدٌ يوثقكن
بهن، يوثقكن بتلك اللواتى يشاطرنكن التفتح.

VII

أيها الأقران القلائل، يا أقران طفولة
ولت فى حدائق نُثرتْ فوق المدينة:
كيف تلاقينا ونمت الصداقة ببطء بيننا
وكالحمل ذى الزخرف الفصيح،

رغم بكمنا تكلمنا، فإن أقبل الفرح أحيانا،
فهو لم يكن يخص أحدا. فرحَ مَنْ كان يمكن أن يكون؟
كم كان يذوب تحت وطأة العابرين
وفى لهفة السنة الطويلة.

كانت العربات تمر، وكنا نراها عابرة غريبة،
وكانت البيوت قائمة بقربنا، سميكة لكنها زائفة،
ولم يكن أحد يعرفنا قط، هل كان أى شىء حقيقيا؟

لاشيء. الكرات فقط. أقواسها المجيدة.

حتى الأطفال لم... لكن طفلا واحدا،طفلا يحتضر،

كان أحيانا يسير في الحديقة تحت الكرة الهاوية.

(إلى روح إيجون فون رلكه)

IX

لا تتباهوا بالخوازق المهمَلة،أيها القضاة،
لا تتباهوا بأن الأغلال لم تعد حول الأعناق؛
فلا قلب يبتهج مادام قيدُ الصفح
المقصودِ لا يستميل عطفكم.

المِشْنَقَةُ تَرِدُّ بمرور الوقت ما أخذتْ
كما يرد الأطفالُ لعبَهم من هدايا عيد
ميلاد ولى. وحدَه القلبُ المفتوح الطاهر
السامى يطؤه بخطو مختلف

ربُّ الرحمة الخالصة، عنيفا يأتى محفوفا
بنورانيته، يا لَمجده السماوى!
يفوق الرياح إذ ترافق السفن الآمنة العظيمة.

وليس أقل شأنا من الإحساس الخفى الباهت
الذى يستميل أفئدتنا بصمت كأنه وليد يلعب
فى هدوء، كأنه وليدُ وصالٍ لا ينقطع أبدا.

X

لن تكون الآلة إلا تهديدا لكل ما حققناه مادامت
عنيدة فى عصيانها، مصرة على الاستقلال عنا؛
فهى إذ تصر على تقطيع الحجارة بانتظام لتشيد
بنيانا أمتن، تحرمنا من مهارة أصابع الفنان.

وهى لا تتوقف لحظة كى نتمكن من تجاوزها:
تواصل دهْنَ نفسها فى ورشة هادئة وتُشغِّل ذاتها؛
إنها الحياة؛ تؤمن بهذا، وهى به مقتنعة،
وهى بذات العزم تأمر وتخلق وتحطم.

لكن الوجود ما يزال يأسِرنا ؛ ما يزال
يتجدد فى مئات الأماكن. ثمة طاقات جديدة تتفاعل،
لا يلمِسها أو يراها أحد إلا ويركع فى إعجاب،

الكلمات تتلاشى حين نواجه ما لا يقال...
والنغم ـ جديدا ومتجددا ـ يشيد لنفسه من
ثِقَلِ الحجارة معبدا فى مكان لا يصلح للبناء.

XI

تتزايد وسائل القتل العمد، لأنك تتمادى
فى الصيد، أيها الإنسان الباغى؛
لكننى أعرفك أكثر مما أعرف الفخ والشبكة،
يا شريط الكتان المتدلى فوق كهوف **كراست**.

يُدخلونك برفق كأنك شارة للاحتفاء
بالسلام. لكن غلاما نثر حاشيتك،
ومن الكهف قذف الليلُ بضعَ حمامات تخفق
نحو النور أجنحتُها... لكن حتى ذلك كان جائزا.

ليسلمْ الناظر من أى نفحةِ ندم،
لا من الصياد وحده، ذاك الذى يؤدى
واجبه بيقظة وبدون اهتياج،

القتل وجه من وجوه حزننا الطواف...
لكن النفس المطمئنة لا ترى
ما يحدث لنا إلا عدلا خالصا.

XII

أحببْ كل تحول. آه استلهمْ لهيب النار،
حيث ينفلت منك شيء ما، شيء يتموج زاهيا باحتراقه،
تلك الروح المبدعة المهيمنة على كل ما فى الأرض تعشق
نقطة التحول فى التفاف الرمز أشدَّ مما تعشق غيرها.

المتشبث بالبقاء داخل ذاته جامدٌ؛ فهل يوهم
نفسَه بالأمان فى ملجإ اللون الرمادى الغامض؟
لكنَّ الأصلبَ يُحَذِّر، من بعيد، ما هو صُلب ومتحجر،
ويلاه ـ هاهى المطرقة الغائبة تُرفَع الآن عاليا!

من يسكبْ نفسه كالنبع، بالإدراك يُدرَك؛
يستدرجه الإدراك منتشيا عبر الخلق المرح
الذى ينتهى غالبا فى البدء وفى النهاية يبدأ،

كل مكان سعيد يعبره منبهرا وليدٌ من
مواليد الفراق. وهاهى **دافنى** ـ إذ تتحسس
تحولَها المورق ـ تتوقع منك أن تتحول نسيما.

XIII

تَوقعْ وتجاوز أيَّ فراق كأنك تركته
خلفك كما تترك شتاء ولى.
فبين كل فصول الشتاء ثمة شتاء لانهاية له
ولن ينجو قلبك منه إلا بالبَيَاتِ طَواله.

كُنْ فى **يوريديس** ميتا إلى الأبد، انبعث حيا، أشدَّ سرورا
فى حياة لا صدع فيها، تلك الحياةِ التى تبشر بها أنشودتك،
هنا فى ملكوت الأفول وسط عابر الأيام،
كُنْ كأسَ البلور الذى يرنُّ وهو يتحطم.

كن ـ لكن اعرف العدمَ العظيم الذى تنشأ منه كل الأشياء،
النبعَ الذى لا ينضب، نبعا منه تنبثق أعمق رعشاتك،
كى تكون موافقتك هذه المرة غير مشروطة،

وإلى كل الأشياء المستهلكة - كل المخلوقات المكبوتة
الخرساء فى عالم متراجع، إلى كل تلك المجاميع التى لا
تسمى ولا تحصى، أَضِفْ نَفْسَك مبتهجا، ثم ألغ الحساب.

XIV

انظروا إلى هذه الزهور المخلصة للتربة،
هذه الزهور التى نهبها من حافة القدَر قدَرا ـ
لكن من يدرى؟ إن تُكفِّر عن ذبولها،
فعلينا أن نكون لها الكفارة الوحيدة.

كل الأشياء تشتهى أن تطير فى انسياب. ولكننا نتصرف
كأننا أعباء، نجثم على كل شىء، فرحين بثقلنا؛
آه يا لنا من معلمين رديئين! نستنزف المخلوقات
إذ نربيها، وهى بعنفوانها الخالد سعيدة.

لو أخذ المرء الأشياء إلى نومه
ونام معها نوما عميقا، لصار خفيفا كالهواء،
ولاستيقظ من مشاطرة عمقها شخصا جديدا،

أو لعله يظل نائما فتزهر الأشياء تمجيدا له،
تمجيدا لمهتد جديد إلى عقيدتها، لمهتد إلى
عقيدة كل الأخوات الصامتات فى نسيم المروج.

XV

آه أيها الفم النبع، أيها الواهب الأبدى،
يا من ينطِق وحدانية وصفاء ـ
أنت يا قناع الرخام أمام وجه الماء الدافق.
ويا منبع قنوات الماء

فى القمم البعيدة. من سفوح **الإبنين**
القصية تأتيك المياه، تمر بالمقابر،
وتحمل إليك الإشاعات، تحمل إليك الحكايات،
ثم تنسكب من فوق ذَقَنِك الأسود الذى وخطه العمر

بالشيب، تنسكب صافية فى هذا الوعاء أمامك؛
فى هذه الأذن الهاجعة النعسانة،
فى هذه الأذن الرخامية التى مازلتَ تُسر إليها.

أذنٌ من آذان الأرض. وحيدة، دون رفيق،
تحدِّثُ هذه الأرض نفسها. فإن سكبتَ كأسا
ظَـنَّـتْ أنك إنما تقاطع حديثها.

XVI

يظل الإله موطن الشفاء
لأننا لا نكف عن تمزيقه،
نحن محتدون لأننا نريد أن نعرف،
لكنه يظل هادئا وهابا.

لا يَقبل فى عالمه أيَّ شئ موهوب،
ما لم يكن طاهرا ومقدسا،
فهو يقف ساكنا
فى مواجهة الأطراف المتحركة.

هنا البئر التى نسمع عنها،
البئر التى لا يشرب منها إلا الموتى
حين يومئ الإله إليهم فى صمت،

لكننا لا ننال إلا الضجيج،
وتظل الغريزة الهادئة تَحُثُّ
الخروف فيطالب بنعجته.

XVII

أين، وفى أى حدائق تُروى أبدا بالنعيم، وعلى أى أشجار،
ومن أى كؤوس، آه، كؤوسِ زهرَات سقطت برفق
عنهن البتلات، تنضج هذه الفواكه الغريبة، فواكهُ السلوان؟
ما ألذها حين تَقطفُ، من حين لآخر، إحداها من الحقل

من الحقل المَدوس العقيم، حقلِ بؤسك. مرارا تجد نفسك تائها
متعجبا من حجم هذه الفاكهة، ومن سلامتها، ومن لحائها الناعم،
وتعجب من أن أحدا قبلك لم يحظ بها ـ لا الطائر الطائش فوقها
ولا الدودة الغيور عند جذرها.

أهناك، إذن، أشجار ستحتشد عليها الملائكة،
أشجارٌ خفية يشذبها البستانيون ببطء، يشذبونها تشذيبا غريبا
يجعلها تثمر لنا ـ مع أنها ليست لنا ـ ما يشبه تلك الفواكه؟

ألـم نستطع إذن أبدا ـ نحن الظلالَ والأشباح،
بأفعالنا التى تبلغ النضج مبكرا ثم تذوى فجأة ـ
أن نُقلق راحة ذلك الصيف الهادئ؟

XVIII

أيتها الراقصة، يا عبورا نحو الفعل
لكل ما هو عابر: أى هبة أحضرت!
والدوامةُ فى النهاية، تلك الشجرةُ المفعمة بالحيوية،
ألم تتحكم فى السنة الجارفة بأكملها؟

ألم تزهر بالسكينة فجأة تلك الشجرة
التى كنتِ فى دوامة حولها تدورين؟
و فوقها، ألم يكن ثمة شمس وصيف،
ودفء، هذا الدفء الأبدى الذى تغدقينه؟

لكنها كانت مثقلة، بالثمار مثقلة، شجرتُك النشوى،
أوَ ليست هذه ثمارك الساكنة: هذى المزهرياتُ بيانع
الثمار مزينةٌ، وهذى الجرار تستدير بالنضج مفاتنها وتكتمل؟

وما تزال شارتكِ فى تصاويرهم تحيِّى الولوع؛
فهل بوسعه أن يكون غافلا عن لمسة حاجبيك،
تلك اللمسةِ الداكنة المرسومة بخفة على دوامة رقصتك؟

XIX

فى مكان ما يستقر الذهب فى مصرف، مدللا،
صديقا حميما للآلاف. لكن أىٍّ أعمى، أى متسول،
يظل مكانا لا يمكن أن يبلغه البنس النحاسى،
يظل ركنا أغبر تحت الصوان لا تدركه المكنسة.

تبدو النقود مرتاحة فى المتاجر،
مزينة بالحرير والورود والفراء،
ويقف هو صامتا بين أنفاس
كل النقود اليقظة أو النائمة.

آه، كيف تنقبض فى الليل هذه اليد المبسوطة أبدا؟
غدا ينتزعها القدر مرة أخرى، و يبسطها أمامنا
كل يوم: شاحبة، بئيسة، لا يكف عن نسفها،

ليت الناظر المنبهر يستطيع أخيرا أن يبصرها
فيفهمها ويمدح بقاءها! يمدحه مدحا لن يفصح
عنه إلا مغن. ولن يستطيع سماعَه إلا إله.

XX

ما أعظم المسافة بين نجم ونجم! وأعظم منها
ما نتعلمه من حولنا كل يوم.
ثمة طفل... ثم طفل آخر يجاوره...
يا لَهول المسافة!

لعل القدر يخيفنا لأنه يقيسنا متخذا
وجودَنا الفعلى وحدة للقياس؛
حاولْ فقط أن تقيس المسافة بين رجل
وامرأة تستميله وتصده فى ذات الوقت.

كل الأشياء بعيدة... والدائرة لا تكتمل أبدا،
تأمل على المائدة وجه السمكة الغريب
يحملق فيك من مكانه فى الطبق الأنيق،

يقال إن الأسماك بكماء... من يدرى؟

لكن أليس ثمة مكان ما فيه أناس ما

يتكلمون لغة الأسماك، بدون أسماك؟

XXI

تغن، فؤادی، بالجنان تُسكَب فی نفیس المرايا،
بحدائق تظل أبدا مجهولة، صافية، بعيدة المنال.
مياهَ وزهورَ أصفهان و شيراز، مَجِّدْها،
تغن بها، ترنم وباركها فلا شئ يضاهيها.

كن، يا فؤاد، حريصا على ألا تفقدها أبدا،
على أن يكون تينها اليانع لك، لا لغيرك،
كن حريصا على أن تتواثب إلى شفتيك اللاثمتين
نسماتٌ تبثها بين مُزهِر الأغصان ثمارُ ذلك التين.

لا تصدق أبدا أن مصدر المحنة
هو اختيارك أن تكون!
فأنت نسجتَ نفسك من خيوط الحرير،

ومهما تكن صورة الطرز التى حُدِّدتْ لنفسك

(وإن تكن لحظة ألم مطلق)

لا تخطئ: فالسجادة البهية، بكل زخارفها، مقصودة.

XXII

آه، رغم القدر، هذه دفقات الفيض العجيب،
فيضِ وجودنا، يغمر زبدها الحدائق والمغانيَ البهية،
أو يغمر التماثيلَ الحجرية جنب دِعامات
البوابات الشامخة تحت الشرفات!

آه من الناقوس النحاسى الذى يشهر
عصاه ضد رتابة الأيام،
أو العمود، العمود فى الكرنك،
ذلك العمود الذى فاق المعبد خلودا.

عموديا يهبط فائض هذا اليوم
مسرعا من النهار الساطع نحو
ليلة بهرها النور.

لكن العَدْو إذ ينقضي لا يترك أثرا،
مسارات الطيران، ومسارات أولئك الذين طاروا:
لعلها ليست عبثا، لكنها تماما كما تصوروا.

XXIII

ادعنى إلى هذه الساعة من ساعاتك، هذه
التى تقف فى وجهك، والتى لا مفر منها:
حميمةً تتودد إليك كأنها نظرة كلب متوسل
لكنها أبدا تلتفت معرضة عنك

حين تظن أنت أنك أخيرا أسَرتها،
ما يبدو بعيدا عنك أقرب إليك من الوريد،
هانحن أحرار، بعدما طردنا
من حيث كنا نظن أننا سنلقى ترحيبا.

نقلق فنبحث عن عروة نتمسك بها،
نحس أحيانا أننا أصغر من أن نَكْـبَـر
وأحيانا نحس أننا أكبر مما لم يكن قط،

لا نعدل إلا حين نتمادى فى المديح،
فنحن نَصْلُ الحديدِ وغصن الربيع،
ونحن العذوبة، عذوبة الهلاك اليانع.

XXIV

آه من هذا الشوق المتواثب متجددا من الطين الرخو!
ما قدم أحد مساعدة للمجازفين الأول،
ومع ذلك شُيِّدت المدن على خلجان سعيدة،
ومُلئتْ الجرارُ زيْتا وماء.

نرسم فى البدء آلهتنا فى خطاطات جريئة،
فيحطمها القدر النكد واحدا بعد الأخر،
لكنها خالدة، انظر! بوسعنا على الأقل
أن نسمع فى النهاية ذلك الذى يسمعنا.

أنسابنا تمتد عبر الدهور: أمهات وآباء،
تمتلئ بالنسل القادم
الذى سيشهد آجلا هلاكَنا.

طالما جازفنا، فياله من عصر نزعم أنه عصرنا!
الموت الكتوم وحده يعرف قيمتنا،
ويعرف كم يربح حين يُقرضنا.

XXV

ها هى المحاريث الأولى تنطلق، أتسمعها؟
أنصتْ! إيقاع الإنسان يسرى ثانية
فى السكون العنيد، سكونِ التربة
فى أوائل الربيع. سيبدو لك

كل آت جديدا. فذلك الذى طالما
بدا مألوفا ينبعث الآن جديدا،
كنتَ دائما تتوقعه، بل تحلم به،
لكنك لم تنله قط. هو الذى نالك.

حتى الأوراق على السنديانة التى أنهكها الشتاء
تبدو فى المساء بُنِّيَّةً وتبشر بما هو آت،
أحيانا تتبادل الرياح الإشارات،

الشجيرات سوداء. لكن أكوام الروث
في الحقول تبدو أغنى وأشد سوادا؛
وفي كُلٍّ ساعة تمر، تـزداد شبابا.

XXVI

لكم تأسِرنا صيحة العصفور...
تأسرنا أى صيحة أوَّلية فريدة.
لكن صياح الأطفال، وهم يلعبون تحت
سماوات مفتوحة، تعلو فوق كل صياح.

يندبون الصدفة، وفى ثقوب الفضاء
(التى تلجها صيحة الطير الشافية كما
نلج نحن أعماق أحلامنا منزلقين فى انسياب)
يواصل الأطفال بعزم دَقَّ أوتاد صَرَخاتهم الحادة.

أسفاه أين نحن؟ أحرار نحن، نحلق عاليا
كأننا طائرات ورقية عن مراسيها انفصلت،
محفوفين بالضحكات نتسابق فى الأعالى،

تمزقنا الريح. أيها الإله الشادى! وَحِّدِ الصائحين
جوقةً منسجمة،كى تعلو الصيحات
فيجرف الرأسَ والقيثارَ سيلُها الهادر.

XXVII

هل الزمن موجود حقا... الزمن المهلك؟
ومتى يقوض القلعةَ على التل الهادئ؟
وهذا القلب الذى هو أبدا ملك الآلهة،
متى يستعبده الخالق، متى تحطمه مطرقة الزمن؟

أنحن حقا مخلوقات هشة
كما يحاول القدر دوما أن يقنعنا؟
وهل الطفولة العميقة الواعدة
تُجتث أخيرا من الجذور وتهلك؟

آه، شبح الفناء فى
الـمُصدِّق الساذج ينساب
كأنه هَـبَّةُ دخان،

القوى الخالدة ترانا

كما نحن، سواقين للعالم،

وتسخرنا لصياغة الغايات القصوى.

XXVIII

آه أقبلى وأدبرى، أنتِ، يا من أنت بعد طفلة،
أكملى ـ قبل أن يرتد الطرف ـ الرقصةَ
كى تصير جزءا من كوكبة النجوم الراقصة،
تلك الكوكبةِ التى نتسامى فيها نحن الفانين

فننعتق من إيقاع الطبيعة الممل. فالطبيعة لم تستيقظ
لترهف السمع إلا مرة واحدة: حين غنى أورفيوس،
مذ ذاك آمنتِ أنتِ وكنتِ تنزعجين قليلا
إن تباطأتْ شجرة

فى أن تشاطركِ الاستماع،
مازلتِ تعرفين المكانَ الذى نهض فيه القيثار
مدويا ـ المركزَ الذى لم يتصوره أحد قط،

لأجله كنتِ على رقصاتك الجميلة تتمرنين،
وكنتِ تأملين أن تغيرى وجهة حبيبك
فيقبلَ يوما محياه على مهرجان العشاق.

XXIX

أيها الهادئ، يا صديق المسافات العديدة،
انظر الآن كيف يوسِّع نفَسُك الفضاء،
املأ بجلجلتك أبراجَ الكنائس المعتمة،
ذلك الذى يغذى طاقاتك

سيقويه أبدا هذا الزاد،
بالتحول تجاوزِ الحدَّ الفاصل،
أخبرنى عن أعظم آلامك؟
وإن كان الشراب مرا، فصر خمرا.

كن فى ليلة الإسراف هذه سِحرا
عند ملتقى كل حواسك،
وكن لقاءها السرى الفريد،

وحينما ينكرك العالم

قل للأرض الساكنة: أنا أتدفق،

وللماء الدافق قل: أنا باق.

المشروع القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنبًا إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

العنوان	المؤلف	المترجم
١ – اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢ – الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣ – التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
٤ – كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
٥ – ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ – اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ – العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
٨ – مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ – التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠ – خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١ – مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ – طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣ – ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤ – التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥ – الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦ – أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف / أحمد عتمان
١٧ – مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨ – الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩ – الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ – قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت : يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١ – خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢ – مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣ – تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ – ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥ – مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦ – دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ – التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨ – رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩ – الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠ – الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣١ – مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه – كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢ – الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣ – التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣٤ – الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥ – الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت

العنوان	المؤلف	المترجم
٣٦ – نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت . حياة جاسم محمد
٣٧ – واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
٣٨ – نقد الحداثة	آلن تورين	ت أنور مغيث
٣٩ – الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت منيرة كروان
٤٠ – قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
٤١ – ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحي / محمود ماجد
٤٢ – عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
٤٣ – اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	ت . المهدي أخريف
٤٤ – بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلي	ت . مارلين تادرس
٤٥ – التراث المغدور	روبرت ج دنيا – جون ف أ فاين	ت . أحمد محمود
٤٦ – عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت · محمود السيد علي
٤٧ – تاريخ النقد الأدبي الحديث (١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ – حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت ماهر جويجاتي
٤٩ – الإسلام في البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠ – ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثماني الميلود ويوسف الأنطكي
٥١ – مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بياتوريا وخ. م بينياليستي	ت : محمد أبو العطا
٥٢ – العلاج النفسي التدعيمي	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفي فطيم وعادل دمرداش
٥٣ – الدراما والتعليم	أ . ف ألنجتون	ت · مرسي سعد الدين
٥٤ – المفهوم الإغريقي للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحي
٥٥ – ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	ت : علي يوسف علي
٥٦ – الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت . محمود علي مكي
٥٧ – الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطي
٥٨ – مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩ – المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠ – التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت · صبري محمد عبد الغني
٦١ – موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور – سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهري
٦٢ – لذّة النّص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعي .
٦٣ – تاريخ النقد الأدبي الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ – برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت · رمسيس عوض .
٦٥ – في مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦ – خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧ – مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدي أخريف
٦٨ – نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩ – العالم الإسلامي في أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولي وهويدا محمد فهمي
٧٠ – ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١ – السيدة لا تصلح إلا للرمي	داريو فو	ت : حسين محمود

٧٢ – السياسي العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلى
٧٣ – نقد استجابة القارئ	چين . ب تومبكنز	ت : حسن ناظم وعلي حاكم
٧٤ – صلاح الدين والمماليك في مصر	ل . ا . سيمينوڤا	ت : حسن بيومي
٧٥ – فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت أحمد درويش
٧٦ – چاك لاكان وإغواء التحليل النفسي	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
٧٧ – تاريخ النقد الأدبي الحديث ج ٣	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨ – العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
٧٩ – شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكي	ت . سعيد الغانمي وناصر حلاوي
٨٠ – بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمري
٨١ – الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوي
٨٢ – مسرح ميجيل	ميجيل دي أونامونو	ت . محمود السيد علي
٨٣ – مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالي
٨٤ – موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
٨٥ – منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكي أقطاي	ت : عبد الرازق بركات
٨٦ – طول الليل	جمال مير صادقي	ت : أحمد فتحي يوسف شتا
٨٧ – نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العناني
٨٨ – الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٨٩ – الطريق الثالث	أنتوني جيدنز	ت . أحمد زايد ومحمد محيي الدين
٩٠ – وسم السيف (قصص)	نخبة من كُتاب أمريكا اللاتينية	ت : محمد إبراهيم مبروك
٩١ – المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
٩٢ – أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكي المعاصر	كارلوس ميجل	ت : نادية جمال الدين
٩٣ – محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
٩٤ – الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوي
٩٥ – مختارات من المسرح الإسباني	أنطونيو بويرو باييخو	ت : سري محمد محمد عبد اللطيف
٩٦ – ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط
٩٧ – هوية فرنسا (مج ١)	فرنان برودل	ت بشير السباعي
٩٨ – الهم الإنساني والابتزاز الصهيوني	نماذج ومقالات	ت : أشرف الصباغ
٩٩ – تاريخ السينما العالمية	ديڤيد روبنسون	ت · إبراهيم قنديل
١٠٠ – مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام توميسون	ت : إبراهيم فتحي
١٠١ – النص الروائي (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت : رشيد بنحدو
١٠٢ – السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبي	ت : عز الدين الكتاني الإدريسي
١٠٣ – قبر ابن عربي يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت : محمد بنيس
١٠٤ – أوبرا ماهوجني	برتولت بريشت	ت : عبد الغفار مكاوي
١٠٥ – مدخل إلى النص الجامع	چيرارچينيت	ت : عبد العزيز شبيل
١٠٦ – الأدب الأندلسي	د. ماريا خيسوس روبييرامتي	ت : أشرف علي دعدور
١٠٧ – صورة الفدائي في الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة	ت : محمد عبد الله الجعيدي

١٠٨ - ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي	مجموعة من النقاد	ت : محمود على مكى
١٠٩ - حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
١١٠ - النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
١١١ - المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢ - الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	ت : إكرام يوسف
١١٣ - راية التمرد	سادى پلانت	ت : أحمد حسان
١١٤ - مسرحيتا حصاد كونجي وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت : نسيم مجلى
١١٥ - غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت سمية رمضان
١١٦ - امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
١١٧ - المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨ - النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	ت : لميس النقاش
١١٩ - النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنبل	ت : بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠ - الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
١٢١ - الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت . محمد الجندى ، وإيزابيل كمال
١٢٢ - نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
١٢٣ - الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نينل الكسندر وفنادولينا	ت: أنور محمد إبراهيم
١٢٤ - الفجر الكاذب	چون جراى	ت : أحمد فؤاد بلبع
١٢٥ - التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديڤى	ت : سمحه الخولى
١٢٦ - فعل القراءة	ڤولفانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
١٢٧ - إرهاب	صفاء فتحى	ت : بشير السباعى
١٢٨ - الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩ - الرواية الاسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت : محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠ - الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت : شوقى جلال
١٣١ - مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
١٣٢ - ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت : عبد الوهاب علوب
١٣٣ - الخوف من المرايا	طارق على	ت : طلعت الشايب
١٣٤ - تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	ت : أحمد محمود
١٣٥ - المختار من نقد ت س إليوت (ثلاثة أجزاء)	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦ - فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت سحر توفيق
١٣٧ - مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية	جوزيف مارى مواريه	ت : كاميليا صبحى
١٣٨ - عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تارونى	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩ - پارسيڤال	ريشارد ڤاچنر	ت : مصطفى ماهر
١٤٠ - حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبورى
١٤١ - اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢ - الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومى
١٤٣ - قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديريك لايدار	ت : عدلى السمرى
١٤٤ - صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدونى	ت : سلامة محمد سليمان

١٤٥ – موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت : أحمد حسان
١٤٦ – الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	ت : على عبد الرؤوف البمبى
١٤٧ – خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت : عبد الغفار مكاوى
١٤٨ – القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم على منوفى
١٤٩ – النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠ – التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت: منيرة كروان
١٥١ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١)	فرنان بروديل	ت : بشير السباعى
١٥٢ – عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكُتاب	ت : محمد محمد الخطابى
١٥٣ – غرام الفراعنة	فيولين فانويك	ت فاطمة عبد الله محمود
١٥٤ – مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت . خليل كلفت
١٥٥ – الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	ت أحمد مرسى
١٥٦ – المدارس الجمالية الكبرى	جى آنبال وآلان وأوديت ڤيرمو	ت : مى التلمسانى
١٥٧ – خسرو وشيرين	النظامى الكنوجى	ت : عبد العزيز بقوش
١٥٨ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢)	فرنان بروديل	ت : بشير السباعى
١٥٩ – الإيديولوجية	ديڤيد هوكس	ت : إبراهيم فتحى
١٦٠ – آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت : حسين بيومى
١٦١ – من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت : زيدان عبد الحليم زيدان
١٦٢ – تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسيوى	ت : صلاح عبد العزيز محجوب
١٦٣ – موسوعة علم الاجتماع ج ١	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
١٦٤ – شامپوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	ت . نبيل سعد
١٦٥ – حكايات الثعلب	أ . ن أفانا سيفا	ت : سهير المصادفة
١٦٦ – العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليڤمان	ت . محمد محمود أبو غدير
١٦٧ – فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	ت : شكرى محمد عياد
١٦٨ – دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت : شكرى محمد عياد
١٦٩ – إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت : شكرى محمد عياد
١٧٠ – الطريق	ميغيل دليبيس	ت : بسام ياسين رشيد
١٧١ – وضع حد	فرانك بيجو	ت : هدى حسين
١٧٢ – حجر الشمس	مختارات	ت : محمد محمد الخطابى
١٧٣ – معنى الجمال	ولتر ت . ستيس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤ – صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت : أحمد محمود
١٧٥ – التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦ – نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت : جلال البنا
١٧٧ – أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	ت : حصة إبراهيم منيف
١٧٨ – مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	ت : محمد حمدى إبراهيم
١٧٩ – حكايات أيسوب	أيسوب	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠ – قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت : سليم عبدالأمير حمدان .
١٨١ – النقد الأدبى الأمريكى	فنسنت . ب . ليتش	ت : محمد يحيى

١٨٢ – العنف والنبوءة　　و. ب. ييتس　　ت: ياسين طه حافظ
١٨٣ – چان كوكتو على شاشة السينما　　رينيه چيلسون　　ت: فتحي العشري
١٨٤ – القاهرة حالمة لا تنام　　هانز إيندورفر　　ت: دسوقي سعيد
١٨٥ – أسفار العهد القديم　　توماس تومسن　　ت: عبد الوهاب علوب
١٨٦ – معجم مصطلحات هيجل　　ميخائيل أنوود　　ت: إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧ – الأرضة　　بُزُرْج علوى　　ت: علاء منصور
١٨٨ – موت الأدب　　ألفين كرنان　　ت: بدر الديب
١٨٩ – العمى والبصيرة　　پول دى مان　　ت: سعيد الغانمي
١٩٠ – محاورات كونفوشيوس　　كونفوشيوس　　ت: محسن سيد فرجاني
١٩١ – الكلام رأسمال　　الحاج أبو بكر إمام　　ت: مصطفى حجازى السيد
١٩٢ – سياحتنامه إبراهيم بيك　　زين العابدين المراغي　　ت: محمود سلامة علاوى
١٩٣ – عامل المنجم　　بيتر أبراهامز　　ت: محمد عبد الواحد محمد
١٩٤ – مختارات من النقد الأنجلو – أمريكى　　مجموعة من النقاد　　ت: ماهر شفيق فريد
١٩٥ – شتاء ٨٤　　إسماعيل فصيح　　ت: محمد علاء الدين منصور
١٩٦ – المهلة الأخيرة　　فالنتين راسبوتين　　ت: أشرف الصباغ
١٩٧ – الفاروق　　شمس العلماء شبلى النعمانى　　ت: جلال السعيد الحفناوى
١٩٨ – الاتصال الجماهيرى　　إدوين إمرى وآخرون　　ت: إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩ – تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية　　يعقوب لانداوى　　ت: جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠ – ضحايا التنمية　　جيرمى سيبروك　　ت: فخرى لبيب
٢٠١ – الجانب الدينى للفلسفة　　جوزايا رويس　　ت: أحمد الأنصارى
٢٠٢ – تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ٤　　رينيه ويليك　　ت: مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣ – الشعر والشاعرية　　ألطاف حسين حالى　　ت: جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤ – تاريخ نقد العهد القديم　　زالمان شازار　　ت: أحمد محمود هويدى
٢٠٥ – الجينات والشعوب واللغات　　لويجى لوقا كافاللى – سفورزا　　ت: أحمد مستجير
٢٠٦ – الهيولية تصنع علمًا جديدًا　　جيمس جلايك　　ت: على يوسف على
٢٠٧ – ليل إفريقى　　رامون خوتاسندير　　ت: محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٠٨ – شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى　　دان أوريان　　ت: محمد أحمد صالح
٢٠٩ – السرد والمسرح　　مجموعة من المؤلفين　　ت: أشرف الصباغ
٢١٠ – مثنويات حكيم سنائى　　سنائى الغزنوى　　ت: يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١ – فردينان دوسوسير　　جوناثان كلر　　ت: محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢ – قصص الأمير مرزبان　　مرزبان بن رستم بن شروين　　ت: يوسف عبد الفتاح فرج
٢١٣ – مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر　　ريمون فلاور　　ت: سيد أحمد على الناصرى
٢١٤ – قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع　　أنتونى جيدنز　　ت: محمد محمود محى الدين
٢١٥ – سياحت نامه إبراهيم بيك جـ٢　　زين العابدين المراغى　　ت: محمود سلامة علاوى
٢١٦ – جوانب أخرى من حياتهم　　مجموعة من المؤلفين　　ت: أشرف الصباغ
٢١٧ – مسرحيتان طليعيتان　　صمويل بيكيت　　ت: نادية البنهاوى
٢١٨ – رايولا　　خوليو كورتازار　　ت: على إبراهيم على منوفى

٢١٩ – بقايا اليوم | كازو ايشجورو | ت . طلعت الشايب
٢٢٠ – الهيولية فى الكون | بارى باركر | ت : على يوسف على
٢٢١ – شعرية كفافى | جريجورى جوزدانيس | ت : رفعت سلام
٢٢٢ – فرانز كافكا | رونالد جراى | ت : نسيم مجلى
٢٢٣ – العلم فى مجتمع حر | بول فيرابند | ت : السيد محمد نفادى
٢٢٤ – دمار يوغسلافيا | برانكا ماجاس | ت : منى عبد الظاهر إبراهيم السيد
٢٢٥ – حكاية غريق | جابرييل جارثيا ماركث | ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٦ – أرض المساء وقصائد أخرى | ديفيد هربت لورانس | ت : طاهر محمد على البربرى
٢٢٧ – المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر | موسى ماريا ديف بوركى | ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٨ – علم الجمالية وعلم اجتماع الفن | جانيت وولف | ت : مارى تيريز عبد المسيح وخالد حسن
٢٢٩ – مأزق البطل الوحيد | نورمان كيمان | ت : أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠ – عن الذباب والفئران والبشر | فرانسواز جاكوب | ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١ – الدرافيل | خايمى سالوم بيدال | ت : جمال أحمد عبد الرحمن
٢٣٢ – مابعد المعلومات | توم ستينر | ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣ – فكرة الاضمحلال | آرثر هيرمان | ت : طلعت الشايب
٢٣٤ – الإسلام فى السودان | ج. سبنسر تريمنجهام | ت : فؤاد محمد عكود
٢٣٥ – ديوان شمس تبريزى ج١ | جلال الدين الرومى | ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦ – الولاية | ميشيل تود | ت : أحمد الطيب
٢٣٧ – مصر أرض الوادى | روبين فيدين | ت : عنايات حسين طلعت
٢٣٨ – العولمة والتحرير | الانكتاد | ت : ياسر محمد جاد الله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩ – العربى فى الأدب الإسرائيلى | جيلارافر – رابوخ | ت : نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠ – الإسلام والغرب وإمكانية الحوار | كامى حافظ | ت : صلاح عبد العزيز محمود
٢٤١ – فى انتظار البرابرة | ك. م كويتز | ت : ابتسام عبد الله سعيد
٢٤٢ – سبعة أنماط من الغموض | وليام إمبسون | ت : صبرى محمد حسن عبد النبى
٢٤٣ – تاريخ إسبانيا الإسلامية جـ١ | ليفى بروفنسال | ت : مجموعة من المترجمين
٢٤٤ – الغليان | لاورا إسكيبيل | ت : نادية جمال الدين محمد
٢٤٥ – نساء مقاتلات | إليزابيتا أديس | ت : توفيق على منصور
٢٤٦ – قصص مختارة | جابرييل جرثيا ماركث | ت : على إبراهيم على منوفى
٢٤٧ – الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر | وولتر أرمبرست | ت : محمد الشرقاوى
٢٤٨ – حقول عدن الخضراء | أنطونيو جالا | ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٢٤٩ – لغة التمزق | دراجو شتامبوك | ت : رفعت سلام
٢٥٠ – علم اجتماع العلوم | دومنيك فينك | ت : ماجدة أباظة
٢٥١ – موسوعة علم الاجتماع ج ٢ | جوردون مارشال | ت : بإشراف محمد الجوهرى
٢٥٢ – رائدات الحركة النسوية المصرية | مارجو بدران | ت : على بدران
٢٥٣ – تاريخ مصر الفاطمية | ل. أ. سيميونوفا | ت : حسن بيومى
٢٥٤ – الفلسفة | ديف روبنسون وجودى جروفز | ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥ – أفلاطون | ديف روبنسون وجودى جروفز | ت : إمام عبد الفتاح إمام

٢٥٦ - ديكارت	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧ - تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	ت : محمود سيد أحمد
٢٥٨ - الغجر	سير أنجوس فريزر	ت : عُبادة كُحيلة
٢٥٩ - مختارات من الشعر الأرمنى	نخبة	ت : ڤاروچان كازانچيان
٢٦٠ - موسوعة علم الاجتماع ج٢	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
٢٦١ - رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢ - مدينة المعجزات	إدوارد مندوثا	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٦٣ - الكشف عن حافة الزمن	چون جريبن	ت : على يوسف على
٢٦٤ - إبداعات شعرية مترجمة	هوراس / شلى	ت : لويس عوض
٢٦٥ - روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصموئيل جونسون	ت : لويس عوض
٢٦٦ - مدير المدرسة	جلال آل أحمد	ت : عادل عبد المنعم سويلم
٢٦٧ - فن الرواية	ميلان كونديرا	ت : بدر الدين عرودكى
٢٦٨ - ديوان شمس تبريزى ج٢	جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩ - وسط الجزيرة العربية وشرقها ج١	وليم چيفور بالجريف	ت : صبرى محمد حسن
٢٧٠ - وسط الجزيرة العربية وشرقها ج٢	وليم چيفور بالجريف	ت : صبرى محمد حسن
٢٧١ - الحضارة الغربية	توماس سى . باترسون	ت : شوقى جلال
٢٧٢ - الأديرة الأثرية فى مصر	س. س. والترز	ت : إبراهيم سلامة
٢٧٣ - الاستعمار والثورة فى الشرق الأوسط	جوان آر. لوك	ت : عنان الشهاوى
٢٧٤ - السيدة بربارا	رومولو جلاجوس	ت : محمود على مكى
٢٧٥ - ت. س. إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً	أقلام مختلفة	ت : ماهر شفيق فريد
٢٧٦ - فنون السينما	فرانك جوتيران	ت : عبد القادر التلمسانى
٢٧٧ - الچينات الصراع من أجل الحياة	بريان فورد	ت : أحمد فوزى
٢٧٨ - البدايات	إسحق عظيموف	ت : ظريف عبد الله
٢٧٩ - الحرب الباردة الثقافية	فرانسيس ستونر سوندرز	ت : طلعت الشايب
٢٨٠ - من الأدب الهندى الحديث والمعاصر	بريم شند وآخرون	ت : سمير عبد الحميد
٢٨١ - الفردوس الأعلى	مولانا عبد الحليم شرر الكهنوى	ت : جلال الحفناوى
٢٨٢ - طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس ولبيرت	ت : سمير حنا صادق
٢٨٣ - السهل يحترق	خوان رولفو	ت : على البمبى
٢٨٤ - هرقل مجنوناً	يوريبيدس	ت : أحمد عتمان
٢٨٥ - رحلة الخواجة حسن نظامى	حسن نظامى	ت : سمير عبد الحميد
٢٨٦ - رحلة إبراهيم بك ج٣	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
٢٨٧ - الثقافة والعولمة والنظام العالمى	أنتونى كينج	ت : محمد يحيى وآخرون
٢٨٨ - الفن الروائى	ديفيد لودج	ت : ماهر البطوطى
٢٨٩ - ديوان منجوهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	ت : محمد نور الدين
٢٩٠ - علم الترجمة واللغة	جورج مونان	ت : أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١ - المسرح الإسبانى فى القرن العشرين ج١	فرانشسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر
٢٩٢ - المسرح الإسبانى فى القرن العشرين ج٢	فرانشسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر

٢٩٣ – مقدمة للأدب العربى	روجر آلان	ت : نخبة من المترجمين
٢٩٤ – فن الشعر	بوالو	ت : رجاء ياقوت صالح
٢٩٥ – سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل	ت : بدر الدين حب الله الديب
٢٩٦ – مكبث	وليم شكسبير	ت : محمد مصطفى بدوى
٢٩٧ – فن النحو بين اليونانية والسوريانية	ديونيسيوس ثراكس – يوسف الأهوانى	ت : ماجدة محمد أنور
٢٩٨ – مأساة العبيد	أبو بكر تفاوابليوه	ت : مصطفى حجازى السيد
٢٩٩ – ثورة التكنولوجيا الحيوية	جين ل. ماركس	ت : هاشم أحمد فؤاد
٣٠٠ – أسطورة برومثيوس مج١	لويس عوض	ت : جمال الجزيرى وبهاء چاهين
٣٠١ – أسطورة برومثيوس مج٢	لويس عوض	ت : جمال الجزيرى ومحمد الجندى
٣٠٢ – فنجنشتين	جون هيتون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٣ – بـوذا	جين هوب وبورن فان لون	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤ – ماركس	ريـوس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥ – الجلد	كروزيو مالابارته	ت : صلاح عبد الصبور
٣٠٦ – الحماسة – النقد الكانطى للتاريخ	چان – فرانسوا ليوتار	ت : نبيل سعد
٣٠٧ – الشعور	ديفيد بابينو	ت : محمود محمد أحمد
٣٠٨ – علم الوراثة	ستيف جونز	ت : ممدوح عبد المنعم أحمد
٣٠٩ – الذهن والمخ	انجوس چيلاتى	ت : جمال الجزيرى
٣١٠ – يونج	ناجى هيد	ت : محيى الدين محمد حسن
٣١١ – مقال فى المنهج الفلسفى	كولنجوود	ت : فاطمة إسماعيل
٣١٢ – روح الشعب الأسود	وليم دى بويز	ت : أسعد حليم
٣١٣ – أمثال فلسطينية	خابير بيان	ت : عبد الله الجعيدى
٣١٤ – الفن كعدم	جينس مينيك	ت : هويدا السباعى
٣١٥ – جرامشى فى العالم العربى	ميشيل بروندينو	ت :كاميليا صبحى
٣١٦ – محاكمة سقراط	آ. ف. ستون	ت : نسيم مجلى
٣١٧ – بلا غد	شير لايموفا – زنيكين	ت : أشرف الصباغ
٣١٨ – الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	نخبة	ت : أشرف الصباغ
٣١٩ – صور دريدا	جايترى اسبيفاك وكرستوفر نوريس	ت : حسام نايل
٣٢٠ – لمعة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٢١ – تاريخ إسبانيا الإسلامية ج٢	ليفى. برو فنسال	ت : نخبة من المترجمين
٣٢٢ – التاريخ الغربى للفن الحديث	ديليوجين كليناور	ت : خالد مفلح حمزة
٣٢٣ – فن الساتورا	تراث يونانى قديم	ت : هانم سليمان
٣٢٤ – اللعب بالنار	أشرف أسدى	ت : محمود سلامة علاوى
٣٢٥ – عالم الآثار	فيليب بوسان	ت : كرستين يوسف
٣٢٦ – المعرفة والمصلحة	جورجين هابرماس	ت : حسن صقر
٣٢٧ – مختارات شعرية مترجمة	نخبة	ت : توفيق على منصور
٣٢٨ – يوسف وزليخة	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	ت : عبد العزيز بقوش
٣٢٩ – رسائل عيد الميلاد	تد هيوز	ت : محمد عيد إبراهيم

٣٣٠ – كل شيء عن التمثيل الصامت	مارفن شبرد	ت : سامي صلاح
٣٣١ – عندما جاء السردين	ستيفن جراي	ت : سامية دياب
٣٣٢ – رحلة شهر العسل وقصص أخرى	نخبة	ت : علي إبراهيم على منوفي
٣٣٣ – الإسلام في بريطانيا	نبيل مطر	ت : بكر عباس
٣٣٤ – لقطات من المستقبل	أرثر س كلارك	ت : مصطفى فهمي
٣٣٥ – عصر الشك	ناتالي ساروت	ت : فتحي العشري
٣٣٦ – متون الأهرام	نصوص قديمة	ت : حسن صابر
٣٣٧ – فلسفة الولاء	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصاري
٣٣٨ – قصص قصيرة من الهند	نخبة	ت : جلال السعيد الحفناوي
٣٣٩ – تاريخ الأدب في إيران جـ٣	علي أصغر حكمت	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٤٠ – اضطراب في الشرق الأوسط	بيرش بيربيروجلو	ت : فخري لبيب
٣٤١ – قصائد من رلكه	راينر ماريا رلكه	ت : حسن حلمي

٢٠٠٢/٨٣٤٨

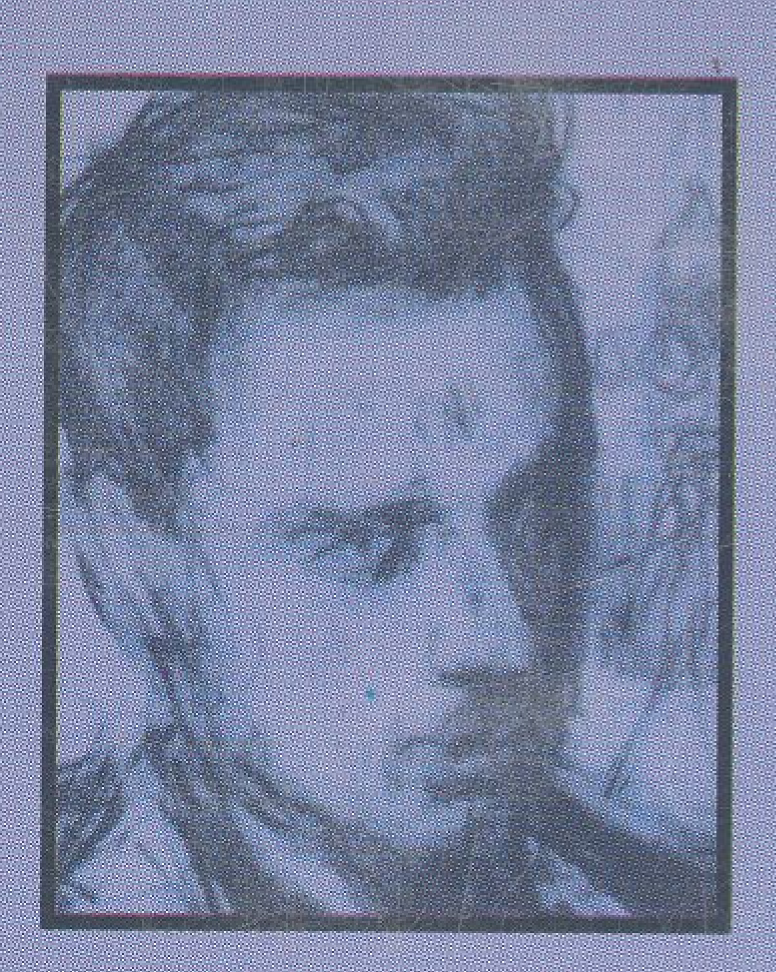
977-5769-62-3

التنفيذ والطباعة:

11 ميدان سفنكس - المهندسين

تليفون: 3034408





راينر ماريا رلكه

مختارات شعرية

ترجمة : حسن حلمى

«أن تقرأ قصيدة عظيمة فى لغة واحدة فقط، خصوصًا إن كانت لغة غير لغتك، شبيه بأن تتسلق الجبل بمفردك متبعًا طريقًا مباشراً هو أشق الطرق على الإطلاق، ولكن أن تقرأ قصيدة عظيمة فى لغتين أو أكثر يعنى أن تتسلق نفس الجبل، لكن هذه المرة من جوانب مختلفة، وقد تكون فى رفقة أصدقائك! بوسعنا آنئذ أن ندرك أن القمة هى النقطة التى تتوحد وتأتلف فيها كل الاتجاهات التى سبق أن رأيناها مختلفة، وأن الجبل نفسه -مهما تعددت المرات التى تسلقناه- يظل دائمًا أصيلاً، صافيًا، مستعصيًا على الفهم».

إن اعتبار رلكه شاعراً "ألمانيًا" يحجب انتماءه إلى الإمبراط النمساوية الهنغارية، لكن نعته بكونه "هنغاريًا" يلقى ظلا على هويته العرقية والتاريخية؛ فقد كان مواطنًا من بوهمي ناطقًا بالألمانية، وقد ظل يعتبر نفسه بوهميًا، حتى بعد قي تشكوسلوفاكيا، منطقة متعددة اللغات... إن طمس الحدو الجمالية والنفسية [فى المراثى والسونيتات...] يوازى ر الحدود اللغوية والثقافية والجغرافية والسياسية، وكان من نتائج هذا الرفض ادعاء رلكه بأنه مواطن أوروبى.



تصميم الغلاف: أسامة العبد